معهد الدراسات العربية العالية

العرب والحرب العالمية الثانية

تأليف

الدكتور صلاح العقاد

١٩٦٦

١٩٦٦

مطبعة الرسالة
٢٣ شارع حموده المقاول - عابدين

تصدير

إن من الأمور التى تسترعى الانتباه حقا هو أن عدة مؤلفات قد تناولت دور العرب فى الحرب العالمية الأولى بينما لا نصادف كتابا واحداً خصص لدراسة موقف العرب من الحرب العالمية الثانية وإنما نجد إشارات إلى هذا الموضوع فى ثنايا الكتب التى تعرض للتاريخ العام لقطر من الأقطار العربية أو نجده ضمن الدراسات العامة الخاصة بتاريخ الشرق الأوسط الحديث والمعاصر .

وبوسعنا أن نقدم بعض التفسيرات لهذه الظاهرة مع ملاحظة أن التفسير شيء يختلف عن التبرير ، من ذلك مثلا أن حركة الشريف حسين اعتبرت دورا إيجابيا قام به العرب فى الحرب العالمية الأولى ، ومهما كانت نتائج هذه الحركة مؤسفة فمما لا شك فيه أنه قد ترتب عليها ظهور كيانات عربية حديثة فى الشام والعراق تخضع للاستعمار البريطانى والفرنسى ولكنها على كل حال كيانات تستند إلى أسس قومية حديثة وتمثل انتقال العرب نهائيا من مرحلة التردد بين فكرة الاسلامية والعثمانية والعروبة إلى مرحلة المفهوم القومى العصرى . وهذه نتائج ملموسة ليس لها نظير فى الحرب العالمية الثانية، ومع ذلك لا نستطيع القول بأن موقف العرب فى الحرب الثانية كان سلبيا تماماً بالرغم من أن معظم الأقطار العربية كانت ترزح تحت نير الاستعمار ويكفى أن نشير إلى حركة رشيد عالى الكيلانى فى العراق وإلى المناقشات التى دارت بين الساسة المصريين حول إمكان المساومة مع بريطانيا على الاستفادة من الحرب ، يضاف إلى ذلك أنه نجمت عن الحرب العالمية الثانية أيضا نتائج ملموسة مباشرة بالنسبة لبعض الدول العربية ، فقد خرجت سوريا ولبنان من الانتداب الفرنسى

إلى مرحلة الاستقلال السياسى التام غير المقيد بمعاهدة ، كما أن تلك الحرب هى التى ساعدت على قيام ليبيا كدولة حديثة أما بالنسبة للاقطار الأخرى فإن نتائج الحرب الثانية لم تظهر إلا على المدى البعيد وهذا لا يقلل من أهميتها .

التفسير الثانى لإهمال هذا الموضوع هو قرب العهد بالحرب العالمية الثانية وتحفظ كثير من المؤرخين فى تناول الموضوعات المعاصرة ، وللرد على هذا التحفظ لا نستطيع إلا أن نكرر ما ذكرناه فى كتابنا الذى نشر فى سنة ١٩٦٣ بعنوان « الحرب العالمية الثانية دراسة فى تاريخ العلاقات الدولية » وهو أن وسائل البحث قد تغيرت فى عصرنا عما كانت عليه فى السابق ، فإن الشئون السياسية لم تعد سراً قاصراً على الحكومات وهى مضطرة إلى تبرير موقفها أمام شعوبها ، فالمناقشات التى تدور فى البرلمانات وما تنشره الصحف هى مصادر معتمدة لكتابة التاريخ المعاصر يضاف إلى ذلك أن كثيرا من الساسة الذين لعبوا دورا أساسيا فى الحرب قد نشروا مذكراتهم كما نلاحظ ذلك من ثبت المراجع . ومن جهة أخرى نشر الحلفاء معظم الوثائق الألمانية المتعلقة بالحرب ولو أن الإشارات التى تخص العالم العربى نادرة فى هذه المجموعة ، ولولا أنه سبق لنا تناول موضوع الحرب العالمية الثانية بصفة عامة لأصبح من العسير حقا استخراج الإشارات الخاصة بالوطن العربى سواء من تلك الوثائق أو من مذكرات تشرشل أو شيانو أو غيرهما من الساسة الأوربيين .

على أننا للأسف لا نصادف مثل تلك المصادر الغنية بالنسبة لتاريخ الوطن العربى فلم نجد من بين الساسة المصريين الذين كانوا يشاركون فى الحكم أثناء الحرب من نشر مذكرات على هذا النحو سوى الدكتور محمد حسين هيكل . وفى العراق نشر رشيد عالى الكيلانى مذكراته كذلك وهى مقتضبة جداً . ولعل أفضل دراسة وثائقية عثرنا عليها بالنسبة لهذا الموضوع هى تلك التى نشرها عبد الرزاق الحسنى عن حركة رشيد عالى

الكيلانى . وإذا افترضنا جدلا أن اقتراب الزمن هو سبب تجنب المؤرخين لهذا الموضوع فبوسعنا أن نجيب عن هذا الافتراض بطريقة أخرى وهو أن معظم الكتب التى تناولت العرب فى الحرب العالمية الأولى قد تم وضعها فى السنوات القليلة التى تلت تلك الحرب .

هذا ولم نقصد بتلك الدراسة أن نستعرض التاريخ العام للوطن العربى بين عامى ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ وإنما استهدفنا دائما ربط الموقف العربى بالأحداث الدولية المحيطة به فى تلك الحقبة وتلمسنا الاتجاهات السياسية السائدة فى هذا القطر أو ذاك من أقطار الوطن العربى . وكنا نفضل لو استطعنا أن نقسم دراستنا موضوعياً كأن نفرد فصلا مثلا عن الفئات الميالة للمحور أو تلك التى تعاونت مع الحلفاء وفصلا ثالثا عن أنصار الحياد لولا أننا وجدنا هذا التقسيم مستحيلا وذلك لتباين أحوال الأقطار العربية آنذاك وتفاوتها تفاوتا كبيراً بسبب الأوضاع الاستعمارية السائدة فلم يكن ثمة بد من تقسيم الدراسة على أساس إقليمى ، ورغم ذلك فإن القارىء يستطيع أن يخرج بسهولة بنظرة تركيبية بعد تتبع الموضوع وهذا ما قصدنا إليه من تلك الدراسة ونرجو أن نكون قد وفقنا . ونحن نشكر معهد الدراسات العربية العالية إذ أتاح لنا تلك الفرصة الطيبة لنشر هذا الموضوع وبهذا نستطيع أن نكون قد استجبنا للرغبة التى عبر عنها بعض أصدقائنا عند نشر كتابنا المشار إليه فقد أخذوا علينا اقتضاب الفصل المخصص للوطن العربى وكان منهج البحث هو الذى اضطرنا إلى ذلك الاقتضاب .

تمهيد

إذا ألقينا نظرة عامة على الوطن العربي عند قيام الحرب سنة ١٩٣٩ نستطيع أن نستخلص أربع مجموعات من الأقطار تتفاوت تفاوتا تاما من حيث وضعها السياسى .

وتتكون المجموعة الأولى من مصر والعراق إذ تتشابه هاتان الدولتان فى أنهما تتمتعان بالاستقلال فى إدارة شئونها الداخلية ولكنهما مقيدتان بمعاهدات تحالف وصداقة مع بريطانيا وهو ما نسميه بالمعاهدات غير المتكافئة ، فمصر مقيدة بمعاهدة سنة ١٩٣٦ والعراق بمعاهدة سنة ١٩٣٠ وحسب هاتين المعاهدتين تلتزم الدولتان العربيتان بتقديم جميع التسهيلات للجيوش البريطانية أثناء الحرب بصفة خاصة ، فلم يكن ثمة مجال أمام الدولتين للاختيار من الناحية الرسمية على الأقل بل لم يكن بوسع أى منهما أن تتخذ موقف الحياد فى الحرب، ولذلك فإن الخلاف الذى نشأ بين الجهات الرسمية لم يكن يدور حول الأخذ بمعاهدة التحالف مع بريطانيا أو عدم الأخذ بها بل حسب مدى التعاون فى إطار تلك المعاهدات .

ومما يسترعى الانتباه أن العراق حتى أثناء اشتباكه القصير مع بريطانيا فى مايو سنة ١٩٤١ لم يعمد إلى إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٠ ومن ثم فإن التحدث عن وجود ميول محورية أو نزعات إلى الحياد التام فى الحرب إنما كان قاصرا على بعض التيارات الشعبية ولا يتصل بموقف الجهات الرسمية .

المجموعة الثانية تتكون من تلك الاقطار الموضوعة تحت الانتداب البريطانى والفرنسى : فلسطين وشرق الأردن ، سوريا ولبنان .

ولما كان نظام الانتداب شديد الوطأة وقد اتخذ من الحرب حجة لإيقاف التطور الدستورى داخل تلك الأقطار فقد كبتت جميع الاتجاهات الشعبية ولذلك نلاحظ أن العوامل المحركة لتاريخ هذه المجموعة من الأقطار العربية تنبع من خارج البلاد ، فبالنسبة لفلسطين مثلا كانت علاقة الانتداب بالصهيونية هى التى تؤثر على توجيه الأحداث فى المكان الأول ، وفى سوريا ولبنان كان الخلاف بين بريطانيا وحكومة فيشى من جهة ثم بين حكومة فرنسا الحرة وبريطانيا بعد ذلك هو العامل الرئيسى الذى وجه أحداث البلاد خلال فترة الحرب ، وإن كانت الحركة الوطنية فى سوريا ولبنان قد استفادت فى نهاية الأمر من وجود هذا النزاع وتعدد أطرافه .

وتقع المجموعة الثالثة فى شبه جزيرة العرب حيث تشكلت فى فترة ما بين الحربين دولتان تتمتعان بالاستقلال التام وإن كانت تحيط بهما محميات بريطانية وهاتان الدولتان هما اليمن والمملكة العربية السعودية ، ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن تكون هاتان الدولتان هما أكثر الدول العربية حرية فى تصريف شئونهما الداخلية والخارجية لعدم ارتباطهما بأية معاهدة وذلك بالرغم من أنهما أقل تطوراً من الناحية الاجتماعية إذا ماقيست أحوالها بأحوال البلاد الخاضعة للنفوذ الأجنبى .

ولم تكن لجزيرة العرب فى الحرب العالمية الثانية نفس الأهمية التى شهدتها فى الحرب الأولى لأنها ظلت بعيدة عن ميادين القتال ومع ذلك فإن التنافس الدولى قد مس شبه الجزيرة قبيل الحرب وذلك عندما وقعت كل من إيطاليا وبريطانيا معاهدة بتقسيم مناطق النفوذ فى الشرق الأوسط فى ابريل سنة ١٩٣٨[١] وهى لم تصرح تماما بهذه العبارة غير أنه كان

---

(١) انظر نص المعاهدة فى Hurewitz 2 Vol. 2 p. 216

مفهوما ضمنا أن المعاهدة تعنى أن السعودية ملحقة بمنطقة نفوذ بريطانية بينما أن اليمن ترتبط بمنطقة نفوذ إيطالية . ولما كانت إيطاليا ذات صلات اقتصادية خاصة مع اليمن فقد أوشك الصراع أن يمتد إلى جنوب شبه الجزيرة أثناء وجود الطليان فى أرتريا على الشاطىء المواجه من البحر الأحمر غير أن هذا الوجود زال منذ سنة ١٩٤١ وخرجت شبه الجزيرة تماما بعد ذلك من حلبة الصراع بين الحلفاء وبين المحور وإن دخل إليها نوع جديد من الصراع الاقتصادى والسياسى بين الانجليز والأمريكيين .

وتتكون المجموعة الرابعة من أقطار المغرب العربى وسنرى أنه قد تعاقبت على هذه الأقطار أثناء الحرب أنظمة مختلفة من الدول والحكومات ، فسيطرت عليها حكومة فيشى أولا ثم احتل الألمان تونس لفترة قصيرة ثم تبعهم الحلفاء حينما غزوا شمال أفريقيا فى خريف سنة ١٩٤٢ ولم يلبثوا أن سلموا السلطة إلى حكومة فرنسا الحرة ، وحدثت جميع هذه التغيرات دون أن يؤخذ فى الاعتبار وجود السكان الأصليين وما يكنونه من رغبات فى التحرر من الحكم الفرنسى ولعل ذلك هو الذى جعل بعض الكتاب يهمل ذكر المغرب عند تناول تاريخ العرب الحديث فى تلك الفترة .

وبالاضافة إلى هذه المجموعات الأربع يمكن الإشارة إلى ليبيا كحالة فريدة قائمة بذاتها فهى القطر العربى الوحيد الذى رزح تحت نير استعمار دولة من دول المحور . وكانت السياسة الايطالية تتجه قبيل الحرب إلى محو شخصية ذلك القطر العربى على نمط السياسة التى تتبعها فرنسا فى الجزائر ، لذلك فإن هزيمة المحور كانت نقطة تحول فى تاريخ ليبيا المعاصر وهى التى ساعدت ذلك القطر على نيل الاستقلال قبل أشقائه فى المغرب العربى بالرغم من أنه كان أقل تطورا .

لم تكن أوضاع الوطن العربى إذن تشجع أيا من الفريقين المتحاربين على الاهتمام بتأييد الأمانى الوطنية مقابل معونة يقدمها العرب لهذا الفريق أو ذاك ، فبريطانيا أو فرنسا تمتلك بالفعل حرية التصرف فى معظم أقطار الوطن العربى ، وألمانيا لم تكن تريد أن تغضب حليفتها إيطاليا التى لها أطماع فى نفس المنطقة إذا ما هى تمادت فى إظهار عطفها على الأمانى العربية ويقارن ذلك الموقف بتهافت الحلفاء والمحور معاً على استرضاء تركيا لاخراجها عن سياسة الحياد واجتذابها إلى التحالف مع أى من المعسكرين فقدم الحلفاء مساعدات اقتصادية وعسكرية هائلة بينما لوح الألمان باقتطاع حلب من سوريا وضمها لتركيا مقابل التحالف معها فى الحرب .

وإذا ما ألقينا جانبا الجهات الرسمية التى لم يكن أمامها مجال للاختيار كما رأينا فمن الصعب التحدث عن تيار شعبى موحد ساد العالم العربى أثناء الحرب فكانت هناك بعض العوامل التى تشد الرأى العام نحو المحور وخاصة قضية فلسطين ولكن كانت هناك عوامل أخرى تقف ضد هذا التيار أهمها وجود ايطاليا كشريك لألمانيا فى الحرب .

وكانت إيطاليا قد افتتحت إذاعة عربية فى سنة ١٩٣٥ ونصبت من نفسها مدافعا عن حقوق العرب ضد الاستعمار البريطانى والصهيونية ولكن تصرفات إيطاليا فى السنوات التالية كانت تناقض هذه النغمة من الدعاية فلم تكسب الرأى العربى فهى قد ضربت مثلا سيئا فى استعمارها لليبيا ثم شنت العدوان المشهور على الحبشة فى سنة ١٩٣٦ وأخيرا وقعت اتفاق سنة ١٩٣٨ مع انجلترا ومن بين ما اشتمل عليه عدم المساس بمصالح بريطانيا فى المناطق التى تسيطر عليها وتأكيد الوضع القائم فى قناة السويس مما كان له أثر سىء على الوطنيين فى مصر بصفة خاصة ،

يضاف إلى ذلك انتشار الجاليات الإيطالية فى عديد من الأقطار العربية وما اشتهرت به هذه الجاليات من صلف وغرور فى تعاملها مع السكان الوطنيين .

والحق أن هؤلاء الساسة العرب الذين مالوا إلى المحور لم يفعلوا ذلك حبا فى الأنظمة الدكتاتورية أو عن إنخداع فى أغراض دولة التوسعية وإنما اعتبروا أن انتصار المحور هو أهون الشرين وذلك لسببين . أولا أن الاستعمار البريطانى أو الفرنسى هو القائم فعلا فى معظم أجزاء الوطن العربى فمن الخير لحركة التحرر العربى انهزام هاتين الدولتين ، ثانيا أن الاستعمار خطر مؤقت ونهايته محتومة أما الصهيونية فهى خطر أعظم يهدد كيان الأمة العربية ذاتها ومن هنا فإن انتصار المحور سيحقق للعرب كسبا أساسياً مؤكدا بينما أن انتصار الحلفاء قد يحقق مكاسب محدودة وفى مناطق معينة تنحصر فى ليبياوسوريا ولبنان على أقصى تقدير .

ومن هنا نلاحظ أن عوامل محلية تدخلت أحيانا للتأثير على الرأى العام العربى فمثلا رحب السنوسى بتحالف الانجليز منذ البداية لأنه نظر إلى المسألة نظرة محلية محضة ، أما هؤلاء الذين قاسوا المصالح العربية على مستوى الوطن العربى كله فقد جعلوا قضية فلسطين هى العامل الأول الذى يحدد موقفهم ولذا فلاحظ أن أصدقاء المحور فى مصر والعراق مثلا كانوا ينتمون إلى تلك البيئات المتحمسة لمبدأ الوحدة العربية أو الإسلامية فى أغلب الأحيان .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الخلافات الايديولوجية لم يكن لها تأثير يذكر فى تحديد موقف العرب بمعنى أن أصدقاء المحور لم يكونوا من مؤيدى الانظمة الدكتاتورية ومن باب أولى من الذين يعتنقون المبادىء النازية ولو كانت العقائد السياسية تشغل أذهان الساسة العرب لأدركوا كيف

أن النازية تتناقض ومصالحهم الوطنية لأنها تؤمن بالعنصرية ولا تضع العرب فى الترتيب الذى رسمه هتلر للأجناس من بين العناصر الراقية. وكثيراً ماتستخدم الدعاية الصهيونية هذه المغالطة ضد العرب فكانت تذكر بأن هؤلاء الذين مالوا إلى المحور إنما كانو يعتنقون المبادىء النازية العنصرية وأن هذا هو سبب عدائهم لليهود وحقيقة الأمر أن العنصرية لم تراود قط فكر الوطنيين العرب وأن خصومتهم لليهود لاتنبنى على أساس عنصرى بل ترجع إلى الدفاع عن النفس ضد حركة استعمارية جاءت من الخارج لتسلب جزءا من الوطن العربى .

وخلاصة القول أن هؤلاء الذين مالوا إلى المحور فى وقت ماكانوا يعتقدون بأن ذلك هو أفضل السبل لتحرير بلادهم .

ولايوجد سوى حالات نادرة لساسة من العرب أبدوا المانيا إعجابا بنظامها النازى من هؤلاء مثلا اسماعيل صدقى الذى وردت على لسانه إشارات بهذا المعنى فى البرلمان المصرى منذ نهاية سنة ١٩٣٨ ، أى على أثر انتصار هتلر فى مؤتمر ميونخ وسيواصل إظهار هذا الأعجاب خلال سنوات الحرب الأولى(١) .

وعلى العكس يلاحظ أن أنصار الحلفاء اهتموا ولو بقدر يسير بالناحية الايديولوجية فكانوا يذكرون دائما بأفضلية النظم البرلمانية الديمقراطية السائدة لدى الحلفاء ولعلهم فعلو ذلك لتبرير موقفهم أكثر منه إيمانا بنظم سياسية معينة(٢) وكثيرا ماترددت كلمة « حلفائنا الديموقراطيين » على لسان

---

(١) انظر Colombe p. 79.

(٢) نشر عباس محمود العقاد فى أثناء الحرب كتابا بعنوان هتلر فى الميزان هاجم فيه النظم الفاشستية وكان يعبر بالفعل عن الميول التى اشتهر بها من ايمان بالحرية الفردية والنظم البرلمانية على النسق الغربى

مصطفى النحاس أثناء فترة توليه الحكم بين عامى ١٩٤٢ ، ١٩٤٤ هذا ويلاحظ أن الحلفاء أنفسهم لم يكونوا متماسكين من الناحية الايديولوجية فقد كانت روسيا السوفيتية حليفة الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الثانية .

لقد اتخذ خصوم العرب على مختلف الحقب تلك الميول المحورية تكئة للتنديد بحركتهم الوطنية ، هكذا كان يفعل الفرنسيون كلما صادفوا زعيما وطنيا فى المغرب أو فى سوريا ولبنان وحتى بعد الحرب أثارت بريطانيا هذه المسألة أثناء مناقشة القضية المصرية فى مجلس الأمن سنة ١٩٤٧ فادعت بأنه كانت للقصر الملكى فى مصر ميول محورية وذكرت بأن لديها وثائق تثبت ذلك وضربت الصهيونية على نفس النغمة فى أثناء انعقاد الجمعية العامة فى دورتها السابعة عشر ١٩٦٣/٦٢ وتوهم مندوب اسرائيل أنه بهذا الأسلوب يضعف مركز العرب حينما يذكر الأعضاء بأنهم كانوا أصدقاء للمحور وللنازية أثناء الحرب — وقد حاول بعض المندوبين العرب أن ينفى هذه التهمه وعندنا أن مثل هذه الادعاءات لا تشكل اتهاما للعرب لما ذكرناه من أن أحدا من العرب لم يؤيد المحور لأسباب إيديولوجية وقد أصبحت ألمانيا نفسها بعد أن تخلصت من النازية من أقرب الدول إلى إسرائيل والولايات المتحدة . ونخرج من هذا العرض بنتيجة هامة وهى أن موضوع العرب والحرب العالمية الثانية لم يتحول بعد إلى قضية تاريخية محضة بل مازال يثير بعض المناقشات السياسية الحية .

الفصل الأول

دور مصر

(١) اختبار — معاهدة ١٩٣٦

حينما نشبت الحرب لم تكن بريطانيا قد نفذت من جانبها بنود معاهدة سنة ١٩٣٦ الخاصة بإعادة ترتيب قواتها اذ أنه حسب الملحق العسكرى لتلك المعاهدة كان لابد من إنشاء الطرق التى توصل قاعدة القناة ببقية أنحاء البلاد . وقد تم إنشاء معظم هذه الطرق خلال السنوات الثلاث التالية لعقد المعاهدة فجاءت الحرب لتوقف جلاء القوات البريطانية عن العاصمة وغيرها من المدن المصرية أو الصحراء الغربية ومن ثم كانت وطأة الاحتلال شديدة ، ولم تتمتع الحكومات المصرية أثناء الحرب بحرية التصرف كما كان الوضع مثلا بالنسبة للحكومة العراقية قبل قيام حركة رشيد عالى الكيلانى . وحتى من قبل قيام الحرب كان كثير من المصريين قد بدأوا يشعرون بالخطأ الذى ارتكبه الساسة بعقد معاهدة التحالف مع بريطانيا بل إن حزب الوفد لم يشارك فى انتقاد المعاهدة بعد أن أصبح فى المعارضة سنة ١٩٣٨

وكان الشعور السائد هو أنه يجب تجنيب مصر ويلات حرب لا مصلحة لها فيها وقد تجلى هذا الشعور حتى من قبل وقوع الحرب العامة وذلك بمناسبه طرح مشروع انضمام مصر إلى حلف سعد أباد فى يناير سنة ١٩٣٩ وكان هذا الحلف يضم أربعة من دول الشرق الأوسط المستقلة وهى تركيا والعراق وإيران وافغانستان ، وتبين من مناقشات المجلس أن كثيرا

من الوزراء اعتقدوا بأن بريطانيا هى التى أوحت بالمشروع وأن ذلك سيؤدى إلى توريط مصر فى الحرب حتى ولو وقعت بعيدا عن أراضيها[1] وعند إعلان بريطانيا الحرب على ألمانيا فى ٣ سبتمبر ١٩٣٩ بادرت الحكومة المصرية إلى دراسة التزاماتها حسب ما تقتضيه معاهدة التحالف فوجدت أن المادة السابعة تنص على أن مساعدة مصر « تنحصر فى أن تقدم لبريطانيا داخل حدود الأراضى المصرية جميع التسهيلات التى بوسعها بما فى ذلك استخدام الموانى والمطارات وطرق المواصلات » .

وإذن فليست مصر مكلفة بإعلان الحرب ولكن التحالف يقضى بقطع العلاقات مع ألمانيا واعتقال الرعايا الألمان فى الأراضى المصرية ووضع أموالهم تحت الحراسة وهذا ما بادرت الحكومة المصرية إلى فعله .

ويستنتج مما سبق . ومن المناقشات التى جرت فى مجلس النواب حول إجراءات الحرب على أن الشعور العام فى مصر هو أن التحالف البريطانى ضرورة أكرهت عليها البلاد ولكن ذلك لم يمنع من تنفيذ المعاهدة من جانب مصر ، فحسب نفس المادة المشار إليها كان على الحكومة المصرية « أن تتخذ جميع الإجراءات الإدارية والتشريعية بما فى ذلك إعلان الأحكام العرفية والرقابة على الأنباء لجعل مساعدتها لبريطانيا فعالة وقد وافق النواب تقريبا بالإجماع على اتخاذ هذه الإجراءات عند قيام الحرب لا يستثنى من ذلك إلا التحفظات التى أبداها النواب الوفديون — وهم آنذاك قلة لا تذكر — فى المجلس — من ألا تتخذ الحكومة الأحكام العرفية وسيلة لتنفيذ أغراض حزبية .

كيف كان إذن تشكيل الحكومة المصرية فى ذلك الوقت؟

لقد كانت من نوع تلك الحكومات التى أطلق عليها فى ذلك العصر

(١) هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية ج ٢ ص ١٤٧ وما بعدها .

حكومة الأقلية . ذلك أن القصر كان قد عهد إلى محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستوريين برئاسة الحكومة فى أوائل سنة ١٩٣٨ على أن يجرى انتخابات نيابية جديدة وهى الانتخابات التى تمادت السلطات الادارية فى تزييفها حتى أتت بمجلس يضم أكثر من ٩٠ عضوا من الأحرار الدستوريين و ٨٤ من السعديين و ١٢ وفديا وبقية مجموع المقاعد وهى حينذاك ٢٦٤ للمستقلين . وقبيل إعلان الحرب استقال محمد محمود لأسباب صحية فعهد إلى على ماهر برئاسة الوزارة وليس لهذا التغيير أية علاقة بالموقف الدولى . كان على ماهر مضطرا إلى اختيار وزراء ينتمون إلى الأحزاب صاحبة الأغلبية فى مجلس النواب . ولكنه ضم إلى وزارته أيضا عددا من المستقلين من أبرزهم صالح حرب وعبد الرحمن عزام وقد عرف عن هذين الرجلين اهتمامهما بالقضايا العربية وتتسع هذه الاهتمامات أحيانا حتى تشمل العالم الإسلامى بأسره . وهذا الفريق رغم قلته من بين ساسة مصر فى ذلك العهد كان يتأثر لموقف بريطانيا وفرنسا الاستعمارى فى الهند والمغرب ، وبصفة خاصة مؤازرة بريطانيا للصهيونية فى فلسطين. ولذلك كان وجود هذين الشخصين من بين أسباب عدم رضا بريطانيا التام عن وزارة على ماهر رغم التزامها بالمعاهدة .

على أن تعيين عزيز المصرى رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش كان عاملا أقوى لإثارة استياء الإنجليز، فلم يكن ذلك الضابط الوطنى يخفى إعجابه بالجيش الألمانى ويعلن عن إيمانه بتفوقه عسكريا ولعل ذلك راجع إلى تكوينه الأول فقد نشأ فى استامبول حينما كانت الدولة العثمانية تعتمد فى تدريب جيشها الحديث على بعثة عسكرية ألمانية . لذا استخدمت بريطانيا جميع وسائل الضغط حتى أقيل عزيز المصرى من منصبه فى فبراير سنة ١٩٤٠ .

وأثار ذلك الحادث استجوابات فى مجلس النواب وتمكن على ماهر من إقفال باب المناقشة بسرعة(١) ويوضح لنا هذا الحادث إلى أى مدى كان على ماهر يتعاون مع « الدولة الحليفة » .

ورغم ذلك فإنه بعد دخول إيطاليا الحرب فى ١٠ يونيو ١٩٤٠ تأزمت العلاقات بين على ماهر وبين السفارة البريطانية ويبدو أن بريطانيا كانت شديدة الحساسية فى هذه الفترة الحرجة من تاريخها ، وتفسر أى تصرف على أنه استغلال لموقفها السيء ولذلك تمادت فى تصوير أوجه الخلاف البسيطة التى نشأت بينها وبين حكومة ماهر . وكانت الحكومة المصرية قد بادرت دون تردد منذ ١٢ يونيو إلى قطع العلاقات مع إيطاليا أسوة بما فعلت فى سبتمبر بالنسبة لألمانيا إلا أن الموقف اختلف فيما يخص تنفيذ الحراسة. فقد كانت أكثر تعقيداً بالنسبة للرعايا الطليان. أولا لكثرة عددهم ولأن كثيراً منهم يشتركون مع البرجوازية المصرية فى مختلف ألوان النشاط الاقتصادى . ولما كان دخول إيطاليا الحرب يعنى أن القتال قد أمتد إلى الحدود المصرية فقد طالب على ماهر بجعل القاهرة مدينة مفتوحة(٢) فاعترض الانجليز على ذلك لأن المدينة شبكة مواصلات هامة ثم حينما وقعت بعض الغارات الإيطالية على الصحراء الغربية وحدثت مناوشات بسيطة على الحدود وصف على ماهر ذلك بأنها حوادث حدود ولا تعتبر من الحالات التى تلزم مصر بالحرب حسب ما قرره مجلس النواب . ذلك أن المجلس قد اتخذ قرارا حدد فيه الحالات التى توجب دخول مصر الحرب

(١) ضابط مجلس النواب ١٩٣٩ / ١٩٤٠ ج ٣ س ٢٧٣٩ .

(٢) تمت اتفاقات دولية اثناء الحرب العالمية الثانية على جعل بعض المدن الآهلة بالسكان مفتوحة أى لا يجوز للدولة المعادية الإغارة عليها وفى مقابل ذلك تخلى المدينة من جميع الأهداف العسكرية وكان هذا النظام ساريا بالنسبة لروما وباريس مع أنها عواصم دول تعتبر أطرافا رئيسية فى الحرب .

وهى إنتهاك الأراضى المصرية ، إغارة الطائرات على مدن مصرية أو ضرب أهداف عسكرية مصرية . ولما كان الشعور السائد الذى أشرنا إليه هو عدم توريط البلاد فى الحرب فقد احتاط مجلس النواب قبيل دخول إيطاليا الحرب واقترح سحب القوات المصرية من أطراف الحدود حتى لا تتعرض للاشتباك مع الطليان(١) .

هل كانت هذه الخلافات البسيطة إذن هى التى دفعت بالسفير البريطانى إلى توجيه تبليغ إلى القصر فى ١٩ يونيو يذكر بأن حكومة على ماهر لا تتعاون كما يجب مع بريطانيا حسب معاهدة التحالف والصداقة ؟ إن السبب الرئيسى عندنا هو أن بريطانيا كانت فى تلك الفترة الحرجة تريد أن ترأس الحكومة المصرية شخصية تطمئن إليها كل الاطمئنان . أما على ماهر فقد بين سبب التبليغ فى مجلس الشيوخ بعد تقديم استقالته وذلك على النحو التالى .

« لقد عرضت على حضراتكم سياسة الحكومة بالنسبة للحرب التى وقعت بين حليفتنا وإيطاليا وكانت هذه السياسة مستمدة من روح الشعب ورغباته فوافقتم عليها بالإجماع وكان لابد لى قبل اتخاذ أى قرار خطير أن ألجأ إلى حكمة شيوخ الأمة كما كان لابد لى وقد أراد حلفاؤنا لنا الاشتراك فى الحرب أن أقدر المصلحة العليا للبلاد وأن احترم دستورها وأتقدم إليكم بالرأى ، خصوصاً بعد أن أعلنت إيطاليا أنها لا تريد أن تجر مصر وغيرها من الدول التى ذكرتها إلى الحرب ، فلو أننى وافقت ممثل الحليفة على طلبه اشتراك مصر فى الحرب من غير أن أرجع إلى البرلمان لكنت معتديا على دستور البلاد فضلا عن أن السياسة التى أوحتها التجارب والحوادث كانت تحتم على تجنيب البلاد ويلات الحرب سواء

(١) مضابط مجلس النواب ١٩٣٩/١٩٤٠ ج ٣ س ٢٧٠٧ .

كان ذلك بطريق مباشر أو غير مباشر ، فلما صدر قرار البرلمان بتأييد سياسة الحكومة قضى هذا القرار على طلب اشتراك مصر فى الحرب وأعقب ذلك ما قرأتموه فى الصحف من بعض البيانات التى تصرح بأن بريطانيا لا تريد من هذه الحكومة ولا من أية حكومة مصرية أخرى إعلان الحرب . وقد وضعت الحكومة نصب عينيها المصلحة العليا للبلاد متوخية أجابة طلبات الحليفة ما دامت هذه الطلبات لا تجر مصر إلى حالة تخالف السياسة التى أقررتموها ولكنها رأت فى بعض هذه الطلبات أنها تؤدى بذاتها أو بمجموعها إلى حالة الحرب المقرر تفاديها فنشأ الخلاف .

وفى الوثائق الرسمية المودعة فى محفوظات رئاسة مجلس الوزراء ووزارة الخارجية الكثير من هذه المطالب . ويتلخص جوهر الخلاف الحالى فى التعارض بين مصلحة الدولتين فكل منا يعمل بما يمليه عليه الولاء والإخلاص لوطنه ، وأخيراً فوجئت البلاد بطلب تغيير الحكومة باعتبار أنها لا تعبر عن رأى الشعب ولا عن شعور المصريين ولا تصدر عن مصلحة مصر ولا تعمل بروح المعاهدة . وترتب على ذلك أن التجأ ممثل الحليفة مع الأسف الشديد إلى الوسائل العتيقة التى كانت تعرفها هذه البلاد قبل إمضاء المعاهدة وجمع جلالة الملك رؤساء الوزارات السابقين ورئيس الشيوخ والنواب الحاليين ورؤسائهما السابقين ورؤساء الأحزاب المصرية وأتيحت له فرصة لعرض تفاصيل الحوادث التى وقعت فى الأسابيع الأخيرة فكان رأيهم أن عمل الحليفة تدخل فى شئون مصر يمس استقلالها ورأوا لاعتبارات شتى أن تقبل استقالة الوزارة(١) » .

حاز على ماهر قسطاً كبيراً من الشعبية من جراء هذا الموقف ، فإن الرأى العام كان ضد إشراك مصر فى الحرب بأية صورة إذ أن المصريين

(١) مضبطة الجلسة الرابعة والأربعين من مضابط مجلس الشيوخ ٢٤ يونية سنة ١٩٤٠ ص ٩٤٧ — ٩٤٨ .

لم ينسوا ، أعمال السلطة ، فى الحرب العالمية الأولى على أنه صار من المعروف الآن أن بريطانيا لم تكن تقصد من التبليغ إشراك مصر فى الحرب رسمياً ، والدليل على ذلك أن رئيس الوزراء الجديد حسن صبرى لم يغير شيئاً من موقف مصر إزاء الحرب ، وإنما حاز رضا الإنجليز لأنهم كانوا يثقون به شخصياً وقد سبق له أن عمل سفيراً فى لندن . يضاف إلى ذلك أن العسكريين البريطانيين استقروا — بعد دخول إيطاليا الحرب بوقت قصير — على الرأى القائل بأن من الأفضل لبريطانيا عدم دخول مصر الحرب لأن ذلك يخفف من أعباء الدفاع .

والذى يعنينا من تبليغ ١٩ يونيو هو أنه أثبت بجلاء كيف أن معاهدة سنة ١٩٣٦ لم تمنع التدخل فى شئون مصر الداخلية ، وبالتالى لم تكن معاهدة الشرف والاستقلال كما ذكر واضعوها . وستتجلى هذه الحقيقة بصورة أوضح بعد حادث ٤ فبراير ، والحق أن موقف مصر من الحرب بعد وقوع حوادث الحدود وتوغل القوات الإيطالية فى الأراضى المصرية أصبح يحتاج إلى تكييف قانونى إذ حسب قرارات مجلس النواب المشار إليها كان يجب على مصر إعلان الحرب . واتفق الجميع على أن معاهدة ١٩٣٦ تتعارض وحالة الحياد وبما أن الرأى العام ضد المشاركة فى الحرب رسمياً فقد توصل بعض القانونيين إلى وصف وضع مصر بالنسبة للمحور بأنه حالة عدم المقاتلة Non Belligérence . ووضح إسماعيل صدقى الوضع بعبارة أخرى فذكر أن القتال فى الصحراء الغربية يعتبر حرباً بين طرفين على أراضى طرف ثالث .

(٢) الاتجاهات غير الرسمية

لم يكن بوسع الجهات الرسمية أن تخرج عن معاهدة ١٩٣٦ وما تقتضيه من التزامات فى حالة الحرب . غير أن ذلك لم يمنع من وجود اتجاهات

فى أوساط متعددة اتفقت على الاستفادة من تلك الفرصة لتخليص مصر من الاحتلال البريطانى، ولو أن الدوافع كانت تختلف اختلافا بيناً حسب تكوين هذه الأوساط ، من ذلك مثلا موقف تشكيل الضباط الأحرار الذى كان ما يزال فى دور النشأة وقد استفزت أحداث الحرب التشكيل ولذلك دفعت به خطوة إلى الإمام . ويروى أنور السادات(١) فى كتابه عن أسرار الثورة المصرية أن التشكيل فكر للمرة الأولى فى إحداث ثورة خلال صيف سنة ١٩٤٠ ، فقد عهد إلى كتيبتين مصريتين بالدفاع عن القطاع الجنوبى من الصحراء بينما تولى الإنجليز الإشراف على الجبهة الرئيسية المحاذية للبحر ولم يلبث الجنرال ويفل القائد العام فى الشرق الأوسط أن تشكك فى نوايا الضباط المصريين فطالب نزع سلاحهم وأبعادهم عن الجبهة ، وفضلا عن العوامل الوطنية التى دفعت فى الأصل الضباط الأحرار إلى إنشاء هذا التشكيل فإن طبيعة الروح العسكرية لا تتقبل بأى حال من الأحوال نزع السلاح الذى يمتلكه الجندى. وعلى ذلك قرر ضباط الكتيبتين الانسحاب إلى العاصمة دون تنفيذ أوامر القائد البريطانى . وتحت تأثير هذا الحادث فكروا فى إحداث الثورة غير أنهم وجدوا أن ظروف الشعب غير مهيأة واتجه تفكيرهم الى الالتفاف حول زعيم معروف ففكروا فى على ماهر تقديراً لموقفه من تبليغ ١٩ يونيو ، ثم وجدوا أن الاتصال به محاط بالصعاب فاتجهوا إلى عزيز المصرى .

وهنا التقى تشكيلان سريان يعملان لإحداث تغيير فى الوضع القائم وإن اختلفت أهدافهما وهما الإخوان المسلمون وتشكيل الضباط الأحرار . غير أن الفريقين اتفقا على شىء واحد يعنينا فى هـــذا الموضوع وهو الاستفادة من ظروف الحرب ومن قوى المحور الصاعدة خلال عامى ١٩٤٠ ، ١٩٤١ .

(١) أنور السادات « أسرار الثورة المصرية » ص ٤٠ .

وقد شكت المخابرات البريطانية إلى الحكومة المصرية وجود اتصال بين حسن البنا مرشد الاخوان وبين الطليان وطلبت إتخاذ إجراء ضده . وبالفعل نقل إلى مدرسة فى أقصى الصعيد إلا أن هذا النقل أثار ضجة بين الأحرار الدستوريين فتمكنوا من إقناع الدكتور محمد حسين هيكل وزير المعارف أنداك من اعادته إلى القاهرة(١) .

وقد جرت محاولات لتنسيق العمل بين تشكيل الضباط الأحرار وبين الإخوان الاأنها لم تثمر نظرا لعدم الثقة المتبادلة ولأن البنا كان يتطلع الى قيادة التشكيلين معاً ، وهكذا انفرد الضباط الأحرار بالعمل مع عزيز المصرى على أساس الاستفادة من ألمانيا لا من ايطاليا التى اشتهرت بميولها الاستعمارية ، ولذلك لم يجر اتصال بين عزيز المصرى وبين المحور الا بعد تدخل الجيوش الألمانية فى ليبيا ربيع سنة ١٩٤١ .

وقصة محاولة المصرى الفرار من مصر مشهورة(٢) وكانت خطته هى اللجوء إلى ألمانيا حيث يلقى من هناك نداء الى « جيش التحرير » وفكر أولا فى السفر عن طريق استامبول فلم يوفق ، ثم دبر خطة مع الألمان فى ليبيا على أن تنزل إحدى طائراتهم خفية قرب الواحات وتنقله إلى ما وراء الحدود فتعطلت سيارته فى الطريق وعادت الطائرة الألمانية بعد أن فات الموعد. وعاكسه القدر مرة ثانية إذ دبر خطة للخروج بطائرة مصرية بالاتفاق مع الضابط الطيار ذوالفقار صبرى فهبطت الطائرة هبوطا اضطراريا بعد قيامها بدقائق وانكشف أمره واعتقل وكان ذلك فى مصلحة تشكيل الضباط فى نهاية الأمر إذ أن الخطة كانت مبنية على أساس أن ألمانيا ستخرج منتصرة من الحرب .

(١) هيكل ج ٢ ص ٢٠٨ .

(٢) أنور السادات المرجع السابق ص ١٠٧ وما بعدها .

ولسنا بحاجة إلى أن نعيد هاهنا ما ذكرناه فى المقدمة من أن واحدة من البيئات التى عارضت الانجليز أثناء الحرب فى مصر لم تفعل ذلك عن ميول محورية أى على أساس الإعجاب بأيديولوجية الفاشستيين كما يحلوا للكتاب الأجانب أن يصوروه ، وإنما بنى منطق بعض البيئات الوطنية على أساس أن الانجليز هم خصوم مصر وأن خصوم خصومنا هم أصدقاؤنا ، وعلى هذا النحو كان بعض قادة الحزب الوطنى يبدون فى كثير من المناسبات بل وفى مجلس النواب أحيانا شعور الاستياء من تسخير مصر لحاجات بريطانيا العسكرية وطلبوا الاتصال بالمحور للاتفاق على طريقة لتجنيب البلاد الغارات الجوية .

وقد أشاع الكتاب الأجانب أن القصر الملكى كان بؤرة للميول المحورية ، وتصورنا لهذا الموضوع هو أن فاروقا كان قليل التجربة فى المسائل السياسية عامة وفى مثل تلك الشئون الدولية الدقيقة بصفة خاصة . فإذا صح ميله أحيانا للمحور فإن تفسير ذلك لا يخرج عن أحد أمرين : وجود بعض الطليان فى الحاشية وتأثيرهم الشخصى على الملك وثانيا وهو الأهم أن فاروقا كان يتطلع للسلطة المطلقة وهو يستطيع أن يحقق رغبته فى وجه الرأى العام المصرى باستخدام الحيل الدستورية ولكن إذا كان الأمر يتعلق بالانجليز فإنه يقف عاجزا أمام قوة الاحتلال .

ومن هنا اتجه بتفكير صبيانى إلى اتخاذ بعض المواقف المعاكسة للانجليز لمجرد الانتقام الشخصى كما سيفعل مثلا فى قضية قطع العلاقات مع حكومة فيشى الفرنسية ، وتروى الشواهد على ميول القصر إلى المحور حتى من قبل قيام الحرب ، من ذلك ما ذكره شيانو وزير الخارجية الإيطالية(١) من أن مراد السيد أحمد سفير مصر فى روما اتصل به وسأله

(١) Ciaro's Diary February 1939
للأسف يضطر الباحث الى الإعتماد على هذه المصادر الأجنبية ولا يستطيع الرجوع الى الوثائق المصرية فى مثل هذه الموضوعات لا لأنها قريبة العهد فحسب بل لاحتمال أن وزارة الخارجية فى ذلك الحين لم تكن تنظم وثائقها على نسق ما تفعل وزارات الخارجية فى الدول المتقدمة .

عما إذا وقعت الحرب بين إيطاليا وبريطانيا فوقفت مصر موقف الحياد بالرغم من وجود المعاهدة فهل تفعل إيطاليا شيئاً لتأييد موقف مصر ؟ ولم يعط الوزير جواباً شافياً وإن ترك السفير يعتقد بأن إيطاليا ستفعل ذلك ، ويلاحظ بهذه المناسبة أن القصر فى ذلك الحين كان يعتبر السفراء ممثلين شخصيين للملك أكثر منهم للحكومة القائمة . وفى مايو ١٩٣٩ زار الجنرال بالبو أحد القواد العسكريين الإيطاليين فى ليبيا مصر واستقبلته الحكومة رسمياً وروجت شائعات بأنه اتصل بالقصر لعقد معاهدة عدم اعتداء بين إيطاليا ومصر وقد نفى محمد محمود رئيس الوزراء تلك الشائعات فى حينها (١) .

وفى أثناء نظر القضية المصرية فى مجلس الأمن سنة ١٩٤٧ ذكرت بريطانيا ، بميول القصر المحورية ، وادعت بأنها عثرت عند احتلال إيران فى أغسطس ١٩٤١ على وثيقة فى السفارة المصرية بطهران ، وتحتوى هذه الوثيقة على تحذير أرسله الملك فاروق إلى الشاه نبهه فيها إلى استعداد بريطانيا لاحتلال بلاده (٢) . وحتى لو صحت هذه الوثيقة فإنها لا تدل على ميول محورية ، والراجح فى هذه الحالة أن يكون الملك قد تصرف مدفوعا بعامل القرابة التى كانت تربط ما بين القصرين . ويتساءل كيرك الذى وضع مؤلفاً قيما عن الشرق الأوسط فى فترة الحرب . كيف أن الملك لم يتشكك فى نوايا المحور بالرغم من أن الخديو عباس حلمى كان يتنقل بين سويسرا وألمانيا وإيطاليا وهو يتطلع إلى عرش مصر الذى انتزعه الإنجليز منه فى سنة ١٩١٤ ، أفلم يكن من المحتمل إعادة الخديو إلى عرشه السابق فى حالة احتلال المحور لمصر ؟ ويضاف إلى ذلك أن إيطاليا

(١) Kirk p. 31—32 The Middle east in the war.
(٢) Lenczo wski Middle east in warld affairs p. 197.

كانت ترعى جماعة معادية للملك أطلقت على نفسها إسم جماعة مصر الحرة (١) .

كان المحور يغذى تلك الاتجاهات المعادية لبريطانيا ولو أنه فعل ذلك بقدر محدود ، فكانت إذاعة برلين العربية تملن تقديرها لموقف مصر وكيف أنها مجبرة فى تصرفاتها إزاء ألمانيا ، كذلك عندما أعلنت إيطاليا الحرب على بريطانيا صرح موسولينى بأنه لن يرتكب عدواناً على الأقطار المجاورة وذكر من بينها مصر بالإسم . . على أن الأطماع الاستعمارية الإيطالية لم تكن تخفى على جمهرة المثقفين فى البلاد . ولذا فإن هؤلاء الذين فكروا فى الاستفادة من الحرب علقوا آمالهم بألمانيا باعتبار أنها هى الطرف الرئيسى فى معسكر المحور . وإنما كان يخفى عليهم تفاصيل العلاقات بين ألمانيا وحلفائها فى صيف ١٩٤٠ . ففى ذلك الحين لم يكن عجز إيطاليا الحربى قد تكشف بعد ، ولذلك فإن ألمانيا كانت تحسب لمطالب حليفتها حساباً كبيراً ، وقد حدد شيانو هذه المطالب فى مذكرة بتاريخ ١٩ يونيو سنة ١٩٤٠ فقال إن بلاده تريد أن تحل محل بريطانيا على أساس التمتع بنفس الامتيازات التى تمنحها إياها معاهدة ١٩٣٦ فى مصر ، وكذلك ترثها فى نظام الحكم الثنائى بالسودان وفقاً لاتفاقية ١٨٩٩ ، وطالبت المذكرة الإيطالية بحل شركة قناة السويس واستحداث نظام جديد لإدارة القناة (٢) ..

---

(١) Kirk p. 141 & 210.

(٢) وردت هذه المذكرة ضمن أوراق الكونت شيانو التى عثر عليها بعد إعدامه وقد ترجمت إلى الفرنسية بعنوان Les Archives Secrètes du Comte Ciano (1939—1942) وترجمت إلى الانجليزية بعنوان Diplomatic papers of Count Ciano ويلاحظ أن شيانو عبر فيها عن سخطة على سياسة موسولينى ولذلك اختار عنوانها بالإيطالية « أوربا تسير نحو الكارثة » وبرأ نفسه من كثير من الأخطاء السياسية التى ارتكبها الزعيم الفاشستى .

كذلك كان الوطنيون المصريون يجهلون تفاصيل الاتفاق الثلاثى الذى عقد بين ألمانيا وإيطاليا واليابان فى سبتمبر ١٩٤٠ ، وكيف أن ألمانيا وافقت على تقسيم العالم إلى ثلاث مناطق نفوذ واعترفت لإيطاليا بشمال وشرق أفريقيا كمنطقة نفوذ خاصة لها(١) وسنرى فى مناسبة أخرى كيف أن ألمانيا فى ذلك الحين أحالت الوطنيين العرب للتفاهم مع إيطاليا على مستقبل الشرق العربى ، إلا أن هذا الوضع تغير بعد أن فقدت إيطاليا هيبتها العسكرية فى حملة اليونان وأصبحت منذ سنة ١٩٤١ كدولة تابعة تدور فى فلك ألمانيا ، وسيتخذ أحمد ماهر من موضوع الأطماع الإيطالية التوسعية فى مصر دليلا على تحديد موقفه من الحرب .

لم تكن الأحزاب المصرية التقليدية تحدد برنامجاً مفصلا فى السياسة الخارجية ، بل كانت الأمور المتعلقة بها تتخذ وسيلة للمناورات الحزبية هذا بالإضافة إلى خبرة القليلين حينذاك بدقائق السياسة الدولية ومن هنا كان يستخف بها كثيراً .

ويروى محمد حسين هيكل كدليل على ذلك كيف أنه حينما طرح مشروع ضم مصر لميثاق سعد أباد انقسم مجلس الوزراء على نفسه وصوت الأعضاء بصفة فردية دون أن يكون هناك موقف موحد للأعضاء الذين ينتمون إلى حزب واحد ، ويقاس على ذلك موقف مصر من الحرب العالمية الثانية وإلى أى مدى تلتزم بمعاهدة ١٩٣٦ أو تقف على الحياد أن استطاعت أو تعلن الحرب على المحور . ولم يشتهر سوى أحمد ماهر باتخاذ موقف محدد من هذه القضية ، وقد أراد أن يجعل من دخول مصر الحرب مبدأ أساسيا للحزب السعدى الذى كان يتزعمه ، وذهب إلى حد سحب الوزراء السعديين من وزارة حسن صبرى لأنها رفضت إعلان الحرب على إيطاليا رغم انتهاكها لحرمة الأراضى المصرية .

---

(١) Hurewitz Vol. 2p. 228

وكان أحمد ماهر يتولى فى سنة ١٩٤٠ منصب رئيس مجلس النواب ، ولذلك بادر إلى دعوة المجلس إلى جلسة غير عادية فى سبتمبر ١٩٤٠ حينما توغلت الجيوش الإيطالية فى أراضى مصر حتى سيدى برانى . وطلب إلى المجلس إعلان الحرب طبقاً للقرار الذى اتخذه من قبل والذى يعتبر العدوان على الأراضى المصرية من الحالات الملزمة بدخول الحرب ، غير أن المجلس صوت ضد هذه الفكرة بأغلبية كبيرة وقدمت تبريرات مختلفة لهذا الموقف من بينها رأى اسماعيل صدقى المشار إليه والاحتجاج بأن الجنود المصريين قد سحبوا إلى مرسى مطروح وعلى ذلك لم يحدث اشتباك بعد مع أقرب نقطة مصرية من الحدود .

ومن المؤكد أن أحمد ماهر لم يصدر فى موقفه هذا عن ولاء لبريطانيا ، وإنما كان يظن بأن اشتراك مصر فى الحرب سيفيد قضية الاستقلال . وتتلخص حججه فى الأمور الآتية : أولا : أن الوقوف موقف المتفرج رغم العدوان على الأراضى المصرية يعنى تسليما ضمنياً بأن بريطانيا مسئولة عن الدفاع عن مصر . وفى ذلك ما يؤكد معاهدة ١٩٣٦ التى يريد الوطنيون التخلص منها أو تعديلها على الأقل ، ثانيا : أن الاشتراك فى الحرب سيمكن مصر من المساهمة فى مؤتمر الصلح وبالتالى الدفاع عن قضيتها واستصدار قرار يحقق الأهداف الوطنية خلافاً لما حدث فى سنة ١٩١٩ .

على أن هذه الحجة لا تستوى إلا عند افتراض انتصار بريطانيا ، ويلاحظ أن أحمد ماهر نادى بذلك فى سبتمبر ١٩٤٠ أى حينما كانت بريطانيا تمر بأحلك أوقاتها فى الحرب وللرد على هذه الملاحظة أضاف أحمد ماهر أن مصر ستكون خاسرة فى حالة انتصار المحور لأن أهداف إيطاليا هى إعادة بناء الإمبراطورية الرومانية وتحويل حوض المتوسط إلى بحيرة إيطالية . وإذا كان أحمد ماهر قد أصاب فى هذا الجزء من تصوير الموقف ، فإنه كان على خطأ تام فى دليله الثالث وهو عندنا أهم الحجج التى تذرع بها

رئيس الحزب السعدى . ومؤداها أن الحرب هى الفرصة الوحيدة لتسليح الجيش المصرى بأحدث الأسلحة وتدريبه على القتال بحيث يكون مستعداً بعد الحرب لخدمة القضايا الوطنية .

حقيقة كانت بريطانيا هى المصدر الوحيد للسلاح فى ذلك الوقت ولكن كيف ضمن أحمد ماهر أن « الحليفة » ستوفر للجيش المصرى ما يحتاجه سلاح وتدريب ، وقد مر بنا منذ قليل كيف أن بريطانيا حاولت نزع سلاح الكتيبتين المصريين المرابطتين فى الصحراء الغربية . وإذن فإن نجاح تلك الخطة كان يتطلب وجود الثقة بين بريطانيا والجيش المصرى . ولا يسمح ماضى بريطانيا فى مصر بإيجاد هذه الثقة . وعلى ذلك فإن تلك الخطة كانت تصلح لمثل الحركة الصهيونية التى استفادت فعلا من الحرب كما سنرى وذلك لوجود ثقة متبادلة بينها وبين بريطانيا ، ولا بد أن تكون الحكومة البريطانية قد حسبت نفس الحساب الذى انتهى إليه أحمد ماهر وهو أن تسليح الجيش المصرى قد يستخدم ضدها فى يوم ما . وبهزيمة اقتراح أحمد ماهر فى البرلمان انتهت فترة التردد وتوقفت جميع الجهات عن التحدث عن اشتراك مصر فى الحرب .

(٣) الحرب فى الصحراء الغربية

كانت الجيوش الإيطالية فى ليبيا متفوقة على البريطانيين فى مصر من حيث العدد والاستعدادات الحربية الأخرى فلماذا إذن لم تبادر إيطاليا بالهجوم على الإنجليز فى مصر على أساس أن الحرب ليست موجهة ضد مصر كما كانت تذكر الحكومة الايطالية . ولم تشرع فى التحرك نحو الصحراء الغربية إلا فى سبتمبر مما اتاح للانجليز فرصة للاستعداد ؟ .

هناك تفسيران لهذا التأخر ، أولا أن ايطاليا كانت تتوقع تسليم بريطانيا من وقت لآخر ، ففضلت أن تنتظر احتلال مصر والسودان كغنيمة سائغة

دون أن تبذل جهداً فى هذا السبيل ، والتفسير الثانى هو أن الحكومة الايطالية كانت تريد نقل مزيد من القوات إلى ليبيا قبل البدء بالهجوم ولم تواتها الجرأة الكافية لتحدى بريطانيا بحراً فى حوض المتوسط . وعلى كل فقد توقف الهجوم الايطالى عند سيدى برانى ولم تحدث معارك جدية فى هذه المحاولة الأولى لغزو مصر ، ولذلك نبه ريدر الأميرال الألمانى حكومته إلى أن إيطاليا عاجزة عن الاستيلاء على قناة السويس وأن السيطرة على هذا الممر أمر حيوى فى الحرب ، ولذلك لابد من مؤازرة القوات الألمانية لإيطاليا فى الجبهة المصرية[1]

رفضت الحكومة الايطالية رفضا باتا فكرة تدخل المانى فى منطقة نفوذها الخاصة ، وأصبح معروفا الآن أن موسولينى رأى أن يعوض عن فشله فى الجبهة المصرية بانتصار خاطف يحققه فى جبهة أخرى هى اليونان ، ومن جهة أخرى كان هتلر يختلف مع سلاح البحرية حول أهمية جبهة حوض المتوسط ، ولذلك لم يعر المسألة اهتماما فى هذا الخريف من سنة ١٩٤٠ ومن المعروف أن الهجوم الإيطالى على اليونان أتى بعكس النتيجة المرجوة فقد تغلبت هذه الدولة الصغيرة على إيطاليا وأطاحت بسمعتها العسكرية إلى الأبد ، واضطر موسولينى إلى أن يقبل المساعدة الالمانية فى كلتا الجبهتين اليونان وليبيا وتحولت إيطاليا منذ ١٩٤١ إلى تابع أكثر منها حليف بالنسبة لألمانيا .

وفى أثناء تورط ايطاليا باليونان استطاع الإنجليز أن يتحولوا للمرة الأولى إلى موقف هجومى بالجبهة المصرية فى ٩ ديسمبر ١٩٤٠ ، وتقدموا بسرعة فائقة عبر الحدود المصرية ثم اجتاحوا ليبيا وانتهى زحفهم بالاستيلاء على بنى غازى .

Ciano Diplomatic papers p. 598. (١)

إلا أنهم اضطروا إلى الانسحاب عند مجىء رومل مع فيلقين المانيين فتراجعوا إلى الحدود المصرية فى إبريل ١٩٤١ تاركين وراء الخطوط الالمانية حامية قوية فى طبرق . وكان هتلر مايزال يعتقد بأن هذا الميدان ثانوى ولذلك كان عدد القوات الالمانية محدوداً واعتمد أساسا على الهجوم الخاطف واستخدام المدرعات ، ولم يقصد قط إلى احتلال مصر فى هذه الفترة .

ماذا كان يحدث فى مصر إبان هذه التقلبات فى ميدان الصحراء الغربية؟

لقد رحبت جريدة الاهرام بتحول الموقف العسكرى لصالح بريطانيا بعد نجاح الهجوم الاول[1] وحاولت أن تبين نصيب المصريين فى إنجاح الجهود البريطانية ، ولاندعى أن الجرائد فى ذلك الوقت كانت تعكس بالضرورة الرأى العام ، ومع ذلك فلابد أن يكون المصريون قد سُرّوا لبعد القوات البريطانية عن أراضيهم .

أما موقف الحكومة رسمياً فقد اتجه إلى زيادة التعاون مع بريطانيا باطراد بصرف النظر عن تقلب الأحوال العسكرية سواء أكانت لصالح الانجليز أم ضدهم ، ويرجع ذلك إلى التغير الذى حدث فجأة فى رئاسة الحكومة المصرية أثر وفاة حسن صبرى فى نوفمبر ٩٤٠ ، فقد عُهد إلى حسين سرى من المستقلين بتأليف الحكومة واختار بعض وزرائه من بين المستقلين والبعض الآخر من حزب الأحرار الدستوريين .

وبينما رفض صبرى مثلا اعتقال على ماهر ، قبل حسين سرى تنفيذ طلب الانجليز بذلك وانتهك الحصانة البرلمانية التى كان يتمتع بها عضو مجلس الشيوخ ، وصار الوزراء يقدم كل فى اختصاصه حاجات السلطات

---

(١) الأهرام ١٥/١٢/١٩٤٠

البريطانية على حاجات البلاد ، وبادرت حكومة سرى إلى اخضاع سفارات الدول المحايدة للرقابة لمجرد أن علاقاتها ببريطانيا ليست على ما يرام. فمنع استخدام الشفرة بالنسبة لسفارة اليابان منذ أبريل ١٩٤١ ، وكذلك أخضع سفارات الدول الأوربية الدائرة فى فلك ألمانيا مثل حكومة فيشى الفرنسية وحكومة رومانيا لنفس الاجراءات .

وعندما وقع صدام بين حكومة الكيلانى فى العراق وبين بريطانيا تطوع حسين سرى بإرسال خطاب يستحث رئيس الحكومة العراقية فيه على التزام الحكمة ،[١] ويعد هذا الخطاب أول مظهر من مظاهر السياسة التى ستسود لبضع سنوات تالية وهى اتخاذ الحكومة المصرية أداة لتنفيذ السياسة البريطانية فى الشرق العربى .

وحينما تحرج المركز العسكرى على أثر وصول رومل إلى الحدود المصرية ، عرض سرى على الوفد المشاركة فى الحكومة ، وكأنه أول من ربط بين تأزم الموقف الحربى وبين ضرورة وجود حكومة مصرية تتمتع بالشعبية فى البلاد ، وكانت خطة الوفد هى عدم الاشتراك فى أية حكومة ائتلافية، يضاف إلى ذلك أن الخلاف اتسع مع القصر فى شهر مايو بالذات، إذ رفضت الحكومة إجراء انتخابات المقاعد التى خلت فى مجلس الشيوخ بينما عين الملك أعضاء جدد فى المقاعد المخصصة المعينين مما قلل من نسبة الشيوخ الوفديين بالمجلس . على أن مسألة اشتراك الوفد فى الحكم كانت تشغل بريطانيا أيضا .

---

(١) Kirk p. 199.

(٤) حادث ٤ فبراير

صادفت حكومة حسين سرى منذ صيف ١٩٤١ صعوبات اقتصادية وسياسية[١] وترجع مشكلة البلاد الاقتصادية إلى النظام الاستعمارى الذى ربط مصر بعجلة الاقتصاد الأوربى ، فلم يكن بوسع مصر منذ قيامَ الحرب أن تتصرف بحرية فى بيع محصول القطن وقد شعرت منذ أكتوبر ١٩٣٩ بنتائج فقدان السوق الألمانى والتشيكوسلوفاكى وكان يستوعب نحو ١/٦ إنتاج البلاد من القطن ، وعرضت بريطانيا أن تشترى نصيب هاتين الدولتين وفى مقابل ذلك اشترطت أن يكون الشراء بسعر اقفال سوق الأوراق المالية لشهر أكتوبر ١٩٣٩ ، وطوال مدة الحرب تحكمت بريطانيا فى تحديد سعر القطن متظاهرة بأنها تجامل مصر بشراء المحصول بأكمله رغم أنها تواجه صعوبة فى نقله . والحق أنها حرمت البلاد من الفوائد التى كان بإمكانها أن تحققها لو أنها تقف موقف الحياد فى الحرب وتستطيع بيع قطنها لجميع الأطراف ، وقد ارتفع سعر القطن باطراد فى الولايات المتحدة خلال عامى ١٩٤٠ ، ١٩٤١ ومع ذلك فقد أعلنت بريطانيا فى صيف ١٩٤١ أنها ستشترى محصول هذا العام بنفس سعر السنة السابقة ، وهو نحو عشرين ريالا بينما كانت الأنواع المشابهة فى الولايات المتحدة تباع بـ ٣٥ ريالا ، ولم يكن بوسع مصر المساومة لأن لجنة انجليزية مصرية تكونت خلال فترة الحرب لاحتكار شراء القطن مما أضاع على البلاد ملايين الجنيهات ، ولا شك أن موقف بريطانيا من هذه المسألة قد أفسد العلاقات التقليدية التى كانت تربطها بكبار الملاك الزراعيين .

---

(١) انظر بخصوص المشكلات الاقتصادية :
Lugol l'Egypte et la deuxième Guerre mondiale.

ولم يقتصر الاستيلاء على هذه الطبقة فقد حدث فى نفس الوقت نقص فى الحبوب وخلط دقيق القمح بالذرة وارتفع سعر الخبز . وكان طبيعيا أن تعزى أزمة الخبز إلى كثرة استهلاك الجيوش البريطانية وقد وضح اسماعيل صدقى هذه الحقيقة بالأرقام فى مجلس الشيوخ .

وفى ذلك الحين كانت مصر تحتاج إلى استكمال حاجياتها من الحبوب باستيراد كميات اضافية ضئيلة جدا، أما الآن فقد أصبحت بحاجة إلى استيراد كميات ضخمة واضطرت بريطانيا إلى أن تنسق عملية الاستيراد مع الولايات المتحدة كما سنفصل ذلك عند الحديث عن مركز تموين الشرق الأوسط . وخلاصة القول هو أن الاقتصاد المصرى أصبح تحت رحمة بريطانيا وكان على الحكومة المصرية أن تقدم قائمة بحاجياتها لكل ستة أشهر مستقبلة وتتولى بريطانيا نقل هذه الحاجيات حسب ماتراه هى من ترتيب للاولويات وماتسمح به امكانيات النقل البحرى .

وقد شهد صيف ١٩٤١ أعنف الغارات التى تعرضت لها المدن المصرية، وكانت دول المحور تعلن دائما أن هدف الغارات هو المعسكرات البريطانية وبما أن هذه المعسكرات تقع قرب المدن فإن تعرض المدنيين لأخطارها يصبح أمرا محتملا . وقد تكبدت مدينة الاسكندرية خسائر فادحة خلال شهر يونيو مما اثار مناقشات فى مجلس النواب وطالب نواب المعارضة بالاتصال بالمحور أو التفاهم مع الانجليز لابعاد الأسطول البريطانى عن الميناء حتى يمكن إعلان الاسكندرية مدينة مفتوحة(١) وتعرضت حكومة سرى كذلك لنقد شديد بسبب عجزها عن إيواء اللاجئين من الاسكندرية .

احرجت هذه الأزمة حكومة حسين سرى وتعرضت لنقد أشد فى مجلس الشيوخ حيث يوجد عدد كبير من الوفديين ، غير أن الأسباب المباشرة التى

(١) مضابط مجلس النواب ٢٨ يونيو ١٩٤١ ص١٤٥٢ ومابعدها

أطاحت بها فى الظاهر تتلخص فى حادثين، الأول هو موضوع قطع العلاقات مع حكومة فيشى ، فإنه بعد توقيع فرنسا للهدنة تألفت هناك حكومة برئاسة الماريشال بيتان لتحكم البلاد حسب شروط الهدنة ولم تلبث أن انقطعت الصلات بينها وبين بريطانيا ، بيد أن الحكومة المصرية لم تتابع بريطانيا فى هذه المسألة ربما لوجود عدد كبير من الطلبة المصريين الذين يدرسون فى فرنسا وقد اثيرت هذه النقطة حينما طرح على البرلمان فى يناير ١٩٤٢(١) اقتراح من الحكومة بقطع العلاقات مع فيشى ولاشك أن حكومة حسين سرى فعلت ذلك استجابة لطلب بريطانيا التى كانت تعتقد بأن ممثلى فيشى فى مصر يشتغلون بالجاسوسية لحساب الألمان . وعلى كل فقد حصلت الحكومة على موافقة غالبية الأعضاء لقطع العلاقات مع حكومة فيشى . وكان الملك فى هذه الأثناء غائبا فى رحلة خاصة بالبحر الأحمر وعند عودته ثارت ثائرته لانه كان يعتبر التمثيل الدبلوماسى من امتيازاته الخاصة وطلب إلى صليب سامى وزير الخارجية أن يلزم داره فمهد بذلك للأزمة الوزارية .

وبعد أيام وقع الحادث الثانى الذى أطاح بحكومة حسين سرى وهو قيام مظاهرات فى أول فبراير ١٩٤٢ تنادى : تقدم يا روميل وتصادف ذلك مع بدء الهجوم الالمانى الثانى فى الصحراء الغربية ، ولم يتصدر أحد لهذه المظاهرات مما جعل البعض يعتقد بأنها دبرت لتنفيذ مؤامرة سابقة مع الوفد قصد بها فى نفس الوقت إحداث فرقة بين القصر والشعب إذ كان الشعور السائد هو تكتيل هذه القوى ضد الإنجليز فجاء حادث ٤ فبراير ليفسد هذا التكتل(٢) .

(١) هيكل ج ٢ ص ٢٢٥

(٢) السادات ص ٥٩

أما هؤلاء الذين يفترضون بأن المظاهرات لم تكن مدبرة فيفسرونها بسببين موضوعيين : الأول هو الاستياء العام الذى جمع مختلف طبقات الشعب ؛ فكبار الملاك استاءوا من إجراءات الحكومة الأخيرة لمواجهة أزمة التموين وذلك بأن حددت مساحة الأرض التى يجوز زرعها قطنا ، أما مجموع الشعب فكان مستاءا من قلة المواد الاستهلاكية وارتفاع أسعارها، السبب الثانى هو أن قوات المحور الزاحفة نحو مصر فى ١٩٤٢ هى أساسا قوات ألمانية بينما كانت الدولة الغازية فى السابق هى ايطاليا الإستعمارية . وقبل أن نسرد الأحداث التى أدت إلى تولى الوفد للسلطة فى ٤ فبراير لابد وأن نشير إلى موقف هذا الحزب من الحرب فى السنوات الثلاثة السابقة .

يلاحظ أنه منذ قيام الحرب خففت الصحيفتان الناطقتان باسم الوفد وهما البلاغ والوفد المصرى من لهجة العداء نحو بريطانيا وكفتا عن انتقاد المعاهدة . ثم وضح النحاس موقفه تفصيلا حينما قدم إلى السفير البريطانى فى ابريل ١٩٤٠ مذكرة تحدد مطالب مصر بعد الحرب كما يتطلع إليها حزب الوفد . وتبدأ المذكرة باحتجاج على الاجراءات التى اتخذت لمواجهة حالة الطوارىء وعلى تحكم البريطانيين فى تصدير القطن والمطالبة بفتح الباب لبيعه الدول المحايدة . ثم أرفق ذلك بعدة مطالب منها تقديم ضمان لسحب القوات البريطانية من مصر بعد الحرب واشتراك مصر فى مؤتمر الصلح وأن تبدأ مفاوضات بعد الصلح للاعتراف بكامل حقوق مصر فى السودان .

واذن فالوفد يسلم بالتحالف البريطانى ولكنه يطلب فى مقابل ذلك تحقيق مكاسب وطنية محددة . فلماذا لم يقدم أية شروط عندما عرض عليه الحكم فى فبراير ١٩٤٢؟ لقد دار جدل طويل حول ماإذا كان قد تم اتصال سابق بين النحاس وبين البريطانيين عن طريق أمين عثمان قبل توجيه الإنذار إلى الملك. وإذا كان من المستحيل الآن الفصل فى هذه القضية فإن عدم تقديم شروط فى هذه الأزمة يعتبر تخليا عن المبادىء السابقة ومأخذا لاشك فيه يوجه ضد سياسة الوفد فى هذه الفترة .

ولم تكن بريطانيا تخفى منذ مدة رغبتها فى أن يشترك الوفد فى الحكم فقد صرح اللورد هاليفاكس وزير خارجية بريطانيا عقب تأليف وزارة حسن صبرى بقوله «وقد كان يسر الحكومة البريطانية لو كان فى الإمكان اشتراك الوفد فى الحكومة الجديدة » . وللاسف لم يترك الزعماء الوفديون مذكرات أو شبهها لتبرير موقفهم ولكنهم يستندون إلى الرأى الشائع من أن سر تمسك بريطانيا بتولى الوفد السلطة هو أنها تريد المحافظة على الأمن فى البلاد إبان تحرج مركزها العسكرى وهى تدرك أن الوفد يختلف عن الأحزاب الأخرى فى أن له جذوراً فى مختلف الطبقات بينما يكاد الحزبان المسيطران على المجلس فى ذلك الوقت وهما الحزب السعدى والأحرار الدستوريون أن يقتصرا على كبار الملاك، بعبارة أخرى أن المحافظة على الأمن تقتضى وجود حكومة تتمتع بالشعبية فليس من الضرورى إذن أن يكون هناك اتصال سابق بين الوفد وبين بريطانيا .

وعلى أثر استقالة حكومة سرى طلب السفير البريطانى صراحة إلى الملك رغبة الحكومة البريطانية فى تولى الوفد للحكم وعرض الملك على النحاس تأليف حكومة قومية أى يشترك فيها الوفد مع الأحزاب الأخرى ولكن النحاس أصر على سياسته التقليدية وهى رفض فكرة الائتلاف .

وحينما علم السفير البريطانى برفض النحاس أبلغ القصر بأنه مازال ينصح!! الملك بدعوة النحاس لتأليف الحكومة(١) وإذن أصبح النحاس يواجه عرضين العرض البريطانى الذى يطلق له الحرية فى تأليف الحكومة ، وعرض القصر بتكوين وزارة ائتلافية . وحينما دعى زعماء الأحزاب فى اليوم التالى للتشاور فى هذا الأمر قدمت للنحاس جميع الاقتراحات التى يمكن أن تقرب

---

(١) انظر تفاصيل الأحداث فى الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ج ٣ ص ٢٠١ ومابعدها

بين وجهة نظره وبين القصر ، من ذلك اقتراح بأن تتكون حكومة مؤقتة تشترك فيها الأحزاب الاخرى بعضو واحد لكل منها ويرأسها النحاس وتكون مهمتها إجراء انتخابات نيابية . على أنه من المفهوم أن الوفد سينفرد بعد ذلك بالحكم . ويلاحظ أنه سبق هذا الاجتماع توجيه انذار مقتضب إلى الملك نصه كالآتى : « إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف وزارة فإن جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج » .

وعبثاً حاول المجتمعون أن يقنعوا النحاس بأن قبول هذا الاقتراح سيجنب البلاد مغبة الإنذار وما يترتب عليه من تدخل بريطانى ينتهك سيادتها .

وأخيراً استقر الرأى على توقيع احتجاج من الزعماء على الإنذار وشارك النحاس فى التوقيع . فهل فعل ذلك لأنه كان يدرك أن المسألة مجرد تمثيلية وأن الإنجليز قد رسموا خيوطها من قبل مع زعيم حزب الوفد ؟ وإذن فإن مشاركته فى التوقيع لن تغير من موقفهم إزاءه وهذا ما حدث فعلا (١) .

فعندما حمل الاحتجاج إلى السفير أعلن أنه سيأتى لمقابلة الملك فى المساء وحينئذ وقع الحادث المشهور فى تاريخ مصر الحديث وهو محاصرة القوات البريطانية للقصر وتقدم السفير البريطانى مع الجنرال استون قائد القوات البريطانية فى مصر يومئذ إلى مكتب الملك ، وقيل إنه كان يحمل معه وثيقة التنازل عن العرش . حينئذ نصح أحمد حسنين رئيس الديوان الملك بقبول الإنذار وكانت ذكرى خلع الشاه ما تزال ماثلة فى الأذهان .

---

(١) هيكل ج ٢ ص ٢٤٦

(٥) حكومة الوفد ١٩٤٢ — ١٩٤٤

رغم الطريقة التى وصل بها الوفد إلى السلطة فى ٤ فبراير فإن المظاهرات قامت فى الأيام التالية ترحب بالحكومة الجديدة وأثار ذلك مزيداً من التساؤلات .

فمنذ أيام قليلة كانت المظاهرات تعبر عن ميلها إلى الألمان . أما الآن فهى تهلل لحكومة أتت على رماح الإنجليز فهل معنى ذلك هو ضعف الوعى لدى الجماهير أم أن المظاهرات الأولى كانت مدبرة لتبرير الإنذار بدليل أن السلطات البريطانية غضت الطرف عنها .

وعلى كل فإن حكومة الوفد شعرت بأنها بحاجة إلى استرداد شعبيتها واسترضاء لتلك الفئات التى تدرك حقيقة الموقف وإن كانت تفاصيل الحادث لم تذع إلا بعد سقوط حكومة الوفد ، فعلى أثر تسلم الحكم طلب النحاس إلى السفير البريطانى تقديم تعهد بعدم التدخل فى شئون مصر الداخلية وأجيب إلى طلبه ، ثم قرر رفع تحديد الإقامة بالنسبة لعلى ماهر وأصدر التشريعات الخاصة برفع الأجور وأهم من ذلك كله أرضى طبقة الملاك بأن رفع سعر الحبوب ٥٠ ٪ مع بقاء سعر الخبز على ما هو عليه وتتحمل الحكومة فرق السعر بدل المستهلك ، وإلى هذا العهد يرجع أول مظهر من مظاهر الاقتصاد الموجه فى مصر كما أصدرت حكومة الوفد بعض التشريعات العمالية . وقد عاصرت حكومة الوفد فى أشهرها الأولى أخطر هجوم محورى على الجبهة المصرية .

فقد أصبحت ألمانيا ، بعد فشل فكرة الانتصار الخاطف على الاتحاد السوفيتى ، تعطى لهذه الجبهة اهتماماً أكثر من أى وقت مضى . وكان الألمان قد انسحبوا إلى درنة فى خريف ١٩٤١ وفى أوائل ١٩٤٢ وصلت تعزيزات هامة .

وبدأ رومل هجومه الكبير الذى انتهى به إلى العلمين فى أوائل يوليو ١٩٤٢ وكان لسقوط حامية طبرق الكبيرة التى تضم ٢٥٠٠٠ جندى صدى بعيد فى مصر ، وأصبح كثير من الناس يتوقعون احتمال جلاء الإنجليز عن الدلتا على الأقل . ورغم هذه الظروف السيئة فإن النحاس لم يُخف تأييده الكامل للحلفاء فأبلغ البرلمان فى ٢٤ يونيو أن حالة بريطانيا أفضل من أى وقت مضى وأنها تنوى الدفاع عن مصر وسينال مروجوا الشائعات المعادية للحلفاء و « للديموقراطية » نصيبهم من الجزاء .

وإذا تأملنا الحالة العامة لموقف الحلفاء فى صيف ١٩٤٢ نلاحظ أن المتبصرين بالأمور كانوا يدركون بالفعل أن الانتصارات الخاطفة التى حققتها اليابان فى الشرق الأقصى أو ألمانيا فى ميدان الصحراء الغربية ليست سوى تحسن مؤقت ، أما على المدى البعيد فإن حالة بريطانيا بعد دخول الولايات المتحدة الحرب كانت بالفعل أفضل من أى وقت مضى[١] حتى إننا لنتساءل هل أسرف الألمان فى بذل الوعود لمصر بالاستقلال فى هذه الحقبة لأنهم كانوا يشعرون بابتعاد الأمل فى النصر النهائى ؟ وعلى كل فالذى حدث أن إذاعة برلين أصدرت تصريحات متتالية تؤكد أن جيوش المحور جاءت لتحرر البلاد من الاحتلال البريطانى وأنها تؤيد استقلال مصر استقلالا تاماً ، على أنه من الجائز أيضاً تفسير هذا الموقف الجديد بأن الأمر أصبح يتعلق بألمانيا وحدها وأن إيطاليا فقدت كل حساب بالنسبة لحليفتها .

وكان الألمان يتوقعون حدوث صدى لدى الشعب المصرى عامة وتأييد القصر لهم بصفة خاصة واتخذوا من حادث ٤ فبراير محورا لدعايتهم[٢] .

(١) انظر وصف ميزان القوى فى هذه الحقبة فى كتابنا « الحرب العالمية الثانية » الفصل الخامس عشر .

(٢) انظر عن إذاعة المحور إبان الحرب بحثا لـ Bar Bour : Middle east journal April 1951.

والذى حدث أن الشعب المصرى وقف موقف المترقب ، ولم تكن الحكومة بدورها تنوى الاشتباك مع الألمان إذا تقدموا نحو الأماكن المأهولة بالسكان ، فعندما أصبح الألمان على مسافة سبعين كيلومتراً من الاسكندرية وتوقع الكثيرون سقوط المدينة ذهبت جماعة تمثل أصحاب المصالح الرأسمالية وقابلت رئيس الحكومة وسألته عن موقفه فى حالة تقدم الألمان فى المدن المصرية ، فأجاب النحاس بأنه أصدر الأمر إلى محافظ الإسكندرية بأن يسلّم المدينة إذا وصلت إليها الجيوش الألمانية . وكان أصحاب الشركات يخشون فى بادىء الأمر أن تلجأ بريطانيا إلى تدمير بعض المنشآت أو آبار النفط قبل الانسحاب من البلاد ، ولذلك أوعزوا إلى رئيس الحكومة بأن يقنع الإنجليز بالإقلاع عن ذلك مستخدماً هذه الحجة : ومؤداها أنهم إذا انسحبوا من مصر فسيعودون إليها قطعاً بعد قليل وخير لهم أن يعودوا فيجدوا البلاد فى حالة سليمة من أن يجدوها مخربة .

كانت الجاليات الأجنبية وخاصة اليهود أكثر تأثراً لمجريات القتال فى الصحراء الغربية ، فبادر بعضهم إلى مغادرة البلاد وتصفية أملاكه بها كما أجليت الأسر البريطانية بالدلتا إلى الصعيد مما يدل على أن الإنجليز واجهوا بالفعل خطة الإخلاء . وهنا يجوز لنا أن نستطرد قليلا لمعرفة أسباب توقف الزحف الألمانى فى العلمين .

لقد اختار الانجليز هذه النقطة لبناء خطوطهم الدفاعية لأنها أضيق منطقة فى الصحراء الغربية يمكن عبورها بواسطة الدبابات إذ أنها تقع شمال منخفض القطارة وتمتد على مسافة ثلاثين ميلا بين المنخفض وبين البحر .

وبفضل المعونة الأمريكية احتفظ الإنجليز بتفوقهم الجوى ، ولذلك استطاعوا أن يعرقلوا المواصلات البحرية الألمانية ، يضاف إلى ذلك

أن خطوط المواصلات ازدادت طولا بالنسبة للألمان فأصبح نقل الوقود يتطلب وقتاً أعظم . ويقال أن الألمان عهدوا إلى حلفائهم الإيطاليين بمهمة النقل ولم يكن الطليان فى ذلك الحين يتعاونون معهم باخلاص (١) .

كانت أحوال الحلفاء آخذة فى التحسن بصفة عامة نظراً المساعدات الأمريكية وصمود السوفيت فى ستالنجراد وفى هذه الحقبة أصبح ميدان العلمين من الميادين الرئيسية أوعلى الأصح هو الميدان الوحيد الذى يشتبك فيه الإنجليز مباشرة مع الألمان ، ومن ثم أخذت بريطانيا منذ شهر أغسطس تستقدم التعزيزات من مختلف أنحاء الإمبراطورية وتكدس المهمات الحربية استعداداً للهجوم الكبير ، وقد سبق للانجليز أن تقدموا نحو ليبيا مرتين ، أما فى هذه المرة فكانت أهداف الهجوم واسعة وتتصل اتصالا وثيقاً بخطط الحرب الكبرى ، من ذلك تخفيف الضغط عن روسيا والتأثير على الفرنسيين فى شمال أفريقيا والتمهيد للعملية الإنجليزية الأمريكية التى كانت تعد للنزول فى المغرب والجزائر تمهيداً لغزو أوربا نفسها . وفى ٢٣ أكتوبر بدأ الهجوم البريطانى الكبير بقيادة الجنرال (الماريشال مونتجومرى) ذلك الهجوم الذى انتهى بعد ثلاثة أشهر بدخول الإنجليز طرابلس وتلاه بعـد أيام أى فى ٨ نوفمبر نزول الحلفاء المشترك فى المغرب .

وإذا كان المصريون قد وقفوا موقف المترقب دون أن يتحمسوا للانجليز عاطفياً فذلك أمر طبيعى ولو أن رئيس الحكومة المصرية لم ينقطع فى تصريحاته الرسمية عن إعلان تأييده لقضية الحلفاء والديموقراطية ، ومن الناحية العملية كانت مصر منذ قيام الحرب تقدم للانجليز كثيرا من المساعدات القيمة ويمكن إيجازها فى الأمور الآتية :

---

(١) Churchill — Vol. 4 p. 265 sq.

١ — تموين جيوش الحلفاء بكل ما كانت تطلب من المواد الغذائية والصناعية وقد أخضعت مصر إنتاجها الزراعى والصناعى لمقتضيات هذا التموين وبذلت فى هـذا السبيل تضحيات جسيمة إذ كان تموين الحلفاء دون مقابل من ذهب أو من سلع بل كان بطريق التسليف الذى نشأت عنه مشكلة الأرصدة الإسترلينية فقد رُخص للبنك الأهلى أن يصدر العملة الورقية بمقتضى سندات على الخزانة البريطانية وبدون أرصدة من الذهب مما أدى إلى التضخم ، وبالتالى ارتفاع الأسعار ارتفاعاً فاحشاً تزيد نسبته عن بريطانيا نفسها (١) .

٢ — حراسة قناة السويس وتأمين حرية الملاحة فيها ومطاردة طائرات المحور التى اتخذت القناة هدفاً لغاراتها .

٣ — السهر على الأمن الذى كان ضرورياً وراء الخطوط البريطانية وأن عدم انتهاز المصريين هذه الفرصة لكى يعبروا عن سخطهم على قوات الاحتلال يعد فى حد ذاته شكلا من أشكال التعاون وهو ما كان يشير إليه المصريون باستمرار بعد الحرب .

٤ — حراسة الموانى المصرية وخاصة ميناء الإسكندرية وكانت المدفعية المصرية المضادة للطائرات تتولى مطاردة طائرات المحور فيها .

٥ — جعلت مصر سككها الحديدية وسائر وسائل النقل تحت تصرف قوات الحلفاء مما كان له أثر كبير فى مصير معركة العلمين .

٦ — بذلت تسهيلات وتضحيات كبيرة لإعداد الأماكن والمساكن الصالحة لإيواء جيوش الحلفاء وحفظ مهماتها ، وإلى ذلك العهد ترجع أزمة المساكن فى العواصم والمدن .

---

(١) الرافعى ج ٣ ص ١٣٠ .

هذا وقد اعترف الانجليز فى كثير من المناسبات حتى من قبل معركة العلمين بقيمة التعاون المصرى، فبعث الجنرال ويفل بخطاب شكر إلى حسين سرى فى مارس سنة ١٩٤١ قال فيه « فى الوقت الذى انتهت فيه بالنجاح مرحلة هامة من مراحل أعمالنا فى أفريقية الشمالية أود أن أعبر لكم عن شكرى على المعونة والمساعدة اللتين تلقيتهما من السلطات العسكرية المصرية فى أثناء حملتنا على ليبيا . فإن جميع ضروب المعاونة التى أسداها لنا الجيش المصرى سهلت على الجيوش الإمبراطورية التى تحت قيادتى مهمة تأمين الدفاع عن مصر من اعتداءات العدو » وقال تشرشل فى بيان للصحفيين أثناء مروره بالقاهرة فى فبراير ١٩٤٣ « إن مصر ولو أنها كانت ولا تزال بلدا محايدا فليس من الحق مطلقاً أن يقال أنها لم تقم بدور مهم مشرف له قيمته لا فى دفاعها عن نفسها فحسب بل فى الصراع العالمى الذى أخذ الآن يتقدم تقدماً عظيما نحو منتهاه » .

وقد كرر رئيس الوزراء البريطانى هذا المعنى فى مجلس العموم فى ٢٧ فبراير ١٩٤٥ وذلك على أثر إعلان مصر الحرب . والجدير بالملاحظة فى هذا الخطاب هو أنه بين كيف أن بريطانيا لم تستخدم الضغط على مصر فى أى وقت لإعلان الحرب بل على العكس كانت تنصح لها بعدم الاشتراك فيها .

لم يكن التعاون هو سياسة خاصة اتبعها الوفد ، ومع ذلك فقد أراد هذا الحزب أن يعزو إلى نفسه ما تجنيه مصر من ثمرات نتيجة هذا التعاون ، وفى نفس الوقت طالبت الأحزاب الأخرى والرأى العام بمكافأة البلاد على هذا التعاون باعتباره سياسة عامة للأمة المصرية .

ومما هو جدير بالملاحظة أن لهجة النحاس تغيرت حسب تغير الأوضاع الحربية . ففى سنة ١٩٤٢ حينما كان القتال ما يزال قريباً من الأراضى

المصرية أخذ يشيد بمعاهدة ١٩٣٦ وكيف أنها أفادت الطرفين المتعاقدين أفادت مصر بالمحافظة على استقلالها !! وبريطانيا فى معركتها مع العدو[١]. هذا مع ملاحظة أنه سبق للوفد أن انتقد المعاهدة ، كما أن التجربة قد أثبتت كيف أن بريطانيا لم تحترم هذا الاستقلال الذى أشار إليه النحاس .

وفى العام التالى تضمن خطاب العرش فى نوفمبر ١٩٤٣؛ مطالب مصر بعد انتهاء الحرب ويلاحظ أن النحاس قدمها فى لهجة أقل حدة من مذكرة ابريل سنة ١٩٤٠ حينما كان فى المعارضة . وقد أعلن بافتخار كبير كيف أن سياسته أثمرت بالحصول على وعد من السفير البريطانى بتاريخ ١٩ نوفمبر ١٩٤٢ بأن بريطانيا ستبذل خير معاونتها لتتمكن مصر من أن تمثل على قدم المساواة فى جميع مفاوضات الصلح التى تمس مصالحها مباشرة » .

أما فى سنة ١٩٤٤ وبعد أن تحسن مركز الحلفاء وابتعد القتال تماماً عن المنطقة المحيطة بمصر فقد أخذ النحاس يشعر باحتمال تخلى مساندة الإنجليز له فعاد يشدد اللهجة لكى يحتفظ بشعبيته فأعلن فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٤٤ أى فى الذكرى الثامنة لعقد معاهدة ١٩٣٦ أن مصر تهدف إلى الحصول على الاستقلال التام نتيجة ما قدمته من معونة صادقة للحلفاء ، وصرح بأنه قد طلب إلى الحاكم العام فى السودان أن يحافظ على حقوق مصر هناك واختار للتعبير عن هذه الحقوق أسلوبا صائبا حينما قال أنه يريد اعتبار مصر والسودان أمة واحدة .

على أنه من المؤسف حقا أن كلا من الوفد وأحزاب المعارضة قبلت ضمنيا التدخل الأجنبى أو بعبارة أدق توسيط الدول الأجنبية

---

(١) انظر خطاب النحاس فى الإتحاد المصرى الانجليزى بتاريخ ٤ نوفمبر ١٩٤٢ نقلا عن سيتون وليمز بريطانيا والدول العربية الترجمة العربية ص ٧٤ .

فى الصراع الداخلى . أما الحكومة الوفدية فقد تصرفت فى هذه الحقبة من توليها السلطة ١٩٤٢ — ١٩٤٤ مستندة إلى تأييد بريطانيا لها فاستخدمت الأحكام العرفية لخدمة الأغراض الحزبية ولإبراز تفوق الحزب على القصر . ومن جهة أخرى أوعز الملك إلى أحزاب المعارضة أن تتقدم بمطالبها الوطنية إلى ثلاث من رؤساء حكومات الحلفاء وهم روزفلت وتشرشل وشان كاى شيك وكانوا قد اجتمعوا فى القاهرة من ١١/٢٩ إلى ١٩٤٣/١٢/١ لدراسة موضوع الشرق الأقصى وقد رفض الرؤساء الثلاث مقابلة « زعماء المعارضة » ، ولم تسفر هذه المحاولة إلا عن إظهار مصر أمام الدول الكبرى بمظهر الدولة المنقسمة على نفسها والتى تقبل بأن تقحم الدول الأجنبية فى شئونها الداخلية .

(٦) إعلان الحرب

كان من الواضح أن بقاء الوفد فى الحكم مفروض على القصر بواسطة قوة الاحتلال وحينما ابتعدت الحرب عن الأراضى المصرية أبلغ الملك السفير البريطانى فى إبريل ١٩٤٤ عن رغبته فى أن يعهد بالحكومة إلى أحمد حسنين رئيس الديوان الملكى ، وبعد استشارة الحكومة البريطانية جاء الرد بألا تغيير . ومن ثم نستنتج أن الملك لم يعمد إلى اقالة النحاس فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ إلا بعد أن تأكد من تبدل موقف بريطانيا . ومن الراجح أن هذا التبدل إنما يرجع إلى تغير الأوضاع العسكرية فقد تم التنزول فى نرمانديا بنجاح خلال شهر يونيو وأصبح تسليم ألمانيا مسألة وقت .

ومن المعروف أن اختيار الملك وقع على أحمد ماهر رئيس الحزب السعدى فهل لهذا الاختيار علاقة بالآراء السابقة التى أبداها زعيم الحزب السعدى نحو الحرب ؟ كلا فإن الحديث عن مشاركة مصر فى الحرب

قد توقف كما ذكرنا منذ هزيمة اقتراح ماهر فى مجلس النواب فى سبتمبر ١٩٤٠ ، ثم أن المبررات التى كان يقدمها قد زالت بابتعاد القتال عن مصر . وعلى ذلك لم يكن فى نية رئيس الحكومة الجديدة أن يحدث تغييرا أساسيا فى سياسة مصر الخارجية ومن المؤسف أنه لم يختلف عن سلفه فى التصريح الذى يؤكد تقيد مصر بمعاهدة ١٩٣٦ .

أما إعلان مصر الحرب فى فبراير ١٩٤٥ فقد جاء نتيجة ظروف خارجية طرأت على الموقف الدولى فى أوائل هذا الشهر اجتمع رؤساء الدول الكبرى الثلاث : الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفيتى فى يالتا بالقرم وكان من بين القرارات التى تمخض عنها هذا المؤتمر الهام هو أنه يشترط للدول التى تريد أن تشترك كعضو مؤسس للأمم المتحدة أن تعلن الحرب على المحور فى ميعاد أقصاه أول مارس ١٩٤٥ ، وقد أبلغ هذا القرار للحكومة المصرية أثناء مقابلة روزفلت للملك فاروق فى طريق عودته من المؤتمر . وقد حفز هذا القرار عدة دول أخرى كانت تلتزم الحياد بدون قيد المعاهدة إلى إعلان الحرب على المحور من ذلك تركيا وسوريا ولبنان وبعض دول أمريكا اللاتينية . وكان من الواضح أن مصر لن تخسر شيئا باعلان الحرب لأن ألمانيا وشكة على التسليم حقيقة لم يكن أحد يعرف بعد مدى الجهود اللازمة لإجبار اليابان على التسليم . وربما امتدت الحرب فى الشرق الأقصى فترة طويلة ، وكان هذا من بين الحجج التى استخدمتها المعارضة لمنع إعلان الحرب فذكرت أنه سيتطلب إلى مصر تزويد الحلفاء باليد العاملة وقد تزعم الوفد هذه المعارضة بعد أن أصبح خارج الحكم ونشرت جريدة البلاغ الناطقة باسمه يوم اجتماع البرلمان لنظر هذا الموضوع استنكارا لعمل الحكومة . وكانت الحجة الرئيسية التى تذرع بها الوفد هى أن البرلمان الحالى لا يمثل الأمة ولابد من إجراء انتخابات صحيحة لا تخاذ مثل هذا القرار الخطير ، هذا مع العلم بأنه كان من المستحيل عمليا إجراء

الانتخابات قبل أول مارس وهو الموعد الذى حددته الدول الكبرى لإشراك الدول التى تعلن الحرب فى مؤتمر سان فرانسيسكو .

ورغم وضوح هذه القضية فى رأينا فإن أحمد ماهر تصرف فيها بحذر شديد فاستشار كبار السياسيين من خارج الحكومة وقرر جعل جلسة البرلمان المخصصة لإعلان الحرب سرية فأخطأ بذلك خطأ كبيرا لأنه أتاح للمعارضة أن تثير التوتر بترويج الشائعات . وفى الخطاب الذى ألقاه أحمد ماهر أمام النواب أطنب فى تفنيد حجج المعارضة فنفى الشائعات القائلة بأنه سيطلب إلى مصر تضحيات فى حرب اليابان لأن الحرب التى ستعلنها على المحور دفاعية وليست هجومية ، كما بين أن اشتراك مصر فى الأمم المتحدة كان دائما مطلباً رئيسا طالما ذكره النحاس نفسه ولا يتحقق هذا المطلب إلا باعلان الحرب[1] وقد أشرنا بالفعل كيف أن النحاس تفاخر بالحصول على وعد من السفير البريطانى باشراك مصر فى أية مفاوضات تخصها ، أما الآن فهى تشترك كعضو مؤسس فى الأمم المتحدة أى أنها تشترك فى تسوية جميع القضايا العالمية ، ولم يكن الناس يدركون سلفا وفى ذلك الحين كيف أن المنظمة الدولية ستقف عاجزة أمام رغبات الدول الكبرى ولذلك لا يوجد أدنى مبرر للتقليل من أهمية عضوية مصر بالأمم المتحدة حينذاك .

ماهى إذن الدوافع التى جعلت أحد المحامين الناشئين ويدعى محمود العيسوى إلى اغتيال أحمد ماهر داخل مبنى البرلمان حينما كان منعقدا للنظر فى اعلان الحرب ؟ لقد رفض المتهم أثناء المحاكمة أن يدلى بأية تصريحات عن انتماءاته السياسية وأن لم تخرج التخمينات عن صلاته بأحدى منظمتين حزبيتين : مصر الفتاة أو الحزب الوطنى ومع ذلك فلا يمكن القول بالضرورة أن الاغتيال قد تم بتدبير سابق مع أى من هذين الحزبين وربما يكون الدافع شخصيا

(١) مضابط مجلس النواب — ١٩٤٥ ج ١ ص ١٢٦ ومابعدها

محضا أملته تصورات وطنية خاطئة . وقد ذكرت الديلى تلجراف فى ذلك الحين أنه سبق للعيسوى أن أرسل برقية تهنئة إلى رشيد عالى الكيلانى إثر الانقلاب العسكرى فى العراق فى إبريل ١٩٤١[1] أما الرافعى فيعزو هذا الحادث الى تهييج الوفد وكان يهمه ابعاد الشبهه عن الحزب الوطنى سيما وأن اثنين من النواب المنتمين إلى هذا الحزب فى مجلس النواب رفضا الموافقه على إعلان الحرب[2] والذى حدث هو أن اغتيال ماهر لم يوقف الاجراءات التى صممت عليها الدولة وقد وافق مجلس النواب بشبه إجماع على اعلان الحرب ولم يعترض سوى العضوين المشار إليهما

أما فى مجلس الشيوخ حيث كان الوفد ممثلا تمثيلا قويا فقد اعترض ٤١ مقابل ٦٥ بالموافقه وكانت حجة الشيوخ الوفديين هو أن مجلس النواب لا يمثل الشعب وهكذا نرى كيف أن هذه المسائل الكبرى التى تؤثر على مستقبل البلاد كانت تؤخذ باستخفاف وتبحث فى إطار المناورات الحزبية

(١) Kirk p. 266.

(٢) الرافعى ج ٣ ص ١٥٢ — ويلاحظ أن المؤرخ المعروف كان من زعماء الحزب الوطنى.

الفصل الثانى

العراق وتجربة القوة

(١) الجيش والسياسة

كان وضع العراق يشبه مصر فى أنه مقيد بمعاهدة تحالف مع بريطانيا، على أن هذه المعاهدة ترجع إلى سنة ١٩٣٠ وإذن فقد مضى على توقيعها تسع سنوات عند إعلان الحرب، وكانت هذه مدة كافية لإجلاء القوات البريطانية عن الأراضى العراقية باستثناء القاعدتين الجويتين اللتين نصت المعاهدة على احتفاظ بريطانيا بهما وهما قاعدة الحبانية الرئيسية وقاعدة أخرى اختارتها بريطانيا فى مكان قرب البصرة يدعى الشعيبة ومن هنا كانت وطأة الاحتلال فى العراق أخف منها فى مصر . مما أتاح للحكومة العراقية حرية كبيرة فى تصرفاتها . وإذا مضينا فى المقارنة نلاحظ وجه خلاف آخر وهو أن العراق كان دائما بعيدا عن جبهة القتال ثم أنه كان أكثر تأثرا بقضايا الدول العربية المحيطة به ولاسيما مشكلة فلسطين وتحرير سوريا ولبنان من الانتداب الفرنسى كذلك كان الجيش العراقى يعتبر نسبيا فى حينه أكبر الجيوش العربية إذ كان يزيد عن عشرين الف رجل ويملك نحو ٥٠ طائرة ويرجع ذلك إلى طبيعة البلاد وأحوالها الاجتماعية والجغرافية فقد كان العراق يعانى من الثورات الداخلية سواء تلك التى تعبر عن نزعة القبائل الفوضوية أم عن النزعات الانفصالية للاكراد أو الاشوريين وقد اقتضت المصالح البريطانية تقوية الحكومة المركزية فى بغداد وبالتالى الجيش العراقى لكى يواجه تلك الحركات .

وقد أدى هذا الوضع إلى نتيجة أخرى هامة وهى اشتغال الجيش العراقى بالسياسة . ومنذ سنة ١٩٣٦ بدأت سلسلة من الانقلابات انتهت فى الفترة التى ندرسها بانقلاب ١ إبريل ١٩٤١ الذى حول العراق إلى تجربة القوة مع بريطانيا لفترة قصيرة والدليل على ذلك هو أن بكر صدقى زعيم الانقلاب الأول اكتسب شهرته أثناء قمع حركة الاشوريين . وقد خيل لبعض المراقبين فى سنة ١٩٣٦ أن طابع الانقلاب يسارى وذلك لإشراك ثلاثة من أعضاء حزب الأهالى فى الحكومة التى ترأسها حكمت سليمان وهى الحكومة التى أتى بها الانقلاب . وكان حزب الأهالى من الأحزاب النادرة فى ذلك الوقت بالمجتمع العربى فقد تأثر مؤسسوه مثل عبد الفتاح ابراهيم ومحمد حديد بالآراء الماركسية وجعلوا الاشتراكية مبدأ أساسيا لعقيدة الحزب ، ولم يكن حكمت سليمان ينتمى إلى هذا الحزب بل إنه من السياسيين القدامى الذين تربوا فى استانبول وكان أميل إلى الاصلاح على طراز مصطفى كمال فى تركيا ، ولذا فإنه استخدم حزب الأهالى لمجرد المناورة فلعب دور الوسيط بينه وبين ضباط الجيش القائمين بالانقلاب[1] أما الضباط أنفسهم فلم تكن لهم آراء سياسية محددة ولذلك فإن الصراع الذى تلا داخل الجيش لم يكن يعبر إلا عن فئات عسكرية تسعى للسيطرة على القيادة العسكرية ولا نقول السلطة لأن الانقلابات المتوالية كانت تكتفى بتبديل حكومة بأخرى دون أن يخرج الضباط لممارسة السلطة بأنفسهم . وعلى هذا النحو يمكن تفسير الانقلاب الذى أطاح بجماعة بكر صدقى فى أغسطس ١٩٣٧ وقد اشترك العقداء الأربعة ، الذين سيشتهرون فيما بعد ، فى هذا الانقلاب الثانى وكانوا حريصين طوال السنوات التالية على عدم عودة أنصار بكر صدقى إلى الظهور فى الجيش حتى لا تتعرض حياتهم للخطر .

---

(١) انظر عن انقلاب سنة ١٩٣٦ Khadduri chapter 7 & Longrigg p. 250 s. q.

لقد حاول جميل المدفعي فى أعقاب الانقلاب الأول أن يوفق بين الفئات المتصارعة ولكن نورى السعيد كان له أيضا أنصاره فى الجيش وكانوا هم أيضا خصوما لبكر صدقى وأعوانه لأن هؤلاء الأخيرين إتسموا بنزعة يسارية ولو أنه يجب استخدام وصف يسار ويمين بحذر وخاصة فى مجتمع كذلك الذى كان يسود العراق فى تلك الحقبة .

فإن الأحزاب السياسية لم تكن لها جذور عميقة فى الشعب وإنما كانت العوامل المؤثرة فى الانتخابات النيابية هى القبيلة أو الطائفة أو الاتجاهات الأسرية ، ومن هنا انحصر نشاط حزب الأهالى فى بعض البيئات المثقفة من سكان المدن وكان هؤلاء يضعون رشيد عالى الكيلانى ونورى السعيد فى فئة واحدة باعتبارهم يمثلون الطبقة القديمة من الساسة ، فالأول ينتمى إلى أسرة مؤسس إحدى الطرق الصوفية المعروفة أى انه من طائفة الأعيان العراقيين ، والثانى من أبناء بغداد الذين نشأوا فى الجيش العثمانى وظلوا متأثرين بالبيئة الارستقراطية التركية ، وحينما نشبت الحرب فى سنة ١٩٣٩ كان الكيلانى يشغل منصب رئيس الديوان بينما يحتل السعيد منصب رئيس الوزراء .

بادر نورى السعيد إلى قطع العلاقات مع المانيا ووضع أموال الألمان تحت الحراسة تنفيذا لمعاهدة التحالف مع بريطانيا . ويروى الكيلانى فى مذكراته[١] أنه اصطدم فى هذه المناسبة اصطداما عنيفا برئيس الوزراء فقد أراد هذا الاخير أن يعمد إلى إعلان الحرب دون استشارة مجلس الوزراء فضلا عن البرلمان ، ولذلك فوجىء رئيس الديوان الملكى بالسفير البريطانى يوجه اليه الشكر على اعلان العراق للحرب . والثابت لدينا هو أن السعيد نادى بدخول العراق الحرب مباشرة بجانب « الحليفة الكبرى »

(١) أسرار الثورة العراقية ومذكرات الكيلانى ص ١٢٥

وحدد بالفعل نصيب العراق فى الحرب وهو إرسال لواءين للمرابطة على الحدود الليبية ، وحينما بحث الأمر فى المجلس العالى بحضور الوصى والكيلانى وغيرهما من كبار الساسة العراقيين تبين أن المعاهدة لا تلزم العراق باعلان الحرب بل يكفى تقديم التسهيلات للمواصلات الامبراطورية . على أن رأى الجيش كان عاملا حاسماً أيضا فى ظروف كتلك التى يعيشها العراق فى سنة ١٩٣٩ فقد طُرح الموضوع أيضا على الفئة المسيطرة على الجيش حينذاك وعلى رأسها اللواء حسين فوزى ويروى عنه أنه قال فى هذه المناسبة إنه من الخير الاحتفاظ بالجيش العراقى لخدمة القضايا العربية بصورة مباشرة[١] .

تأثر السعيد لعدم تمكنه من تنفيذ خطته بالرغم من أن بريطانيا لم تتحمس لإشراك العراق فى الحرب مثلما فعلت بالنسبة لمصر ، وقد شاع اعتقاد بأن السعيد قرر حينئذ أن يتخلى عن الحكم للكيلانى كيما يتخذه أداة لتنفيذ سياسته من وراء ستار ، وبالفعل قدم استقالته فى فبراير ١٩٤٠ وشرع الكيلانى فى إجراء المشاورات لتكوين وزارته ، وكما كان يحدث دائماً كلما وقعت أزمة وزارية فى العراق اجتمعت فئة الضباط المسيطرة على الجيش وبحثت : هل يترك للكيلانى حرية اختيار الوزراء أم يفرض عليه استبعاد هؤلاء الذين يسرفون فى ميولهم البريطانية مثل نورى السعيد ؟. وكان رأى حسين فوزى أن ينذر الكيلانى بعدم اشتراك هؤلاء . إلا أن الضباط انقسموا على أنفسهم وفى نهاية الأمر إستاء الوصى من هذا الضغط فقرر الإبقاء على نورى السعيد ريثما يتخلص من المعارضة بالجيش ولكنه لم يكن يملك السلطة الكافية لتنفيذ جميع مآربه نظراً إلى أنه كان لكل ضابط كبير أعوان متحفزون من ورائه مستعدون لعصيان الأوامر وإحداث انقلاب إذا لزم الأمر .

(١) مذكرات صلاح الدين الصباغ ص ٢٢ وما بعدها وكذلك :
Khadduri p. 144.

وعلى كل فإنه لم يمض وقت طويل على إعادة السعيد لتكوين وزارته حتى لقى حيدر رستم وزير المالية مصرعه . وكان يعد من أكبر أعوان السعيد الذين يؤيدون سياسته الضالعة مع الإنجليز ، ولذلك ثارت ثائرته لعدم إتخاذ الإجراءات الإنتقامية اللازمة وقدم استقالته وفى مثل هذه الظروف صار الكيلانى أكثر حرية فى تأليف وزارته (١) .

(٢) وزارة الكيلانى « مارس ١٩٤٠ يناير ١٩٤١ »

إذا كان الكيلانى يشبه سلفه فى الإنتماء الطبقى اجتماعياً فلا شك أنه كان يختلف اختلافاً رئيسياً عن السعيد فى نظرته للعلاقات الإنجليزية العراقية . كان السعيد يذهب إلى حد التضحية بمصالح العرب إذا تعارضت مع بريطانيا . أما الكيلانى فيوافق على مبدأ المحالفة البريطانية ويرجو أن تكون وسيلة لتحقيق أمانى العرب فإذا تعارضت معها فإنها تصبح محل نظر .

وقد عرف الكيلانى منذ الثلاثينات بمعارضته لمعاهدة التحالف الإنجليزية العراقية لأنها تنتقص من استقلال البلاد . وكان يرأس حينذاك حزب الإخاء العربى وهو امتداد للأحزاب العربية القديمة التى نشأت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى . ولما كان يتفق فى نظرته مع الحزب الوطنى فقد اندمج الحزبان فى هيئة عرفت باسم الإخاء الوطنى .

وفى سنة ١٩٣٣ استطاع الملك فيصل قبيل وفاته أن يقنع الكيلانى بتولى السلطة واعتبر أعضاء الحزب الوطنى هذا القبول اعترافاً ضمنياً بالمعاهدة ولذلك انفض بعض أنصار الكيلانى من حوله .

ثم شارك الكيلانى فى الحكم مرة ثانية سنة ١٩٣٥ مع ياسين

(١) Longrigg p. 282.

الهاشمى (١) وكانت خطة الحكومة الجديدة هى التقليل من أهمية البرلمان وبالفعل كان حزب الإخاء يركز على القضايا الوطنية على المستوى العربى فيعنى بقضية فلسطين وبتحرير سوريا ولبنان ولكنه لا يبرز فى برنامجه المسائل الاجتماعية أو تطوير نظام الحكم ، وعلى كل فإن مجافاة فكرة الديموقراطية على الطراز الغربى ليست بالضرورة خطئاً فى مثل ظروف العراق حينذاك ، إذ أنه كما رأينا لم تكن للأحزاب السياسية جذور شعبية عميقة وإن كان الكيلانى حاول أن يضفى على حركته صفة الشعبية باعتبار أن حزب الإخاء هو من أقدم الأحزاب السياسية فى العراق وأنه كان يتمتع بشعبية نظرا لمواقفه الوطنية ، فإذا صح ذلك فكيف نفسر إدخال نورى السعيد فى وزارة الكيلانى التى تألفت يوم ٣٠ مارس سنة ١٩٤٠

لقد أشرنا إلى رواية الكيلانى عن وقوع صدام بين الرجلين منذ قليل أى عند قيام الحرب فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ فهل فرض عليه السعيد بواسطة أنصاره فى الجيش ؟ الراجح عندنا بعد تأمل هذه القضية أن الكيلانى أراد أن يحشد فى وزارته أكبر عدد من رؤساء الوزارات السابقين ، وليس بمستغرب بالنسبة لعقلية هذا الطراز من الساسة القدامى أن يعتبروا ذلك طريقة لتأكيد هيبة حكومتهم فضمت أربعة من رؤساء الوزارات فى عهد الملك فيصل الأول وهم الكيلانى وناجى السويدى ونورى السعيد وناجى شوكت وأطلق عليها إسم وزارة قومية وظن أن مثل هذه الوزارة أقدر على مواجهة ظروف الحرب .

وخطأ الكيلانى هو أنه أراد أن ينفذ سياسة جديدة بواسطة نفس الأشخاص ، وأشد منه خطأ أنه عهد إلى السعيد بوزارة الخارجية فأصبح

(١) Khadduri p. 37.

بالضرورة مطلعاً على جميع تصرفات الرئيس فيما يتعلق بالعلاقات الدولية وسنرى كيف أدى ذلك إلى إضعاف مركز الكيلانى أثناء محاولته المساومة مع الطرفين المتحاربين فى صيف سنة ١٩٤٠ .

ما هى إذن السياسة الخارجية الجديدة التى أراد الكيلانى اتباعها ؟

أما الحياد فلم يكن ممكناً نظراً لوجود المعاهدة ومع ذلك فإن البرنامج الذى تقدم به الكيلانى إلى مجلس النواب يعلن الاستمرار على احترام معاهدة التحالف مع بريطانيا ولكنه يقرن ذلك بعدة تحفظات منها (١) .

(١) عدم التساهل تجاه المطالب الإنجليزية التى تخرج عن نصوص المعاهدة إلا ما كان فيه مصلحة مشتركة للطرفين بالنظر لما تتطور إليه حالة الحرب أو ما كان فيه ضمان لاستقلال العراق الناجز ووحدة العرب واستقلالهم خاصة فلسطين وسوريا على أن تعطى فى ذلك عهود ومواثيق رسمية معنى ذلك أن الكيلانى كان يريد الاستفادة على أساس الاتصال بالإنجليز أولا لا بالمحور كما يحلو لكثير من المؤلفين الأجانب تأكيده ، وهو فى ذلك يختلف مثلا مع مفتى فلسطين . وسيحاول ذلك بالفعل فى يوليو سنة ١٩٤٠ أى قبل أن يفكر فى جس نبض الألمان .

(٢) تزويد الجيش العراقى بالسلاح من أى مصدر كان مادام الإنجليز لا يتمكنون من تقديم جميع ما يحتاج إليه العراق من سلاح . ويلاحظ بهذه المناسبة أن بكر صدقى كان قد شرع للمرة الأولى فى الاتصال بألمانيا لاستيراد بعض الأسلحة وسيتجه العراق فى الفترة التالية إلى اليابان طالما أنها كانت دولة محايدة .

وقد أعلن الكيلانى منذ توليه السلطة عن عدم رضاه عن وضع المجلس

(١) الحسنى « الأسرار الخفية فى حركة السنة ١٩٤١ التحريرية » ص ٤٨ .

النيابى القائم حيث كان أنصار السعيد يحتلون عدداً هاماً من المقاعد ، إلا أنه لم يطلب صراحة حل المجلس إلا فى يناير سنة ١٩٤١ .

والحق أنه كان بوسع الكيلانى كسب أعضاء جدد فى المجلس إذا أجريت انتخابات نيابية حرة نظراً لأن هذا البرنامج اكتسب له شعبية جديدة كما أن حكومة الكيلانى بادرت إلى اتخاذ إجراءات من شأنها أن تجتذب الرأى العام كرفع الأحكام العرفية والإفراج عن كثير من المعتقلين السياسيين وسيتضح خطأ الكيلانى فى عدم إجراء انتخابات جديدة حينما يتكتل ضده أعوان نورى السعيد فى يناير ١٩٤١ مما سيحرج مركز حكومته .

تقيد الكيلانى كما أشرنا بمعاهدة التحالف مع بريطانيا ولهذا قطع العلاقات مع حكومة الدانيمارك التى تكونت فى ظل الاحتلال الألمانى خلال شهر ابريل سنة ١٩٤١ بيد أنه غير موقفه حينما أعلنت إيطاليا الحرب على بريطانيا فرفض قطع العلاقات معها رغم إلحاح السفير البريطانى ورأى أن يستغل هذه الفرصة للحصول على بعض المكاسب من الإنجليز فى نظير قطع العلاقات ، وروى فى مذكراته أنه لم يشأ أن يكرر خطأ نورى السيد بقطع العلاقات مع ألمانيا دون مقابل ، ومرة ثانية احتدم الخلاف بين الكيلانى ووزير خارجيته الذى كان يريد قطع العلاقات مع إيطاليا حتى من قبل أن تعلن الحرب رسمياً . ومع ذلك لم يكن بوسع الكيلانى أن يخرج السعيد من الوزارة خشية انتقام بريطانى ولأنه يتمتع بحماية الوصى ، وسيذكر ذلك مندوبه أثناء المحادثات مع ألمانيا (١) .

(١) مذكرات الكيلانى ص ١٣٩

أما الإنجليز فيفسرون هذا الموقف بظروف بلادهم السيئة التى جعلت الحكومة العراقية تستخف « بتوصيات السفير البريطانى » .

وإذا تابعنا بدقة السياسة الخارجية العراقية خلال هذه الأشهر من خريف ١٩٤٠ نلاحظ أن حكومة الكيلانى كانت أميل لو استطاعت أن تحقق الأمانى الوطنية عن طريق التفاهم مع بريطانيا أولا . » ولما كانت قضية فلسطين هى محك الأمانى الوطنية العربية فى نظر كثير من الوطنيين العراقيين فقد أصبحت هذه القضية هى محور المحادثات التى جرت خلال شهر يوليو بين نيوكومب المبعوث البريطانى وبين الحكومة العراقية وكانت المطالب العربية معتدلة فهى تريد وضع الكتاب الأبيض موضع التنفيذ فى الحال أى تسليم السلطة للعرب وهم ما زالوا بعد أغلبية كبيرة فى فلسطين وقد عاد نيوكومب وهو مقتنع بضرورة فعل شىء لاسترضاء العرب غير أنه اصطدم بتشرشل المعجب بالصهيونية (٢) .

وبفشل بعثة نيوكومب رجحت كفة القائلين بالاستفادة من المحور .

(٣) الاتصالات السرية بالمحور

بدأ الكيلانى يجس نبض المحور فى الوقت الذى كانت المحادثات فيه دائرة مع بريطانيا وكان على صواب فى هذا الاتجاه . ويجب ها هنا أن نميز بين موقفه وبين موقف الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين الذى استقر فى بغداد منذ أوائل الحرب فالكيلانى مستعد للاستفادة من أى واحد من الفريقين يستجيب للمطالب العربية أما الحسينى فكان يائساً من بريطانيا ويرى أنه لا مجال لخدمة القضية العربية إلا بالتفاهم مع المحور . ولم يكن ينظر إلى القضية بحساب الانتصارات العسكرية التى حققها المحور

(٢) أنظر فيما بعد الفصل الخاص بالصهيونية .

فى ذلك الوقت فحسب بل بمقياس قضية فلسطين على حدة فإن الصهيونية ستحقق كسباً مؤكداً بانتصار الحلفاء أما عرب فلسطين فسيكون الموقف مأرجحاً بالنسبة لهم حتى لو تم اتفاق مع الحلفاء بينما سيحققون كسباً مؤكداً إذا انتصر المحور .

ومنذ أن انتقل الحسينى إلى العاصمة الواقية وهو يبذل نشاطاً سياسياً هائلا ، وجمع حوله عديداً من الأنصار وخاصة من الوطنيين العرب اللاجئين من سوريا ولبنان وفلسطين مثل جميل مردم وشكرى القوتلى . كما وثق صلاته بالعقداء الأربعة المسيطرين على الجيش فى العراق .

والراجح أن اللجنة العربية العليا التى ذكرت فى المحادثات مع ألمانيا كانت تتألف من الحسينى وهؤلاء اللاجئين ولم يكن الكيلانى عضواً بها خلافاً لما رواه الحسينى فى مذكراته (١) ، على أنه قد تكونت لجنة أخرى بعد خروج الكيلانى من الحكم ضمت رئيس الوزراء السابق والعقداء الأربعة ويونس السبعاوى الزعيم الشعبى العراقى المعروف وأمين الحسينى وهذه اللجنة هى التى كانت تسيطر على حكومة الانقلاب المشهورة فى ابريل سنة ١٩٤١ (٢) . إذن فإن المحادثات التى جرت فى صيف ١٩٤٠ تمت عن طريقين : اللجنة العربية العليا ورئيس الحكومة العراقية بصفة شخصية ، ولكن من المؤكد أنه كان هناك تنسيق بين الجهتين ، فإن أول اتصال كان على طريق ناجى شوكت وزير العدل فى حكومة الكيلانى وقد أوفد إلى أنقرة إثر توقيع الهدنة مع فرنسا بقصد بحث مستقبل سوريا مع الحكومة التركية .

(١) مذكرات أمين الحسينى أخبار اليوم عدد ١ سبتمبر ١٩٥٧

(٢) Kadduri P. 164

وكان الكيلانى مضطراً لإشراك وزير الخارجية فى الوفد فيما يخص المهمة الرسمية ، أما فيما يتعلق بالاتصال بألمانيا فقد عهد إلى ناجى شوكت وحده أداء تلك المهمة . ومما يسترعى الانتباه أن الوزير العراقى قدم إلى فون بابن السفير الألمانى فى أنقرة بواسطة خطاب من أمين الحسينى . وكان هـذا الخطاب يحتوى على تهنئه بما حققته ألمانيا من انتصارات عسكرية وسياسية .

دبرت المقابلة السرية فى ٥ يوليو وقد أعرب بابن منذ البداية عن عدم اهتمام بلاده بالمنطقة العربية وأوصى الوزير العراقى بأن يتصل بإيطاليا فى مثل هذه الشئون ووعد فى نفس الوقت بأن يطلع حكومته على أمانى العرب التى حملها الوزير العراقى .

وأجاب ناجى شوكت أن العرب يحاولون الآن التخلص من الاستعمارين البريطانى والفرنسى وأنهم ينظرون إلى إيطاليا بخشية وحذر بوصفها الدولة الاستعمارية الثالثة ولهذا فهم الآن يخافون على حريتهم واستقلال بلادهم ويرجون مخلصين أن تسارع ألمانيا فتذيع هى وحليفتها إيطاليا بيانا مشتركا بحسن نياتهما نحو البلاد العربية وكونهما توليان القضايا العربية اهتماماً خاصاً وتعضدان استقلالها استقلالا تاماً (١) .

وبالفعل لم يغفل أنصار الاتصال بالمحور فكرة التفاهم مع إيطاليا حتى من قبل أن يستمعوا إلى حديث فون بابن .

---

(١) أنظر المحادثات فى الوثائق الألمانية المنشورة بعنوان .
docoumentes on german Foreign
policy. Serry D. Vol. 10 P. 142 — 44
ويلاحظ عموماً قلة اهتمام الوثائق الألمانية بالموضوعات العربية .

ذلك أن مفتى فلسطين كما رأينا لم يكن يرى للعرب مجالا للاختيار بين المعسكرين المتحاربين فلا مناص من محاولة إقناع إيطاليا بالتراجع عن سياستها الاستعمارية ويمكن إغفال موضوع ليبيا مؤقتاً ، ولما كانت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة بين العراق وبين ألمانيا فقد كان لوجود السفير الإيطالى جبرايللى أهمية عظمى فى هذه الحقبة . وتوثقت الصلات بين السفير الإيطالى وبين مفتى فلسطين واستطاع جبرايللى أن يقدم تعهداً كتابياً فى ١٩٤٠/٧/٧ — إلى الكيلانى باسم وزير الخارجية الإيطالية الكونت شيانو ومما جاء فيه إن إيطاليا ترمى إلى تأمين الاستقلال التام والاحتفاظ بالكيان السياسى لكل من سوريا ولبنان والعراق والبلاد التى تحت الانتداب البريطانى ولهذا فإن إيطاليا ستقاوم كل ادعاء بريطانى أو تركى لاحتلال الأراضى سواء كان ذلك فى سوريا أو لبنان أو العراق. ويلاحظ على هـذا التصريح أنه أقحم تركيا من بين الدول الطامعة دون أن يطالب العرب إلى إيطاليا ذلك (٢) . كما أن التصريح سكت عن مصر والسودان حيث تتركز الأطماع الايطالية . ومن جهة أخرى فإن التصريح قدم باسم وزير الخارجية الإيطالية شخصياً ولدى العرب عقدة من مثل هذه التصريحات الشخصية ترجع إلى ذكرى وعدد مكماهون للشريف حسين . ومن جهة أخرى فان العرب كانوا يتطلعون إلى ألمانيا لا إلى إيطاليا ولذلك كان لابد من استئناف السعى لدى الحكومة الألمانية .

ولهذا الغرض أوفد عثمان كمال حداد السكرتير الخاص للحاج أمين الحسينى فى مهمة سرية إلى برلين خلال شهرى أغسطس وسبتمبر ١٩٤٠ وكانت أكبر شخصية سمح له بمقابلتها هو ويزيكار وكيل وزارة الخارجية الألمانية أما المحادثات السياسية فقد عهد بها إلى فريتس جروبا سفير ألمانيا السابق فى بغداد والذى كان له صلات وثيقة بكثير من الساسة العراقيين وقد

---

(٢) مذكرات كمال حداد المنشورة بعنوان « حركة رشيد عالى الكيلانى » ص ٣٢

أصبح الآن رئيس القسم العربى فى وزارة الخارجيـة وسنورد فيما يلى المطالب المحددة التى قدمهـا المبعوث العربى فهى تعبر حقاً عن الأمانى البعيدة للوطنيين العرب فى ذلك العهـد وتدل على أن واضعيهـا كانوا يدركون قيمة الوحدة العربية ويفـكرون فى إطار الوطن العربى الـكبير ، ومع أننا سنلاحظ فيما بعد أنهم كانوا مستعدين لتنازلات تعتبر خطيرة فى عصرنا لـكن هذه المطالب بمقياس العصر تعد خطوة خطوة كبيرة فى تقدم المفهومات الوطنية العربية :

١ ــ إن ألمـانيا وإيطاليا تعترفان بالاستقلال التام للبلاد العربية المستقلة الآن وبالاستقلال التام للبلاد العربيـة التى هى تحت الانتداب الفرنسى (سوريا ولبنان) وبالاستقلال التام للبلاد العربية التى هى تحت الانتداب الإنجليزى (فلسطين وشرق الأردن) أو التى هى مستعمرات أو محميات بريطانية (كالـكويت وعمان ومسقط وحضرموت ــ أما عدن وهى الجزء الجنوبى من اليمن فإنها سوف تعود لأحضان المملـكة اليمنية المستقلة) وبالاختصار فإن ألمانيا وإيطاليا تعترفان بالاستقلال التام لجميع البلاد العربية المعروفة أنها عربية بأكثرية سكانها .

٢ ــ أن ألمانيا وإيطاليا تعلنان بصورة قاطعة لا مواربة فيها أن ليست لها أية مطامع استعمارية فى مصر والسودان وتعترفان أيضا باستقلال مصر والسودان التام وذلك وفقا للمادة الأولى من هذا التصريح . ومن جهة أخرى فإن دولتى المحور تعلنان بأن التحفظات التى وضعتها انجلترا على هذين البلدين تعتبر لاغية من أساسها .

٣ ــ أن ألمـانيا وإيطاليا تتعهدان بعدم اللجوء إلى أى أسلوب من الأساليب ضد استقلال البلاد العربية التام كأسلوب الانتداب

الذى اخترعته جمعية الأمم بصورة احتيالية بالاتفاق مع الديموقراطيات لاخفاء شهواتها الاستعمارية .

٤ ــ أن ألمانيا وإيطاليا تعترفان للبلاد العربية بحق تأسيس وحدتها القومية حسب رغائبها وبالطريقة التى تراها موفقة ولن تعمدا إلى وضع العراقيل فى سبيل إنشاء هذه الوحدة .

٥ ــ أن ألمانيا وإيطاليا وهما غير معترفتين بمشروعية الوطن القومى الصهيونى فى فلسطين تعترفان للبلاد العربية بحق إيجاد حل عادل لهذه القضية حسب مصلحة العرب القومية وفى مقابل ذلك يعترف العرب بأفضلية التعاون الاقتصادى مع المحور ، وسيفسر معنى هذا التعاون تفصيلا فى المحادثات التالية وكذلك يحترم العرب الوضع الراهن لامتيازات كنائس الارساليات المسيحية وحرية تمتع المسيحيين بإقامة طقوسهم الدينية واحتفاظ الـكنائس بأملاكها ومؤسساتها الخيرية[١] .

ويبدو أن الحكومة الألمانية لم تأخذ هذه المحادثات مأخذ الجد خاصة إذا ذكرنا بأن اللجنة العربية العليا فى ذلك الوقت كانت تتألف فى الغالب من لاجئين سياسيين . وبينما كانت المحادثات دائرة بين جروبا وحداد أرسلت الحكومة الألمانية منشورا سريا إلى سفرائها فى الخارج أشارت فيه إلى اتصال ، بعض الزعماء العرب ، بوزارة الخارجية وتود حكومة الرايخ أن توضح لسفرائها أن إعادة التشكيل السياسى للمنطقة العربية هو من اختصاص حليفتها إيطاليا . ومع ذلك فان ألمانيا تحتفظ لنفسها ببعض المطالب فى استغلال النفط وفى طرق المواصلات وبعض الامتيازات الثقافية وذلك بنشر اللغة الألمانية فى تلك المنطقة وأخيرا

(١) حداد ص ٢٩ .

تطلب المذكرة كتمان هذا المنشور عن الدوائر العربية [١] أما جروبا فكان أكثر تحمسا لفكرة التفاوض مع العرب ولذلك دخل فى التفاصيل فسأل المبعوث العربى مثلا عما إذا كان يدخل أيضا المغرب فى مفهوم البلاد العربية التى تريد الاستقلال فأجاب بالإيجاب وزاد ذلك من حيرة الخبير الألمانى للشئون العربية لأنه كان يعلم أن بلاده تسعى لإسترضاء حكومة فيشى الفرنسية كما أن لفرانكو مطالب معروفة فى مراكش وهو حينذاك صديق حميم للمحور [٢] .

كان على المبعوث العربى أن يتابع اتصالاته فى روما وهناك اضطر إلى التلويح بالمصالح الاقتصادية التى ستجنيها إيطاليا فى حالة انتهاء الاستعمار البريطانى والفرنسى من الشرق العربى ، وقال أن إيطاليا ستجد سوقا رائجا لمصنوعاتها فهو يسلم إذن بالاقتصاد المتخلف للدول العربية وقد تصادفت زيارته مع بدء الهجوم الإيطالى على مصر ولذلك رأت إيطاليا أن ترجىء هذا الموضوع ، ولم يحل شهر أكتوبر حتى كانت تطورات عديدة قد حدثت فى الشرق الأوسط ساعدت على إصدار تصريح علنى من دولتى المحور بتأييدهما لاستقلال البلاد العربية التام ونضال العرب من أجل هذا الاستقلال «٢٣ أكتوبر ١٩٤٠» ، أما هذه التطورات فهى أولا تجديد ناجى شوكت لاتصالاته بفون بابن مما أضفى على الوفد العربى مزيدا من الهيبة ومما يذكر بهذه المناسبة أن شخصية عربية أخرى معروفة شاركت فى الاتصال بالمحور فى تلك الحقبة وأعنى بذلك شكيب أرسلان الزعيم العربى اللبنانى المعروف الذى كان مقيما فى جنيف منذ مدة ويتفرغ

---

(١) الوثائق الألمانية المشار إليها Vol. 10. p. 515. - 16

(٢) انظر هذه المحادثات فى المصدر السابق Vol. 10 p. 275 s.q.

للدفاع عن القضايا العربية وفى رأيه أنه يمكن عقد تحالف عسكرى بين العرب وبين المحور وكان يعنى بالعرب الحكومة العراقية والمملكة العربية المقترحة فى سوريا ويمكن أن تنشأ هذه المملكة لحساب أحد الهاشميين وفى مقابل ذلك يسترضى ابن سعود بشرق الأردن ، وهذه المقترحات إن دلت على شىء فإنما تدل على مفهومات رجعيه لفكرة الاستقلال ، التطور الثانى هو فشل المحادثات التى جرت بين هتلر من ناحية والماريشال بيتان والجنرال فرانكو من ناحية أخرى فلم تستطع ألمانيا أن تكسب أيا من فرنسا أو اسبانيا إلى التحالف معها : وكان هتلر فى سبيل هذا التحالف مستعداً لإرضاء إحدى الدولتين أو كلتيهما بتحقيق مصالح استعمارية فى شمال افريقيا . وقد تبين وجود تعارض بين مصالح الدولتين ، فاسبانيا تتطلع إلى امتلاك بقية المغرب وهى قد وضعت يدها بالفعل على منطقة طنجة الدولية ، ولو أرضى هتلر هذه المطامع الاسبانية فإنه سيغضب فرنسا بلا شك .

ووازن الزعيم الألمانى بين التحالف الاسبانى وبين اغضاب فرنسا فوجد أن قوة اسبانيا لا تساوى ذلك . وهكذا أصبحت ألمانيا حرة فى أن تعلن تأييدها لاستقلال العرب دون أن تخشى رد فعل الإعلان لدى الفرنسيين أو الاسبان ، ثالثا عجز إيطاليا عن التوغل فى الصحراء الغربية وتوقف زحفها عند سيدى برانى ومع ذلك فلابد وأن تكون الحكومة الألمانية قد أخذت فى الاعتبار مصالح الطليان ولذلك صيغ التصريح فى عبارات عامة تختلف تماماً عن المطالب العربية المحددة ولم تخف دولتا المحور أثناء المحادثات وجود أطماع لها فى المنطقة فألمانيا تطلب أن تحل محل بريطانيا فى شركة نفط العراق وايطاليا تريد أن تحل

محل فرنسا فى حماية الموارنة بلبنان وفضلا عن ذلك كله رفضت الحكومة الألمانية تسليم السفير العراقى فى أنقره النص الخطى لهذا التصريح .

وقد كشفت المحادثات عن نقطة خلاف هامة بين الوطنين العرب وبين الألمان وهى تشكك حقاً فى نوايا ألمانيا ذلك أن العرب تصوروا أن ألمانيا تستطيع بعد هزيمة فرنسا أن تجبرها على تغيير الوضع فى سوريا ولبنان وقدم المبعوث العربى الحجة القانونية لإنهاء الانتداب وهى أن الانتداب منح لفرنسا بواسطة عصبة الأمم وقد حلت الآن هذه العصبة ، ومع ذلك ورغم فشل المحادثات مع بيتان فإن الألمان لم يفعلوا شيئاً فى هذا السبيل بل على العكس كانوا يريدون أن تبدأ الثورة العربية ضد الإنجليز فى فلسطين كما أنهم طلبوا إلى العراق أن تظهر عملا إيجابياً ضد الإنجليز قبل مده بالمعونة العسكرية ، وتساءلت الحكومة الألمانية بحق لماذا يبقى نورى السعيد وزيراً للخارجية وقد أثيرت هذه النقطة منذ المحادثات الأولى مع فون بابن فى ٥ يوليو ١٩٤٠ . واعتذر ناجى شوكت بأن الكيلانى لا يستطيع إقالته خشية أن يؤدى ذلك إلى تهديد بريطانى .

وبينما كانت حكومة الكيلانى تتعرض لضغط شديد من جهات عدة كما سنتحدث عن ذلك تفصيلا فيما بعد . رأى المفتى أن يقوى جانبه وجانب أنصاره فى الوزارة بتجديد المحاولة لدى المحور كيما يقوم بعمل جدى فى تأييد القضايا العربية فأرسل سكرتيره مرة ثانية إلى برلين فى يناير ١٩٤١ وحمله رسالة إلى الفوهرر نفسه ذكر فيها أن العرب مستعدون لخوض المعركة ضد بريطانيا غير أنهم يحتاجون إلى أخذ الحذر(١) وكان العرب يتوقعون

(١) انظر نص هذه الرسالة بتاريخ ٢٠ يناير ١٩٤١ Kadduri : p. 372

هذه المرة أن يلقوا تشجيعاً أكبر من ألمانيا نظرا إلى ان هيبه ايطاليا قد زالت فى حرب اليونان وأصبح بوسع ألمانيا أن تفرض على حليفتها السياسة التى تشاء .

رغم ذلك كله لم يبد الألمان استعدادا لتقديم المعونة العسكرية للعراق إلا إذا اتبع سياسة الحياد ، والحياد فى رأيهم هو عدم استخدام الأراضى العراقية بواسطة القوات البريطانية — معنى ذلك نقض المعاهدة دون استعداد سابق لمقابلة العدوان البريطانى المنتظر فى تلك الحالة ، ولذلك أرسل حداد بخطاب إلى الكيلانى — وقد أصبح الآن خارج الحكم — يدعو فيه إلى عدم الاعتماد على ألمانيا وقال « لاحظت أن الألمان يريدون توريطنا مع الإنجليز فى صدام مسلح دون أن يفكروا فى مصيرنا ويجب الاستعداد عسكريا قبل اتخاذ أى اجراء ولا مجال الآن لاعادة العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا كما تريد حكومة برلين بدون معونة عسكرية (١) » أرسل هذا الخطاب فى ٢٠ فبراير ١٩٤١ ولم تلبث الحركة الوطنية الناشئة فى العراق أن واجهت خيبة أمل ثانية من جانب أصدقاء المحور، فمن المعروف أن الاتحاد السوفيتى كان قد عقد مع ألمانيا ميثاق عدم اعتداء قبيل قيام الحرب ولم يخف عن الزعماء العرب أن هذا الميثاق مشكوك فى قيمته لأنه يجمع بين دولتين متنافرتين من الناحية الايديولوجية(٢) .

لذلك فكر الكيلانى خلال شهر اكتوبر فى إنشاء علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفيتى مقابل أصدار تصريح منه بتأييد الأمانى الوطنية العربية وفى رأيه أن العرب سيفيدون من هذا التصريح من جهتين : أولا

(١) حداد ص ٩٤ .

(٢) انظر كتابنا « الحرب العالمية الثانية » الفصل الحادى عشر .

فى حالة كون الصداقة الألمانية السوفيتية باقية فإن الاتحاد السوفيتى سيصبح عاملا مساعدا بجانب المحور لتأييد استقلال العرب ، الوجه الثانى أنه فى حالة انهيار الميثاق وتحول الاتحاد السوفيتى إلى بريطانيا وهذا ما يتوقعه فإن حكومة موسكو ستصبح فى مركز أقوى لمساعدة العرب حينما ينتصر الحلفاء وفى ذلك الحين كان ستالين يتفاوض مع هتلر بشأن تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ ، وقد سبق له أن اعترف لإيطاليا بأن الشرق العربى يقع فى منطقة نفوذها وهو الآن يطالب ألمانيا بالجزء الممتد من حدود الاتحاد السوفيتى الجنوبية حتى المحيط الهندى وكان ذلك اتجاها غريبا من ستالين الذى يتزعم دولة شيوعية تعادى الاستعمار بحكم عقيدتها السياسية . ونتيجة هذا الموقف الشاذ الذى وقفته روسيا أثناء الحرب العالمية الثانية رفضت حكومة موسكو إصدار التصريح الذى طلبه ، العرب وقد جدد كامل الكيلانى شقيق رئيس الوزراء وسفير العراق فى أنقره اتصالاته بالسفير الروسى هناك فى مارس ١٩٤١ . ولم يستطع أن يحول حكومة موسكو عن موقفها السابق ففهم حينئذ أنها لا تريد إغضاب بريطانيا ، والراجح أن ستالين فى هذه الفترة الحرجة لم يكن يريد أن يورط بلاده باغضاب دولة من الدول الكبرى من أجل منطقة لا يهتم بها كثيرا(١) . لهذا كله لا يمكن القول بأن انقلاب ١ ابريل الذى أتى بالكيلانى إلى الحكم قد دبر بالاتفاق مع المحور أو حتى كان متأثرا بانتصاراته وإنما أملته ظروف داخلية كما سنوضحه فيما يلى :

(٤) انقلاب ١ ابريل « نيسان »

تعرضت حكومة الكيلانى منذ شهر نوفمبر لألوان مختلفة من الضغط ، فقد أخذت بريطانيا تثير الاحتجاجات والتهم ومن الراجح أن يكون نورى السعيد قد أطلعها على الاتصالات التى جرت خلال الصيف بين

(١) حداد ص ٨٠ ، ٩٢ .

الحكومة العراقية وبين المحور ، وأدعت الحكومة البريطانية أن الكيلانى ينوى إعادة العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا ولكن الرئيس العراقى نفى ذلك حينما طرح أمامه السؤال صراحة . أما المتاعب الرئيسية فقد أتت من الداخل ، وذلك بأعلان نورى السعيد اختلافه مع رئيس الوزراء حول السياسة الخارجية ومما يسترعى الانتباه أن وزير الخارجية كان قد تظاهر خلال صيف ١٩٤٠ بترحيبه بفكرة الاتصال بالألمان وذلك على أثر زيارة قام بها للجبهة الليبية وتأثر خلالها بتفوق الطليان العددى، والراجح أنه فعل ذلك لكى يطمئن زملاءه فى المجلس فيسمحوا له بالاطلاع على الاتصالات السرية . وفى ١٥ / ١٢ / ١٩٤٠ بعث بخطاب مفتوح إلى رئيس الوزراء ألمح فيه إلى الاتصالات السرية مع المحور وانتقد هذه السياسة مستدلا بأن دول المحور تتبع سياسة عدوانية وأنها انتهكت استقلال كثير من الأمم الصغيرة فى أوربا فمن باب أولى أن تكن نفس روح العدوان نحو العرب الذين هم أبعد عنها من حيث العنصر والدين(١) ثم لفت النظر إلى أهمية موقف الولايات المتحدة وكيف أنها لا ترضى عن سياسة الحكومة العراقية الحاضرة ومن المفيد للعراق كسب ود هذه الدولة العظمى . وفى رأيه أنه بعد أن صمدت بريطانيا ستة أشهر منذ سقوط فرنسا فإن العراق يستطيع أن يخدم قضية فلسطين وسوريا بصورة أفضل إذا التزم بأحكام المعاهدة .

ولم تقف مناورات السعيد عند إحراج الحكومة بمثل هذا الخطاب ، بل لجأ إلى أسلوب المؤامرة. فيروى صلاح الدين الصباغ وهو أقدم العقداء الأربعة وأقواهم نفوذاً أن السعيد اتصل به فى أوائل سنة ١٩٤١ وعرض عليه قيادة القوات العراقية التى يحتمل إرسالها إلى الجبهة الليبية فى حالة إعلان العراق الحرب بجانب بريطانيا ، وقد رفض الصباغ المشاركة فى هذه المؤامرة(٢) ويبدو أن بريطانيا حثت أصدقاءها لمشاركتها فى الضغط على

(١) انظر نص الخطاب الحسنى ص ٧٠ ، ٧١ .
(٢) مذكرات الصباغ ص ١٤٦ .

حكومة الكيلانى ، فأوعز تشرشل إلى روزفلت بأن يرسل خطابا يحذر فيه العراق من مغبة التقارب من المحور ويبين كيف أن ذلك لا يمكن أن يخدم قضية استقلال العراق . وتلى ذلك خطاب من حسين سرى رئيس الحكومة المصرية ينصح فيه زميله العراقى بمراعاة التحالف مع بريطانيا . ومن المفيد أن ننقل بعض فقراته هاهنا ... « . . . . وقد استوقف نظرى فى بيان الأسس التى تقوم عليها سياسة العراق الخارجية الاشارة إلى ازدياد توثق علاقات العراق الودية مع الدول الأخرى المتحاربة . . . ولقد أعلم أن العراق قطع علاقاته السياسية مع ألمانيا دون إيطاليا ، ولا أدرى إذا كانت الإشارة ترمى إلى إمكان إعادة تلك العلاقات سيرتها السابقة ، ولكن الذى يتبادر للنظر هو أن الملحوظ بالإشارة إيطاليا التى بقى وزيرها المفوض فى بغداد وأن يكون البلدان سواسية فى خصومتهما مع بريطانيا تلك الخصومة التى سوغت قطع العلاقات مع الأولى . وإيطاليا جارة مصر بطرابلس من ناحية الغرب وينتظم شواطىء البلدين البحر الأبيض المتوسط وكان بينهما علاقات عمرانية واقتصادية كبيرة ، ومصر تعلم وتحس الشىء الكثير عن سياسة إيطالية فى الشرق ولا أدلكم على جديد إذا ذكرت أن مستقبل المدنية إذا ظفرت إيطاليا وصاحبتها مكفهر ، وأن أمل الأمم الصغرى كمصر والعراق فى الاحتفاظ بشخصيتها واستقلالها وهما ظافران يحوطه الشك الشديد . ولقد تبين ضرورة الحذر والحرص على المسالمة وإن كنت أعلم أن حظ إيطاليا من النصر لا يكاد يعمل له حساب بعد الذى تبين من انهيار القوة المعنوية فى جيشها ، ولكن عدم اكتفائكم بعموم الإشارة إلى الدول الأخرى وتخصيص المتحاربة بالذكر أشكل على ، فإن مصر والعراق شأنهما واحد من حيث المحالفة مع بريطانيا ومن حيث التزامها بتقديم المساعدات والتسهيلات . ثم ختم خطابه بقوله . . . وإن لمصر كما للعراق فى ذمة بريطانيا حقوقاً تريد أن تقتضيها وعليها قيودا ليس أحب إليها من الفكاك منها ولكنها توقن بأن تحقيق

ذلك أيسر وأهون مع بريطانية ظافرة منتصرة منه مع انتصار الاتوقراطية التى لن تبقى على حرية واستقلال وهى لذلك تحار فى فهم تشيع الصحف العراقية الظاهر لدولتى المحور ؟[1] »

ثم استخدمت بريطانيا وسائل الضغط الاقتصادى وامتنعت عن شراء التمر وهو من المحاصيل الرئيسية ، وقارن الوطنيون العراقيون بين حالتهم هذه وبين وضع تركيا فلاحظوا بحق كيف أن تركيا المحايدة تتلقى المساعدات من الطرفين المتحاربين بينما أن العراق المتحالف مع بريطانيا يحرم حتى من مجرد الاتجار مع مختلف الدول .

لذلك اتجه الكيلانى إلى فتح باب جديد لبيع محصول التمر العراقى لدى اليابان وهى ما تزال بعد دولة محايدة ، وانتهز هذه الفرصة لكى يطلب شراء أسلحة حديثة للجيش العراقى بعد أن توقفت بريطانيا عن تزويده بالسلاح خلافا للمعاهدة ، ولقيت العروض العراقية ترحيباً حاراً لدى اليابان ، وذكرت الحكومة اليابانية عند ردها على تلك العروض بالروابط الآسيوية التى تربط بين البلدين وقدمت أسعاراً أفضل لشراء التمر .

كان رأى الوصى هو أنه طالما لا يوجد إنسجام بالمجلس فعلى الحكومة أن تستقيل ، بيد أن الكيلانى رفض هذه الفكرة قائلا بأنه من الأولى أن يستقيل وزير الخارجية ، ثم إتفق على حل وسط وهو أن يستقيل نورى السعيد ويخرج معه أحد الوزراء الوطنين مثل ناجى شوكت على أن الأمر لم يقف عند استقالة الوزيرين ، والظاهر أن القصر أغرى طه الهاشمى وزير الدفاع برئاسة الحكومة القادمة إذا قدم استقالته بدوره ليزيد حكومة الكيلانى حرجاً ، ولما شعر رئيس الوزراء بإحكام المؤامرة رأى أنه من الضرورى الأستناد إلى مجلس نيابى يتمتع فيه بأغلبية كافية ، سيما وأن أنصار السعيد

---

(١) الحسنى ص ٦٧ .

شددوا هجومهم على الحكومة بعد خروج صديقهم منها ، فلما طلب الكيلانى حل المجلس امتنع الوصى عن إجابة الطلب وغادر العاصمة حيث كان العقداء الأربعة يسيطرون على الجيش والتجأ إلى الديوانية لأنه كان يثق بقائد القوة هناك الزعيم ابراهيم الراوى . وحسب رواية الكيلانى كان العقداء الأربعة مستعدين للاستيلاء على السلطة فى هذه اللحظة ، ولكن رئيس الوزراء نصحهم بالتريث لأنه من هؤلاء الذين يخشون المساس بالنظام القائم[1] وهكذا قدم استقالته فى ؛ ٣ يناير ١٩٤١ .

وقع الأختيار على طه الهاشمى باعتباره شخصية وسطاً بين الوطنيين وبين عملاء الانجليز ، كما أنه كان فى الماضى صديقاً للعقداء الأربعة ، غير أنه بعد تولى السلطة لوحظ ميله المتزايد إلى تنفيذ رغبات الإنجليز . فى خلال شهر فبراير كان أنطونى إيدن وزير الخارجية البريطانية يقوم بجولة فى الشرق الأوسط ؛ واستعدت الحكومة العراقية لإستقباله غير أنه اعتذر فى آخر لحظة وطلب مجىء رئيس الوزراء لمقابلته فى القاهرة وفضل الهاشمى أن ينيب عنه وزير خارجيته توفيق السوَيدى ، وهناك واجهه إيدن بالمطالب البريطانية ومن بينها قطع العلاقات مع إيطاليا فوراً والسماح بتحشد القوات البريطانية فى العراق دون قيد ، وكان هذا الموضوع محل جدل بين الحكومة العراقية وبين بريطانيا منذ مدة وفسر كل فريق المعاهدة على النحو الذى يتفق ووجهة نظره .

خشى الوطنيون أن تضيع الترتيبات التى أعدوا لها منذ عام هباء وقد ازداد نفوذ الحاج أمين الحسينى لدى الزعماء العراقيين والفئة المسيطرة على الجيش فى العاصمة فى نفس الوقت ، ويتزعم هذه الفئة أربعة عقداء هم صلاح الدين الصباغ وفهمى سعيد ومحمود سلمان وكامل شبيب[2] . على أن

---

(١) مذكرات الكيلانى ص ١٥٧ وما بعدها .

(٢) يطلق عليهم بعض المؤلفين الإنجليز اسم المربع الذهبى .

موضوع السياسة الخارجية لم يكن العامل الحاسم فى إحداث انقلاب أول نيسان . وقد أشرنا إلى أن التقارير الآتية من برلين وأنقره عن موقف المحور من قضايا العرب لم تكن مشجعة ، ومع ذلك فإن اللجنة الوطنية لم تستهدف حينما فكرت فى الأنقلاب أن تصبح حليفة للمحور بل مجرد حماية استقلال العراق من التدخل البريطانى . وقد وقع حادثان هامان أثناء حكم الهاشمى القصير يدلان على نية انتهاك بريطانيا لهذا الاستقلال: الأول هو تعيين كنهان كورنوالس سفيراً جديداً لبريطانيا فى بغداد . وكان كورنوالس قد عمل من قبل كمستشار لوزارة الداخلية العراقية بعد الاستقلال ، فهو إذن خبير بنشاط الساسة العراقيين واتجاهاتهم ، وينم تعيينه عن نية التدخل السافر . الأمر الثانى أن العقداء الأربعة شعروا بأن بريطانيا تتآمر مع الحكومة العراقية لتفريقهم استعدادا لإبعادهم عن الجيش ، فرأوا أنه إذا لم يتم لهم تأمين أنفسهم فى الحال فقد تضيع الفرصة للأبد . على أنه حينما بدأ العقداء تحركاتهم فى العاصمة ليلة أول إبريل لم يقصدوا إلا إلى إجبار الهاشمى على الاستقالة ، وقد حصلوا بالفعل عليها وبقى أن يوقعها الوصى ، وحينما اتجهوا إلى القصر لكى يحصلوا على هذا التوقيع وجدوا أنه قد غادر مقره ، وبمساعدة السفارة الأمريكية استطاع أن يصل إلى البصرة حيث كان أحد اعوانه المخلصين وهو صالح جبر يتولى فيها منصب المتصرف . ومن البصرة غادر الوصى البلاد على متن طائرة بريطانية حيث التجأ لدى قريبه أمير شرق الأردن . ولا شك أن فرار الوصى فى هذه الظروف هو الذى أعطى لإنقلاب أول نيسان مدى أوسع وجعله يختلف فى مغزاه عن الإنقلابات السابقة . على أننا نبالغ إذا قلنا إن دعوة الكيلانى إلى رئاسة الحكومة كان يشكل حركة ثورية ، وإنما تكون أقرب إلى الدقه إذا وصفناها بأنها حركة قومية ، ولم يكن ثمة من بين الوزراء من يتصف بالروح الثورية سوى يونس السبعاوى وزير الأقتصاد . أما الكيلانى فقد حافظ على الشكليات فدعى المجلس القديم لكى يختار

وصياً على العرش بدل الوصى الهارب ، ووقع الاختيار على أحد المسنين من أبناء الأسرة الهاشمية وهو الشريف شرف ، ثم تم تشكيل الحكومة فى ظروف خاصة تختلف عن الحكومات السابقة ولذلك أطلق عليها وصف حكومة الدفاع الوطنى. غير أننا إذا تأملنا برنامج الحكومة الجديدة لانجد فيه تغييرا بارزاً إلا تلك الاشارة التى تلمح إلى عدم توريط البلاد فى الحرب ، أما فيما يتعلق بالاوضاع الداخلية فلا يكاد المرء يحس شيئاً منها. ومما جاء فى إعلان الحكومة بعد تشكيلها ، أن منهاج هذه الحكومة هو ذات المنهاج الذى سارت عليه الوزارة الأخيرة واعلنته فى حينه للرأى العام ، والذى كان من أسسه عدم توريط البلاد فى أخطار الحرب والقيام بأداء رسالتها القومية ، والمحافظة على تعهداتها الدولية لاسيما المعاهدة العراقية البريطانية والاستمرار فى تنفيذ أحكامها بروح الود والصداقة ، والدوام فى تقوية الروابط الحسنة مع الدول العربية المجاورة . . . » (١) .

(٥) الاشتباك مع بريطانيا

رغم هذا الاعتدال الذى تميز به الكيلانى فإن تشرشل نظر إلى هذا الإنقلاب من زاوية أخرى ، فاعتبر أن تسلم أشخاص معروفين بنزعتهم الوطنية للسلطة يعد ضربة لهيبة بريطانيا الإمبراطورية فى الشرق الأوسط ، ومثلا سيئاً قد يحتذيه الوطنيون فى دول أخرى ، ، لذا بادر منذ ٣ ابريل إلى إبلاغ حكومة الهند بضرورة الاسراع فى إرسال فصيلة إلى البصرة ، والقصد من ذلك هو التحرش بالحكم الوطنى أو على حد تعبيره اختبار ولاء الحكومة الجديدة(٢) وقد مال الساسة الإنجليز حينذاك إلى الربط بين الأحداث الداخلية فى العراق وبين التقلبات العسكرية فى الميدان الأوربى ، فذكروا

(١) الحسنى ص ١١٢ .
(٢) Churchill Vol. 3p. 224

مثلا أن ثمة تنسيقاً بين وقوع انقلاب أول ابريل وبين قيام روميل بهجومه الاول فى اتجاه مصر وغزو الألمان للبلقان ، وعلى هذا النحو سيربطون بين تحشد القوات العراقية قرب الحبانية فى أوائل مايو وبين غزو الألمان لكريت . وستؤكد لنا جميع الأحداث التالية كيف أن الحكم الوطنى فى العراق افتقد ، على العكس من هذه الإدعاءات ، جميع مظاهر التنسيق بينه وبين المحور ، مما سيكون له أسوأ الأثر على قدرته على مقاومة الغزو البريطانى (١) .

كان هم حكومة الكيلانى هو أن تحصل على اعتراف دولى وخاصة من بريطانيا ، غير أن السفير الجديد تلكأ فى تقديم أوراق اعتماده وأخذ يساوم على موضوع نزول القوات البريطانية فى العراق ، وانشغلت الحكومة بهذا الموضوع عن القضايا الوطنية التى كانت تشغل أذهان أنصار الوحدة العربية وهم فى نفس الوقت أنصار الحكم الجديد ، من ذلك تأجيل موضوع فلسطين والكويت(٢) إلى ما بعد الحرب .

أما مسألة تحشد الجنود البريطانيين فى العراق فقد أثيرت منذ صيف ١٩٤٠ وكان موضوع الخلاف هو هل يجوز لبريطانيا زيادة عدد قواتها المرابطة فى العراق أم أن المعاهدة تسمح فقط بالمرور بحيث أنه إذا أرادت بريطانيا إنزال قوات جديدة المرابطة فلابد أن يخرج عدد مماثل لها وكانت هذه هى وجهة النظر العراقية ، ولم تلح بريطانيا فى هذا الموضوع خلال صيف ١٩٤٠ وحينما طلب كورنوالس إلى الكيلانى صراحة السماح بنزول قوات جديدة إلى البصرة أعلن موافقته فى ١٩ ابريل على ذلك ، ولكن أضاف عدة شروط تفصل وجهة النظر العراقية السابقة ، من ذلك سرعة تنقل القوات الجديدة وعدم تركزها فى البصرة ، ضرورة الإبلاغ

(١) يوافق المؤلف الأمريكى Kirk على عدم وجود التنسيق — انظر Kirk P. 95 s.p
(٢) الظاهر أن المقصود بموضوع الكويت هو تحقيق اتحاد بشكل ما بين هذا القطر وبين العراق .

عن مجىء أية قوات أخرى وذلك قبل مجيئها بمدة كافية ، ثالثاً عدم إنزال قوة جـــديدة فى البصرة إلا بعد خروج القوات التى نزلت أخيراً إلى العراق .

كانت خطة تشرشل من إرسال التعزيزات إلى العراق محدودة الأهداف فى بداية الأمر فهو يريد إنشاء قاعدة المواصلات فى البصرة وتأمين الطريق الذى يصلها بفلسطين .

وقد صادف رئيس الوزراء البريطانى معارضة شديدة من الجنرال ويفل قائد عام القوات البريطانية فى الشرق الأوسط ، إذ اعترض بأن قواته تتحمل أعباء متزايدة فى وقت واحد فهى تواجه هجوم رومل الأول نحو الحدود المصرية والنزول إلى اليونان لمساعدة المقاومة فيها، ومن المستحيل فى مثل تلك الفروض فتح جبهة جديدة ويخشى ألا تكون قاعدة الحبانية قادرة على الدفاع عن نفسها ، فمن الأفضل إيجاد حل سياسى بالتفاهم مع حكومة العراق الجديدة، أما تشرشل فنظر إلى المسألة من زاوية الهيبة البريطانية وأصر على ضرورة تخصيص بعض القوات المرابطة فى فلسطين بما فى ذلك الفرقة العربية التابعة لشرق الأردن والتى يقودها جلوب باشا لمواجهة الحركة الجديدة فى العراق (١) وفى رأيه أن للمشكلات السياسية الأولوية فى بعض الأحوال على الضرورات العسكرية ، وبعد جدل عنيف بين الرجلين أنفذ تشرشل خطته فأنزل تعزيزات أخرى بالبصرة فى نهاية شهر ابريل .

وهكذا ووجهت حكومة الكيلانى بتحد صريح ، ورأى فهمى سعيد ، أحد العقداء الأربعة، أن يحتاط مقدماً بضرب حصار على القاعدة البريطانية

---

(١) أنظر هذا الخلاف فى Churchill Vol. 3p. 64 s.q

وكانت القوات المرابطة فيها تقدر بنحو ١٥٠٠ شخص فيهم كثير من الأشوريين والأكراد والعرب ، غير أنها عززت فى الأيام الأخيرة بـ ٣٥٠ رجل من قوات السلاح الجوى البريطانى . وفى ٢٧ ابريل عرض فهمى سعيد على الحكومة فكرة الاستيلاء على القاعدة عنوة فرفض الكيلانى قائلا بأن هذا يثير قضايا سياسية ويجب أن نترك مثل هذه الأمور للحكومة .

وكان هذا أول خلاف خطير ينشأ بين رئيس الحكومة وبين الضباط . ويروى أن صلاح الدين الصباغ اختلف مع زميله بشأن خطة التحشد حول القاعدة البريطانية مما يدل على أن كثيراً من الأمور كانت مرتجلة وأضعفت الحركة عسكرياً فى النهاية .

لقد اتخذت بريطانيا من هذا التحشد مبرراً لبدء العدوان على القوات العراقية فى ٢ مايو سنة ١٩٤١ . ويبدو أن تأخر العراقيين خلال هذه الأيام الخمسة قد أفقدهم زمام المبادرة وجعل القاعدة قادرة على فك الحصار ، ولا شك أن انهيار المقاومة العراقية بسرعة حول الحبانية من الناحية العسكرية واحتلال البصرة بدون مقاومة تقريباً ، هو الذى شجع تشرشل على تغيير خطته والتفكير فى القيام بهجوم خاطف على بغداد من نوع تلك الهجمات التى اشتهر بها الألمان فى الحرب العالمية الثانية . وقد بعث بتعليماته الخاصة بالخطة الجديدة يوم ٩ مايو وكان نجاح هذا الهجوم معلقاً بالاستيلاء على جسر الفالوجة وهو الجسر الوحيد الذى يمر فوق نهر الفرات ويمكن الطابور الزاحف من فلسطين من التقدم إلى العاصمة .

وقد تم الاستيلاء عليه فى يوم ١٩ مايو ، ومنذ ذلك الحين تحرج مركز الحكومة العراقية وأصبحت تواجه فكرة مغادرة بغداد واتخاذ مقر جديد فى الشمال

للاستمرار فى المقاومة . وقد أبدت فرقة المتطوعين بقيادة فوزى القاوقجى صلابة أعظم فى مقاومة الزحف البريطانى ، وكانت ما تزال محتفظة بالرطبة قرب الحدود السورية ، عندما وقعت الحكومة العراقية الهدنة وحينئذ ستخرج هذه الفرقة إلى سوريا لتستمر فى مقاومة الحملة البريطانية التى ستأتى بعد قليل لاحتلال سوريا ولبنان بالاشتراك مع قوات فرنسا الحرة (١) .

كيف واجهت حكومة الكيلانى هذه التطورات السريعة ؟ لا شك أن خروج الطائرات البريطانية من القاعدة وضرب القوات المحيطة بها كان مفاجأة . إذ لم يكن الكيلانى يود قط الصدام المسلح مع بريطانيا ، أما وأنه قد حدث فقد بادرت حكومته إلى اتخاذ القرارات الآتية ، الاحتجاج على العدوان — إعادة العلاقات الدبلوسية مع ألمانيا ومع الاتحاد السوفيتى — قطع الاتصال بين السفارة البريطانية وبين الخارج . ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن المفوضية الأمريكية لعبت دوراً خطيراً فى تسهيل المؤامرات التى دبرت ضد الحكم الوطنى الجديد فى العراق ، وكانت مصدر المنشورات المعادية ، كما أنها آوت كثيراً من اليهود بالإضافة إلى ما ذكرناه من مساعدة الوصى على الهرب (٢) .

تجدد الاتصال بألمانيا كما هو مألوف عن طريق فون بابن سفيرها فى أنقرة ، وقد أبدى السفير شعورا بالمفاجأة لوقوع الاشتباك وقال إن الهر فريتس جروبا سيصل حالا إلى بغداد لإعادة العلاقات الدبلوماسية ، أما المساعدات العسكرية فقد تتأخر لانشغال ألمانيا بميادين متعددة فى حوض المتوسط ولعله كان يشير إلى غزو جزيرة كريت .

(١) أنظر وصف العمليات العسكرية فى Glubb .
Britain and the Arabs. ps. 238 s. q.

(٢) أنظر موقف الولايات المتحدة فى مذكرات وزير خارجيتها حينذاك
Cordel Hull Vol. 2 p. 948.

وفى تلك الظروف العسكرية العصيبة رأت حكومة الكيلانى نفسها مضطرة إلى التهاون فى بعض القضايا الوطنية ، أى إلى عكس الهدف الذى كانت تعمل من أجله الحركة التى تمثل أنصار الوحدة العربية . مثال ذلك أنها كانت تشترط فى السابق إعلاناً سوفييتياً باستقلال البلاد العربية قبل إنشاء علاقات دبلوماسية مع حكومة موسكو ، أما الآن فقد اضطرت فى غمرة الأحداث إلى قبول الاعتراف المتبادل بين الحكومتين العراقية والسوفيتية فى ١٥ مايو دون الإلحاح على اصدار هذا التصريح ، كذلك تجنبت الحكومة العراقية إثارة موضوع الإسكندرونة لأنها كانت تعلق الأمل على وساطة تركيا لإيقاف الحرب ، والواقع أن تركيا هى التى أخذت زمام المبادرة بعرض الوساطة لأنه كان يهمها إبعاد القتال عن حدودها الجنوبية حتى تتمكن من البقاء على الحياد سيما وأن غزو الألمان لليونان قد قرب الحرب من حدودها الغربية ، وتسهيلا لنجاح المهمة قدمت الحكومة التركية اقتراحات محددة : إيقاف الحرب فورا ، اعتراف بريطانيا بالحكومة العراقية الحاضرة ، السماح لبريطانيا باتخاذ البصرة قاعدة دائمة أى التسليم بالأمر الواقع فعلا فى تلك الأيام ، انسحاب العراق من حول قاعدة الحبانية ، السماح لبريطانيا بزيادة قواتها فى القاعدتين الجويتين الشعيبة والحبانية وفيما عدا ذلك يسهل العراق أمر المرور فقط . فكأن الوساطة التركية ذهبت إلى حد وضع تفسير للمعاهدة الإنجليزية العراقية من عندها (١) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن الألمان حينما علموا بوجود هذه الوساطة التركية لم يبدو أى اعتراض ، أما بريطانيا فقد راوغت ولم يكن أحد يعلم فى ذلك الوقت أن تشرشل قد اتخذ منذ يوم ٩/٥ قراره بالهجوم الخاطف ، وسواء أكان السفير البريطانى فى أنقره على علم بهذا القرار أم لا فقد

(١) الحسن ص ١٥٤

كان جوابه على الوساطة التركية مائعاً، فطالب بضرورة النص على حق بريطانيا فى المرابطة وذكر أن تقييد عدد القوات التى تحرس القاعدتين يعد مخالفاً للمعاهدة، وأبدى السفير شكه فى نوايا الحكومة العراقية الحاضرة ومع ذلك طرح السؤال هل قبلت الحكومة العراقية الشروط التركية ؟ وبهذه الوسيلة جعل ناجى شوكت مبعوث العراق الخاص فى تلك المفاوضات يتعجل حكومته بإعلان قبولها للشروط فى يوم ١٣/٥

لقد قلنا إن الحكومة العراقية رحبت بالوساطة التركية وقبلتها فورا فلما عرضت الشروط على مجلس الوزراء قبلتها الغالبية تحت وطأة الكوارث العسكرية ، أما يونس السبعاوى فقد اعترض عليها . ونبه إلى أن بريطانيا تريد جس النبض لكسب الوقت . وقد أصبح معروفاً الآن أنه كان على صواب بعد أن كشفت خطة تشرشل لاحتلال العاصمة وهى سابقة على تلك الوساطة .

وإزاء هذا الانقسام رأى الكيلانى أن يستشير الجيش . وها هنا يختلف المؤرخون حول تلك النقطة الخطيرة وهى هل كان العقداء الأربعة هم المسئولون عن رفض الوساطة أم أن أمين الحسينى هو الذى أوعز بالرفض لأنه كان يهمه توريط العراق فى الصدام مع بريطانيا وكان يعول مثل الضباط على مساعدات عسكرية أعظم من جانب المحور ؟

والثابت هو أنه بعد أن أعلن الضباط رفضهم للشروط قدم الكيلانى استقالته، فتوسط أمين الحسينى لكى يبقى فى الحكم على أن يتابع اتصالاته بالمحور مع أن الموقف العسكرى كان يتدهور بسرعة ولم يكن هناك متسع من الوقت لمزيد من الوساطات . وفى نفس الوقت جدت حكومة الكيلانى لتدعيم مركزها فى النطاق العربى فأوفدت ناجى السويدى وزير المالية إلى ابن سعود وطلبت إليه أن ينفذ معاهدة التحالف المعقودة بين البلدين واعتذر

عبد العزيز آل سعود عن ذلك قائلا بأنه لم يستشر فى التطورات الأخيرة ومن العبث على كل حال أن يطالب إليه منع الانجليز من المرور عند الحدود السعودية المتاخمة لنقطة الالتقاء بين حدود الأردن والعراق. ورغم قصرها فإن انتفاضة العراق لقيت صدى لدى بعض البيئات الوطنية فى سوريا ولبنان كما أبدت حكومة اليمن ميلها لتأييد الحركة .

ويبقى فى النهاية موضوع هام وهو موقف ألمانيا من جميع تلك التطورات ، خلال شهر أبريل كانت العلاقات ما زالت منقطعة بين ألمانيا والعراق ، وقد عاد حداد مبعوث الحسينى إلى برلين بخطاب شخصى موجه إلى المفتى لا إلى الحكومة العراقية وهو يعد بمساعدة العرب عسكريا ضد العدو المشترك بريطانيا واليهود على أن ترسل تلك المعونة ، بقدر المستطاع وحينما تتيسر سبل المواصلات ، أما إيطاليا واليابان وهما ممثلتان فى بغداد حينئذ فقد بعثتا برسائل تهنئة إلى نظام الحكم الجديد .

ومن المؤكد أن ألمانيا لم تكن تريد الذهاب إلى حد إحداث صدام عسكرى بين العراق وبريطانيا على الأقل خلال شهر مايو ، وقد لمح بابن إلى انشغال بلاده بجبهات متعددة بحوض المتوسط ولكن صار معروفا الآن أن الاشتباك حدث فى الوقت الذى كان هتلر يُعد فيه نفسه لمشروعه الضخم المحبب إليه ألا وهو غزو الاتحاد السوفييتى ولم يكن يقبل بأية حال التضحية بشىء من استعداداته الكبرى من أجل منطقة لا يكترث لها كثيراً . وحتى لو أراد تقديم مساعدة مباشرة فلم يكن بوسعه سوى إرسال وحدات جوية وقد وصلت هذه الوحدات متأخرة فأخذت تتوافد على الموصل ابتداء من ١٣ مايو ، والظاهر أنها كانت ضئيلة العدد فلا تتجاوز فى بعض التقديرات ثلاثين طائرة وفضلا عن ذلك لم تفد العراق بشىء لأنه تبين أن الوقود الموجود بالعراق من نوع يختلف عن ذلك الذى تستخدمه الطائرات الألمانية . وأضاعت الحكومة الألمانية الوقت فى مباحثات

مع تركيا ومع حكومة فيشى فطلبت إلى تركيا السماح بارسال بعض القوات عبر أراضيها براً ولكنها اعترضت بل إنها لم تسمح لسفينة فرنسية متجهة إلى سوريا وهى تحمل بعض المعدات بالرسو فى موانيها .

أما حكومة فيشى فقد ترددت بين عاملين كون حركة الكيلانى تعبر عن الوطنيين العرب وهذا يصرفها عن تقديم المساعدة والعامل الثانى هو أن الأميرال دارلان وزير البحرية وصاحب نفوذ كبير فى تلك الحكومة كان يكنّ عداء خاصا لبريطانيا ولذا رجح العامل الثانى ووافقت الحكومة الفرنسية على إرسال كميات من الأسلحة المخزونة فى سوريا إلى العراق واستخدام مطارات سوريا لمرور الطائرات الألمانية نحو العراق ، على أن هذا الاتفاق تم متأخرا وبطل تأثيره بسقوط الفالوجة .

وثمة انتقاد صارخ يمكن توجيهه لموقف ألمانيا حينذاك وهو التوقيت الذى اختاره هتلر لإصدار تصريحه شديد اللهجة لتأييد الحكم الوطنى فى العراق . فلم يفعل ذلك إلا يوم ٢٣ مايو أى بعد أن تأكد خسران المعركة عسكريا . فهل كان يريد بذلك التصريح مجرد الدعاية أم حض العراق على الاستمرار فى حرب العصابات ؟ وبالفعل كان السفير الألمانى يعد بمزيد من المساعدات إذا صمد العراق اسبوعين آخرين غير أن العقداء الأربعة تخاذلوا بسرعة بعد سقوط الفالوجة وهم الذين دفعوا أعضاء الحكومة العراقية إلى الفرار إلى إيران بينما كانوا يستقلون القطار إلى كركوك لاستئناف المقاومة فى الشمال ، فلم تجد الحكومة المؤقتة فى بغداد بدأ من توقيع الهدنة فى ٣٠ مايو ومن ثم يمكن القول بأن تصريح هتلر لم يترك أثرا يذكر ومع ذلك فمن المفيد إيراد نصه لنتبين كيف أن ألمانيا لم تنظر إلى الحركة الوطنية العربية كحليف على قدم المساواة بل كاداة لخدمة أغراضها العسكرية .

أمر رقم ٣٠ بشأن الشرق الأوسط

(١) أن حركة التحرير العربية فى الشرق الأوسط هى حليفنا الطبيعى ضد بريطانيا . ومن ثم كانت الأهمية الخاصة المعلقة على تحرير العراق إذ أن من شأن ذلك أن يشد ، فيما وراء حدود العراق ، من أزر القوات المعادية لبريطانيا فى الشرق الأوسط ويعطل مواصلات بريطانيا ويحد من حرية السفن البريطانية بكل ما ينطوى عليه ذلك من تهديد فى النواحى الحربية الأخرى ، أما فيما يخص مواقع الإنجليز فيما بين البحر المتوسط والخليج الفارسى « العربى » والتى تهم حملة قناة السويس فيمكن مواجهتها فيما بعد وأما كيف يتم ذلك فهذه مسألة لا يستوجب النظر فيها إلا بعد بارباروسا[1] :

(٢) وتلخيصا للقرارات المنفردة التى سبق أن أصدرتها آمر بمساعدة العراق بـ : إيفاد بعثة عسكرية إليها ، القيام بحركات مساعدة عن طريق قوة الطيران ، شحن الأسلحة .

(٣) تكون البعثة العسكرية تحت رئاسة قائد الطيران فيلمى ويكون عملها :

(ا) تقديم المشورة والمعاونة للقوات العراقية المسلحة .

(ب) أن تحاول بقدر الإمكان إيجاد اتصالات عسكرية مع القوات المعادية لبريطانيا حتى ولو كانت فيما وراء حدود العراق .

(حـ) جمع التجارب والمعلومات ووضع الأسس للقوات الألمانية المسلحة فى تلك المنطقة .

(٤) قوة الطيران تكون إعدادها محدودة على أن تقوم زيادة على

---

(١) اسم الشفرة السرى لعملية غزو الاتحاد السوفيتى .

مجرد خدمة الأغراض العسكرية بالعمل على تقوية الروح المعنوية بين قوات العراق وشعبه ودعم روح المقاومة فيهم .

(٥) شحن الأسلحة : يصدر رئيس أركان القيادة العليا للقوات المسلحة الأوامر الضرورية فى هذا الصدد ويكون الشحن من سوريا على أساس الاتفاقية التى عقدت مع الفرنسيين لهذا الغرض وكذلك من ألمانيا .

(٦) توجيه الدعاية فى الشرق الأوسط هو من اختصاص وزارة الخارجية وهى تتعاون فى ذلك مع القيادة العليا للقوات المسلحة وتكون الفكرة الرئيسية التى تقوم عليها هذه الدعاية :

« إن انتصار المحور من شأنه أن يؤدى إلى تحرير بلدان الشرق الأوسط من نير الإنجليز وبالتالى إلى حق هذه البلدان فى تقرير مصيرها لذلك كان واجب كل من يقدر الحرية أن ينضم إلى الجبهة المعادية لانجلترا » .

(٧) فى حالة استخدام القوات الإيطالية المسلحة فى العراق يكون التعاون معها على أساس التعليمات المذكورة آنفا وستبذل محاولة لوضعها تحت إمرة رئيس البعثة الألمانية العسكرية .

كانت تجربة الحكم الوطنى فى العراق فريدة من نوعها فهى الحكومة الوحيدة فى الدول العربية التى تحدت بريطانيا بالقوة أثناء الحرب . ولذا يعتبر معظم المؤرخين العراقيين حركة رشيد عالى الكيلانى حلقة فى سلسلة الأمجاد الوطنية فهى مكملة لثورة سنة ١٩٢٠ . ولذا دعى الكيلانى إلى زيارة العراق سنة ١٩٥٨ بعد أن طالت إقامته فى المنفى . واستقبل هناك كزعيم وطنى كبير . إذا فإن التجربة رغم قصر عمرها لم تمر دون أن تترك أثرا . وإن كانت قد فشلت من الناحية العسكرية . ويرجع هذا الفشل إلى عدم التنسيق بين الحركة وبين القوى الخارجية التى لوحت لها بالمساعدة .

والأخطر من ذلك أنه لم يكن هناك انسجام تام بين القائمين بها ، ففى بداية الأمر كان العسكريون بالإضافة إلى أمين الحسينى يمثلون الجانب المتطرف وهم الذين تأهبوا للاشتباك مع بريطانيا بينما كان الكيلانى يحاول منع وقوع هذا الصدام ، ثم انقلبت الآية بعد التدهور العسكرى فأصبح الكيلانى ووزراؤه من أنصار استمرار المقاومة ولو على شكل حرب عصابات فى جبال الشمال بينما تخاذل العقداء الأربعة وهم الذين دفعوا بالحكومة وبالزعماء العرب الآخرين المرافقين لها إلى مغادرة البلاد والتوجه إلى إيران .

(٦) فى أعقاب الحركة

سنتناول فى هذا الجزء الأخير نقطتين الأولى : تتعلق بمصير القائمين بحركة ١٩٤١ ونشاطهم فى المنفى .

والثانية . تتناول تطور العراق فى السنوات الباقية من الحرب . لم تفتر همة الزعماء العرب بعد انتقالهم إلى طهران . وكانوا هناك يتمتعون بتأييد حكومة الشاه رضا بهلوى الذى أخذ فى ذلك الحين يشعر بوجود نوايا عدوانية بريطانية نحو بلاده .

وقد رأى الزعماء العرب أن يتجهوا اتجاها جديدا فى اجتذاب تأييد الدول الكبرى . وفكروا لحظة فى الاتحاد السوفيتى . وكان يونس السبعاوى فى طريقه إلى موسكو حينما وقع العدوان الألمانى فجأة على الاتحاد فى ٢٢ يونيو . فلم يتح الوقت للتعرف على موقف حكومة الكرملين من القضية العربية خلال تلك الأيام . ومع ذلك فإن هذا الاتجاه الطارىء يعد فى حد ذاته ذا مغزى هام .

وهو أن الوطنيين العرب كانوا يريدون الاستفادة من أية دولة كبرى دون النظر إلى عقيدتها السياسية .

وبقيام تحالف بين البريطانيين والسوفييت أصبح مركز إيران مهددا ، وأدرك الزعماء العرب ذلك فطلبوا إلى السفارة الألمانية فى طهران ترحيلهم . غير أنها اعتذرت بحجة أن هذا العمل قد يثير الذعر وطلب بعض الزعماء اللجوء السياسى فى تركيا فقبلت حكومة أنقرة ذلك بالنسبة للكيلانى ولكنها رفضت طلب المفتى وكذلك طلب الضباط العراقيين ، وكان معظم الزعماء الذين اشتركوا فى حركة إبريل — مايو سنة ١٩٤١ ما يزالون فى طهران حينما دخلتها القوات البريطانية السوفييتية المشتركة فى أوائل سبتمبر من نفس العام .

وسقط معظمهم فى يد البريطانيين ومن بينهم ثلاثة من العقداء الذين قاموا بانقلاب أول إبريل . أما العقيد الرابع وهو صلاح الدين الصباغ فقد تمكن من الفرار إلى تركيا حيث أقام بقية سنوات الحرب فى شبه اعتقال وكتب هناك مذكراته التى أشرنا إليها أحيانا(١) .

وقد نقلت السلطات البريطانية الزعماء العرب إلى سالزبورى فى روديسيا ولما جرت محاكمة بعضهم غيابيا فى بغداد وحكم عليهم بالإعدام طلبت حكومة الوصى العراقية تسليمهم فسلّم أربعة منهم فى مايو سنة ١٩٤٢ إثنان من العقداء هما محمود سلمان وفهمى سعيد وإثنان من وزراء الكيلانى يونس السبعاوى ومحمود على الشيخ وقد نفذ فيهم حكم الإعدام فورا .

أما كامل شبيب فقد تأخر تسليمه إلى سنة ١٩٤٤ ولاقى نفس المصير رغم أنه حاول التنصل من الحركة . ولما انتهت الحرب سلمت تركيا صلاح الدين الصباغ ، غير أنه تمكن من الفرار من القطار الذى كان يقله عبر الأراضى السورية فى اتجاه العراق . وسترى مما يعى الإنتباه أن حكومة

---

(١) نشرت هذه المذكرات بواسطة أحد أبناء الصباغ فى دمشق سنة ١٩٥٦ بعنوان فرسان العروبة فى العراق .

شكرى القوتلى ظلت تتتبعه حتى تمكنت من القبض عليه وسلمته بدورها إلى بغداد ويبدو أنها فعلت ذلك مراعاة للصداقة التى كانت تربطها فى ذلك الحين مع بريطانيا لأسباب خاصة سنوضحها فيما بعد .

أما مصير الزعماء السياسيين الذين تمكنوا من الفرار إلى دول المحور فقد كان مختلفا(١) . ولم يكن الكيلانى يظن حينما بدأ حركته فى العراق أن الأمر سينتهى به إلى اللجوء لدى المحور . وإنما اضطرته الظروف إلى ذلك اضطرارا فإنه شعر بالحرج الذى يسببه للحكومة التركية نتيجة إقامته هناك . وبمساعدة السفارة الألمانية تمكن من مغادرة البلاد فى نهاية سنة ١٩٤١ .

أما أمين الحسينى فقد ألقى بثقله منذ البداية مع المحور وكانت السفارة اليابانية فى طهران هى التى آوته عند احتلال الحلفاء لها ونقلته سرا إلى ألمانيا . وإذا فقد تلاقى الزعيمان العربيان فوق أراضى المحور خلال السنوات الباقية من الحرب . ومن المدهش أن روح التنافس أخذت تشتد بينهما رغم وجودهما بعيدا عن الوطن العربى فتطلع كل منهما إلى أن يحصل على اعتراف المحور له برئاسة حكومة عربية بالمنفى . وأخيرا استقر الرأى على الإعتراف بالحسينى كرئيس للجنة العربية العليا والكيلانى كرئيس لحكومة عراقية بالمنفى . وبينما قصر الكيلانى اتصالاته على الحكومة الألمانية ، سعى الحسينى إلى التقارب من حكومة روما أيضا .

ويقال إنه كان مستعدا للدخول إلى القاهرة بجانب موسولينى فى صيف سنة ١٩٤٢ وكان قد حصل منذ إبريل من نفس العام على تصريح بتأييد الحكومة الإيطالية لاستقلال جميع البلاد العربية الواقعة تحت الاستعمار

---

(١) انظر هذه التفاصيل فى مذكرات حداد . الفصل الأخير .

البريطانى واستنكار لتأسيس الوطن القومى لليهود فى فلسطين وقد ألح الزعيمان العربيان على الحكومة الألمانية من قبل ، أن تصدر تصريحا مشابها وسمح لكليهما بمقابلة هتلر ، غير أن الزعيم الألمانى رفض إصدار مثل هذا التصريح ، وحجته فى ذلك أن تصريحه لن يخرج عن أحد أمرين ، فإما أن يمر دون أن يلحظه أحد ، وفى تلك الحالة لن يكون له قيمة وقد تفسره بريطانيا على أنه جاء نتيجة شعور ألمانيا بأنها قد خسرت الحرب . ولذا فهى تلقى بالتصريحات جزافا دون أن يكون لها وزن .

الأمر الثانى ، هو أن يحدث هذا التصريح صدى لدى الوطنيين العرب . وتشتعل الثورة وفى تلك الحالة لن تستطيع ألمانيا مساعدتها لبعدها عن الحدود العربية . ولذلك يستحسن الإنتظار إلى حين تتوغل الجيوش الألمانية عبر القوقاز وتقترب من شمال العراق . ويجوز لنا أن نتساءل ألم تكن الجيوش الألمانية حينذاك مرابطة على الحدود المصرية[1] ؟؟

وفى نهاية الحرب كان كل من الكيلانى والحسينى يقيم فى ألمانيا ، وقد استطاع الأول الفرار خفية إلى بيروت ومنها إلى المملكة العربية السعودية حيث أقام فى حماية ابن سعود حتى سنة ١٩٥٨ . أما الثانى فقد سقط فى يد الحلفاء وجاء اسمه عرضا فى محاكمات نورنبرج كمجرم حرب لكنه استطاع الفرار بدوره أيضا إلى مصر حيث منحته حكومتها كامل تأييدها لخدمة قضية فلسطين فترة أخرى من الزمن .

أما عن تطور أحوال العراق فى أعقاب حركة رشيد عالى الكيلانى . فإننا نلاحظ أولا أن النشاط السياسى الهائل الذى تميز به العراق

(١) انظر هذه المحادثات فى مذكرات أمين الحسينى أخبار اليوم أعداد ٢١ و ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٥٧ وهى تبرير من وجهة نظره . ويمكن مقارنتها بدراسة خدورى فى كتابه العراق المستقل Khadduri p. 240 s. q. t. J

فى السنتين الأولين قد تحول إلى هدوء واستسلام للسياسة البريطانية . وكانت حكومة الكيلانى قبل أن تغادر العاصمة قد ألفت لجنة دفاع وطنى برئاسة أرشد العمرى ، وهذه اللجنة هى التى وقعت الهدنة مع بريطانيا فى ٣٠ مايو سنة ١٩٤١ .

وكان أهم ما نصت عليه هو أولا : وضع معاهدة التحالف موضع التنفيذ حسب التفسيرات البريطانية . وثانيا : رد جميع الأسرى البريطانيين . أما الأسرى العراقيون . فيسلمون إلى حكومة الوصى على العرش . ثالثا : احتفاظ الجيش العراقى بأسلحته[1] .

وكان الوصى عبد الإله أثناء إقامته فى عمان والقدس يردد النداءات المعادية للحكم الوطنى بواسطة الإذاعة . ولما احتل الانجليز البصرة جاء فى أعقابهم إليها ليحرج الحكومه القائمة وظل مرافقا للقوات البريطانية حتى دخل معها بغداد ولذا كان الشعور معبأ ضده . وقد شهدت العاصمة العراقية فى أول يوم من إقامة الوصى بها انتفاضة قصيرة ولكنها واسعة المدى . فنشبت المظاهرات المعادية للحكم الجديد الذى فرض على البلاد بقوة الاحتلال ، وتحولت المظاهرات إلى مهاجمة اليهود رمز التحالف البريطانى ، وحتى تدعم بريطانيا مركز الوصى أصدرت بيانا بعدم التدخل فى شئون العراق الداخلية وهو يذكرنا بالبيان الذى حاولت أن تغطى به موقف النحاس أيضا إثر حادث ٤ فبراير .

والحق أن العراق خضع فى السنوات التالية لوطأة احتلال شديدة ، وتكونت قيادة خاصة بمنطقة شمال العراق وإيران[2] وأصبحت جميع الأراضى العراقية مفتوحة للجيوش البريطانية مثل مصر . ومنحت

(١) الحسنى ص ٢٣٨ .

(٢) Kirk p. 146 s. q.

التسهيلات للسلطات البريطانية للاستيلاء على المساكن فى المدن العراقية الكبرى . وأخضع اقتصاد البلاد للرقابة البريطانية ، كما أن ملاحة الرافدين وتشغيل ميناء البصرة وجميع طرق المواصلات الأخرى أصبحت من اختصاص السلطات العسكرية البريطانية . هذا بالرغم من أن العراق ظل بعيدا عن جبهة(١) القتال .

لم يجرؤ الوصى على قلب الأوضاع دفعة واحدة . لذلك عهد بالحكم إلى جميل المدفعى الذى كان يعتبر حالة وسطا بين الوطنيين وبين عملاء الإنجليز . وقد بادر إلى قبول جميع الإجراءات البريطانية التى أشرنا إليها منذ قليل . وبالإضافة إلى ذلك عمد إلى قطع العلاقات الدبلوماسية مع إيطاليا فى ٨ يونيو . وكان مجلس الوزراء يضم فريقين : الأول يريد تناسى الماضى ، وعدم الإنتقام من الوطنيين ويميل المدفعى إلى هذا الفريق

أما الفريق الثانى فكان يتزعمه كمال إبراهيم وزير المالية وهو الذى يدعو إلى تصفية العناصر الوطنية بحجة انها أحدثت انقلابا ضد العرش . ولا شك أن الوصى كان يميل إلى هذا الفريق ولذا استقال المدفعى وتمهد السبيل لعودة نورى السعيد إلى الحكم . كان السعيد يشعر بسخط الشعب الشديد عليه ولذلك آثر ألا يشارك فى الحكم مباشرة فى أعقاب الحركة الوطنية . وفضّل الإقامة فى القاهرة حيث عمل سفيرا لبلاده إلى أن أتيحت له الفرصة لتسلم السلطة من جديد فى أكتوبر سنة ١٩٤١ .

وكان الانتقام من العناصر الوطنية هو أهم موضوع شغل حكومة السعيد فى الأشهر الأولى . وقد روينا طرفا عن المحاكمات التى تعرض لها زعماء حركة إبريل سنة ١٩٤١ . وهناك شخصيات ثانوية كثيرة لقيت حتفها دون محاكمة .

---

(١) Longrigg p. 302 s. q.

أما فيما يتعلق بالسياسة الخارجية فإن أبرز ما قامت به حكومة السعيد هو إعلان الحرب على المحور فى ١٦ يناير سنة ١٩٤٣ ، وبذا يعتبر العراق الدولة العربية الوحيدة التى أعلنت الحرب على المحور دون أن تضطرها إلى ذلك قرارات مؤتمر يالتا ، وكان من الواضح أن السعيد يريد من وراء هذا الإعلان أن يحقق طموح الهاشميين إلى زعامة الشرق العربى — فقد جاء فى أعقاب الكتاب الأزرق الذى تقدم به فى ديسمبر سنة ١٩٤٢ إلى رتشارد كيزى وزير الدولة البريطانى وعرض فيه مشروع الهلال الخصيب الذى يستهدف ضم سوريا إلى عرش الهاشميين فى بغداد . ولكن تحقيق الزعامة عن طريق الاعتماد على بريطانيا لم يكن يلقى نجاحا فى سوريا ولبنان .

ولقد كان تحرير هذين القطرين من أهداف حركة الكيلانى أيضا ، إلا أنها اضطرت إلى السكوت عنها لترقبها المساعدة من حكومة فيشى . وحينما جدد نورى السعيد المحاولة كان فى وضع مختلف . فالجيش العراقى قد فقد كثيرا من قوته نتيجة التدخل البريطانى . ولم يصبح بوسع نورى السعيد أن يدعى بأن العراق هو (بروسيا العرب) .

ومما هو جدير بالملاحظة أن إعلان الحرب تم بعد ابتعاد القتال عن ميادين الشرق الأوسط ولم يكن يسر بريطانيا أن تشرك العراق فى المجهود الحربى حتى لا تضطر إلى تدريب أى جيش عربى وتثير بذلك سخط اليهود . بعبارة أخرى لم تنظر بريطانيا إلى حكومة نورى السعيد كحليف على قدم المساواة بل أرادت لها ألا تتخطى مركز التابع الذى يدور فى فلكها .

الفصل الثالث

استقلال سوريا ولبنان

(١)

كان وضع سوريا ولبنان مختلفا عن العراق أو مصر من حيث أن القطرين لم يتوصلا إلى إنهاء الإنتداب بعقد اتفاق من نوع المعاهدات غير المتكافئة ، إذ أن البرلمان الفرنسى رفض مشروع معاهدة على هذا النمط كان قد تم الاتفاق عليها مبدئيا فى سنة ١٩٣٦ .

وكان منطق السياسة الفرنسية هو أن تأزم الموقف الدولى فرصة للتراجع عن التقدم البسيط الذى حققته سوريا ولبنان نحو الاستقلال . وحتى من قبل وقوع الحرب رسميا عمدت فرنسا إلى تعطيل الدستور وألغت وزارتى الدفاع والخارجية الناشئتين وحولت الوزارات الأخرى إلى مصالح يرأسها مديرون تحت إشراف مستشارين فرنسيين . وكذلك عُطّل دستور لبنان وعُيّن مستشار فرنسى لرئاسة الدولة .

وبعد إعلان الحرب أوقفت جميع الأحزاب الوطنية . أما الحزب القومى السورى فقد اعتبر من أنصار النازية وذلك لوجود بعض التشابه فى العقائد السياسية وفى تشكيلات الشباب التى ألفها فى الثلاثينات ، ويقال إن أنطون سعادة كان لاجئا فى برلين عند قيام الحرب . أما الحزب الشيوعى السورى فكان فريدا من نوعه فى الشرق العربى حينذاك وكان يعتبر فرعا من الحزب الشيوعى الفرنسى ولذلك لم يُحلّ إلا عند ما حُلّ الحزب الرئيسى لأسباب تتعلق بالسياسة الداخلية الفرنسية .

وقد لفّقت السلطات الفرنسية تهمة بتدبير اغتيال مديرى المصالح الخمسة وذلك لتبرر القبض على بعض العناصر الوطنية ، وقدم نحو عشرين منهم للمحاكمة وصدرت أحكام بالسجن لمدد طويلة على بعضهم بينما صدرت أحكام الإعدام غيابيا بالنسبة للاجئين فى العراق . ولتنفيذ هذه السياسة العنيفة عينت فرنسا أحد العسكريين اليمينيين ليجمع فى سوريا بين السلطتين العسكرية والمدنية واختارت لذلك الجنرال مكسيم ويجان[١] . ولم يكن ثمة أى مبرر لهذا التشدد لأن سوريا ولبنان يقعان بعيداً عن ميادين القتال ولم تكن إيطاليا قد دخلت بعد الحرب .

إلا أن فرنسا لم تكن تكترث للرأى العام العربى بدليل أنها ضحت بلواء الاسكندرونة فى سبيل استرضاء تركيا على أمل أن تجتذب هذه الدولة إلى صف الحلفاء وهى صاحبة أعظم قوة عسكرية حينذاك فى الشرق الأوسط ، ثم أجبرت حكومة المديرين على توقيع معاهدة حسن الجوار مع تركيا فى مارس سنة ١٩٤٠ لتدلل بذلك على تسليمها بالتنازل عن لواء الاسكندرونة .

كان الشعب السورى إذن مضطرا إلى أن يقف موقفا سلبيا من الحرب ، وهكذا تمت التطورات الهائلة فى فرنسا بعد الهدنة دون أن يحدث تغيير يذكر فى أحوال سوريا الداخلية ، ولذا يرى المؤرخ نفسه مضطراً إلى أن يركز الحديث حول الصراع بين الفئات الفرنسية المتصارعة وبينها وبين بريطانيا من جهة أخرى إلى أن تحين ساعة عمل الشعب السورى واللبنانى ابتداء من سنة ١٩٤٣ .

أحدث توقيع الهدنة بلبلة شديدة لدى السلطات الفرنسية فى الشرق ، فإن سوريا ولبنان يقعان بعيداً عن منال المحور ، وباستطاعة السلطات الفرنسية هناك أن تستمر فى التعاون مع بريطانيا سيما وأن الجنرال ديجول انتقل

---

(١) انظر وصف هذه الإجراءات فى مذكرات ويجان :
Weygand, Rappelé au Service Vol, 3, p. 28 - 39.

إلى لندن ووجه من هناك نداءه التاريخى فى ١٨ يونيو سنة ١٩٤٠ داعياً الفرنسيين إلى نبذ الهدنة واستمرار القتال بجانب بريطانيا ، وكان الجنرال ويجان قد غادر البلاد منذ مايو وحل محله الجنرال متلهاوزر كقائد للقوات الفرنسية فى الشرق بينما استقل بيو بمنصب المندوب السامى ، وأبدى متلهاوزر ميله إلى استمرار التحالف مع بريطانيا مما شجع ويفل على القيام بزيارة خاطفة إلى دمشق فى نهاية شهر يونيو ، إلا أن الأحداث لم تلبث أن حولت متلهاوزر عن هذه الوجهة .

فقد أعلنت حكومة فيشى أن من أهدافها المحافظة على الامبراطورية ، ويعتقد كثير من الفرنسيين بحق أن الإنجليز وليسوا الألمان هم الذين يشكلون الخطر الحقيقى على كيان الامبراطورية ، ومن هؤلاء بيو المندوب السامى فقد وضح موقفه فى خطاب إلى الفيجارو سنة ١٩٤٩ قائلا . بأن أى تحالف مع بريطانيا فى الشرق كان سيؤدى فى النهاية إلى خدمة المصالح الامبراطورية البريطانية[1] . ومما حفز متلهاوزر على تغيير اتجاهه موقف كل من المقيم العام فى تونس ومراكش فقد أعلن كلاهما الولاء لحكومة فيشى الجديدة .

وفى أوائل يوليو تأزمت العلاقات بين بريطانيا وبين هذه الحكومة حينما تعرض الأسطول الفرنسى فى وهران لغارة من البحرية البريطانية فانقطعت العلاقات الدبلوماسية بين البلدين ، ولذلك كان على بريطانيا أن تحددُ موقفها من سلطات فيشى فى سوريا ولبنان سيما وأن موقع القطرين يؤثر تأثيراً مباشراً على مركز بريطانيا الحربى فى الشرق الأوسط وإذا تسللت إليهما القوات الألمانية فإن ذلك سيجعل مصر وقناة السويس بين فكى كماشة محورية . ولهذا الغرض أصدرت الحكومة البريطانية فى ٢ يوليو التصريح التالى « تسجل الحكومة البريطانية إعلان متلهاوزر القائد العام الفرنسى فى المشرق بأن الحرب قد انتهت فى سوريا . وهى ترى

(١) Kirk p. 82.

أن ذلك لا يعنى أنه فى حالة ما إذا فكرت كل من إيطاليا أو ألمانيا فى احتلال سوريا أو لبنان وحاولت ذلك رغم اعتراض القوات البحرية البريطانية فإن القوات الفرنسية لا يجوز لها أن تقف جامدة دون محاولة مقاومتها .

ولإزالة الشكوك التى قد تثار من أى الجهات تعلن الحكومه البريطانية إنها لن تسمح باحتلال سوريا ولبنان بواسطة أية دولة معادية أو أن تستخدم كقاعدة للهجوم على أقطار الشرق الأوسط التى تقع على بريطانية مسئولية الدفاع عنها أو أن تصبح مركزا للاضطرابات يشكل خطرا على هذه الاقطار . ولذلك فإن بريطانيا تعتبر نفسها حرة فى اتخاذ أية اجراءات لمواجهة هذه الحالة للدفاع عن مصالحها . وإن أى عمل يتخذ لتحقيق هذا الغرض لن يكون له أى تأثير فى المستقبل على الوضع السياسى لهذه الأقاليم الواقعة الآن تحت الانتداب الفرنسى[1] »

وبمضى الوقت كانت العلاقات تزداد سوءا بين بريطانيا وبين سلطات حكومة فيشى ، فأقفلت الحدود بين سوريا ولبنان من جهة وبين الأقطار الخاضعة للنفوذ البريطانى والمحيطة بها من جهة أخرى ، وقد أضر ذلك بالاقتصاد السورى إضرارا بالغــاً . وشغلت السلطات الفرنسية بإبعاد الأشخاص المعروفين بميولهم الإنجليزية ، وانعكس ذلك على السياسيين السوريين أيضاً ، فقد غضت السلطات الفرنسية ، أثناء التحالف مع بريطانيا ، الطرف عن عبد الرحمن شاهبندر وغيره من الساسة الذين كانوا ينادون بإقامة ملكية دستورية واعتبروا لذلك أصدقاء للانجليز على أساس أن هذه الملكية ستؤدى إلى نوع من الاتحاد مع العراق أو الأردن ، ولذلك نشأ احتمال قوى بأن يكون لحكومة فيشى صلة باغتيال شاهبندر فى صيف ١٩٤٠ ولو أن السلطات الفرنسية عمدت إلى تغطية موقفها باعدام

(١) نقلا عن Hourani p. 232.

عدد من الأشخاص أخذوا جزافا ليكونوا كبش الفداء . ومما زاد العلاقات توترا مجيء لجان الهدنة التابعة للمحور إلى سوريا ولبنان فى سبتمبر ١٩٤٠ ، وكان هدف تلك اللجان هو التحقق من الإفراج عن رعايا الألمان والطليان الذين قبض عليهم عند قيام الحرب وكذلك رفع إجراءات الحراسة التى اتخذت ضدهم ثم كان على تلك اللجان أن تتحقق من أن حكومة فيشى لاتتخذ من المستعمرات قاعدة لزيادة قواتها العسكرية فوق ما تسمح به الهدنة . وتلا هذه اللجان تردد بعض الشخصيات الألمانية على سوريا وكان بعضها يمثل رجال الأعمال ، أما فى أوائل ١٩٤١ فقد وفد على دمشق مندوب من وزارة الخارجية الألمانية هوالفون أو توهنتج الذى عين وزيرا مفوضا فى العاصمة السورية ، وكان هنتج معروفاً بنشاط سابق فى الشرق الأوسط إبان الحرب العالمية الأولى حتى لقب باللورنس الألمانى .

وفى دمشق جمع هنتج حوله بعض الزعماء التقليديين واستخدم موضوع الوطن القومى لليهود فى فلسطين كوسيلة لاجتذاب عواطف الناس نحو المحور، ويقال إنه روّج لفكرة عقد مؤتمر إسلامى فى دمشق لبحث هذه القضية ولم يكن يسر السلطات الفرنسية هـذا التسلل الألمانى إلى المستعمرات لأن سياسة فيشى هى المحافظة على الإمبراطورية ضد الأطماع الألمانية والبريطانية معاً ، ولذلك طلبت إبعاد هنتج عن البلاد واستجابت ألمانيا لهذا الطلب بعد شهرين من تعيينه .

هل كانت لهذه الدعاية الألمانية صلة بالتغيرات التى طرأت على سياسة فيشى إزاء الحركة الوطنية السورية قبيل خروجها من سوريا ولبنان ؟ الواقع أن هذا النشاط الألمانى لايمثل سوى عامل ثانوى من عوامل التغيير ،أما العوامل الرئيسية فترجع إلى الصراع الذى دار بين حكومة فيشى وحكومة فرنسا الحرة فى المستعمرات مما جعل الفريقين يتسابقان على اكتساب ود

الوطنيين ، وأهم من ذلك تجدد نشاط الزعماء السوريين فى أوائل ١٩٤١ . إذ عاد شكرى القوتلى من المنفى وبدأ يتزعم حركة المعارضة .

وكانت الأزمة الاقتصادية تزيد من عوامل السخط على السلطات الفرنسية، فبالإضافة إلى الحصار الذى حرم سوريا من الإتجار مع الأقطار المحيطة بها انخفض سعر الفرنك انخفاضاً كبيراً فى سنة ١٩٤٠، وذلك لأن بريطانيا كانت قد حددت له سعراً مجزياً بالنسبة للاسترلينى فى بداية الحرب فلما انقطعت التجارة مع الأقطار المحيطة بسوريا والتى ترتبط بمنطقة الاسترلينى حدث هذا الانخفاض وفقد التجار ثقتهم بالعملة الورقية التى يصدرها بنك سوريا ولبنان وهو مؤسس برءوس أموال فرنسية .

وبالرغم من أن سوريا تصدر القمح للاقطار المجاورة فإن كبار الملاك رفضوا أن يبيعوا القمح بالسعر المخفض وأصروا على بيعه بالعملة الذهبية ومن هنا انتشرت السوق السوداء نتيجة جشع المـلاك والتجار الذين اختزنوا القمح[1] وهددت سوريا المجاعة ، ولدى السوريين عقدة من هذه الناحية ترجع إلى أيام الحرب العالمية الأولى ولذلك فإن المظاهرات التى عمت المدن السورية فى أوائل ١٩٤١ كانت تنادى « نريد الخبز والزيت والسكر » وقد عجزت السلطات الفرنسية تماماً عن مواجهة الأزمة وعرضت أن تشترى القمح بسعر العام السابق إلا أن الملاك امتنعوا عن بيعه وآثروا اختزانه فالتجأ المندوب السامى الجنرال دنتز إلى شكرى القوتلى ليعينه على مواجهة الأزمة ويبدو أنه لاحظ صعود نجمه فى أوساط الكتلة الوطنية.

ورأى القوتلى فى هذه الظروف فرصة لاتعوض للتذكير بالمطالب الوطنية وهى إلغاء نظام المديرين وإعادة العمل بالدستور وإجراء انتخابات حرة حتى تتسلم الحكومة التى تعبر عن الإرادة الشعبية السلطة من يد الانتداب

(١) انظر وصف الحالة الاقتصادية فى Kirk p. 88

وقد نفّذ دنتز بعض هذه المطالب فى أضيق نطاق (أوائل ابريل ١٩٤١) فدعا خالد العظم إلى تكوين مجلس وزراء ، وينتمى خالد العظم إلى كبار الرأسماليين الذين لا يمثلون حزباً سياسياً معينا ولذلك اختار وزراءه من رجال الأعمال والفنيين ولم تشترك الكتلة الوطنية فى الوزارة الجديدة . واعتذر دنتز عن إجراء الانتخابات النيابية أو رفع الرقابة عن الصحف والحريات العامة بسبب ظروف الحرب ، وأبدى استعدادا لتعيين مجلس دولة يتولى السلطة التشريعية . وقد أجاب الوطنيون على ذلك بأن الحرب انتهت بالنسبة لفرنسا كما أن حكومة فيشى قد انسحبت من العصبة والانتداب هو من الأنظمة التى وضعتها تلك الهيئة .

(٢) تدخل الحلفاء ١٩٤١

اتخذت السياسة البريطانية موقف الحذر ، نحو المستعمرات الفرنسية، وذلك حتى لا تجر حكومة فيشى إلى الحرب بجانب الألمان . على أن تلك السياسة لم تمنع بريطانيا من مساعدة ديجول للاحتفاظ بالمستعمرات التى اختارت الانضام إليه فى أفريقيا الاستوائية أو تأييده سراً لانتزاع مستعمرات أخرى بقوات فرنسية محضة . وقد قام ديجول بتجربة من هذا النوع للاستيلاء على دكار فى سبتمبر ١٩٤٠ وكانت النتيجة هى الفشل الذريع وانكشاف عدة جواسيس بين أتباعه يعملون لحساب فيشى وقد هز هذا الحادث ثقة بريطانيا بحكومة فرنسا الحرة فتوقفت عن فكرة مساعدتها للاستيلاء على دولتى المشرق « سوريا ولبنان »وكان هذا العمل هو الخطوة التالية فى حالة نجاح حملة دكار .

لم يتوقف نشاط الفرنسيين تماماً فى الشرق الأوسط ،فقد عينت حكومة فرنسا الحرة الجنرال كاترو مندوبا لها فى القاهره وأخذ يجمع شتات الجالية الفرنسية فى مصر وفلسطين ليكون منها جيشاً صغيراً يمكن استخدامه

يوما ما لانتزاع سوريا ولبنان من يد حكومة فيشى . ومما يجدر ذكره فى هذه المناسبة أن الحكومة المصرية كانت تقدم كثيرا من التسهيلات لأنصار الجنرال ديجول حتى من قبل أن تقطع صلاتها الدبلوماسية بحكومة فيشى كما يدل على ذلك خطاب شكر من الجنرال إلى حسين سرى فى إبريل ١٩٤١[1] ويبدو أن الفرنسيين كانوا يواجهون احتمال تدخل بريطانى منفرد أو بالاشتراك مع تركيا فى حالة تسلل المحور إلى سوريا ولبنان، ويعتقدون بأن تركيا ستنتهز هذه الفرصة لتحقيق أطماعها فى ضم جزء من حلب علاوة على الاسكندرونة التى تم الاستيلاء عليها منذ قليل . وكانت التعليمات الموجهة إلى كاترو هى ضرورة إشراك فرنسا الحرة فى أية حملة من هذا النوع ولو بقوات رمزية .

ومن جهة أخرى قام كاترو بعدة محاولات للاتصال سراً بالجنرال دنتز قائد قوات فيشى فى المشرق كما حاول إغراء بعض الضباط والموظفين للانضمام إلى حركة الجنرال ديجول إلا أنه لم يوفق فى هذه المساعى ولم تحدث سوى حالة واحدة فى الجيش نتيجة هذا النشاط وهى تحول الكولونيل كوليه مع فرقة الفرسان الشراكسة المرابطة جنوب سوريا إلى فرنسا الحرة لذلك استقر رأى كاترو على أنه فى حالة تفكير جدى للاستيلاء على سوريا ولبنان فلابد من معونة بريطانية صريحة[2] أخذ ديجول منذ شهر مارس ١٩٤١ يلح على إنفاذ حملة مشتركة ويُغرى بريطانيا بأن قوات فيشى لن تقاوم جديا لأن كثيرين من الفرنسين سيستجيبون لندائه ، إلا أن بريطانيا لم تلب هذه الرغبة إلا بعد أن أملت الضرورات العسكرية عليها النظر فى فتح جبهة جديدة فى الشرق الاوسط ، وقد نتجت هذه الضرورة عن انسحاب الإنجليز من اليونان واحتمال نزول الألمان إلى سواحل سوريا ولبنان أو على الأقل استخدام قواعد هناك لتهديد قبرص ، يتضح ذلك من الاستفسار الذى وجهه قنصل بريطانيا العام

---

(١) De gaulle Mémoires Vol. 1. p· 379.

(٢) خطاب من كاترو الى ديجول بتاريخ ٨ ديسمبر ١٩٤٠ .
Degaulle Mémoires Vol. 1.p. 369

فى دمشق إلى الجنرال دنتز حول احتمال استخدام الألمان لهذه القواعد فى قبرص فأجاب القائد الفرنسى بأن سياسة حكومته هى الحياد .

وكانت خطة الحملة قد وضعت بصورة مبدئية فى ٢٥ أبريل ، إلا أن كثرة أعباء القيادة البريطانية فى الشرق الأوسط وتعدد جبهاتها جعلت الجنرال ويفل يهدد بالاستقالة إذا فتحت جبهة أخرى فى سوريا ولبنان . ولذلك يقال إن بعض الجهات فى لندن وفى دوائر فرنسا الحرة تعمدت المبالغة فى التسلل الألمانى وفى المساعدات التى قدمتها حكومة فيشى لحركة رشيد عالى الكيلانى حتى تقنع السلطات العسكرية البريطانية بالحملة وقد بلغ استياء الجنرال ديجول من تجاهل البريطانيين إلى حد أنه طلب إلى الجنرال كاترو سحب جميع قواته من الشرق الأوسط والارتداد إلى افريقيا الاستوائية(١) ، ومما لا شك فيه أن أحداث العراق كان من شأنها أن تجر بريطانيا إلى التدخل حتى بدون تهديد الجنرال ديجول .

قد أشرنا من قبل إلى أن حكومة فيشى وقعت مع ألمانيا اتفاقا فى ٢١ مايو يسمح لها بتعزيز قواتها فى سوريا ولبنان وينص على حق الألمان فى استخدام المطارات الفرنسية هناك بقصد نقل المساعدات إلى العراق . وكانت الحكومة الفرنسية ترجو من وراء هذا الاتفاق تخفيف وطأة الاحتلال عن أراضى الوطن وإطلاق سراح بعض الأسرى ، وفضلا عن ذلك شجعت السلطات الفرنسية السوريين على التطوع للقتال بجانب الحركة العراقية ولم تعش ثورة العراق طويلا لكى تتبين مقدار صداها فى الأوساط الوطنية السورية . ويبدو أن الغالبية فضّلت انتظار الأحداث .

ومن الواضح أن الاتفاق جاء متأخرا بالنسبة لثورة العراق ، غير أن حكومة فيشى كانت قد أرسلت تعليماتها منذ ٩ مايو إلى دنتز بتقديم

(١) المصدر السابق Vol. 1 p. 399.

التسهيلات للسلاح الجوى الألمانى ، ويذكر القائد الفرنسى أنه نبّه حكومته على الفور إلى أن فتح المطارات قد يؤدى إلى تدخل بريطانى مضاد، ولم يمنعه ذلك التنبيه من تنفيذ التعليمات الصادرة من فيشى(١) وبالفعل تحققت نبوءته بعد قليل ، ففى ١٤ مايو ضربت الطائرات البريطانية مطار تدمر وفى ٢١ منه أعلنت الحكومة البريطانية فى مجلس العموم أنها ستضطر إلى التدخل طبقا لتصريح ٢ يوليو ١٩٤٠ .

ويروى دنتز أنه طلب إبعاد جميع العسكريين الألمان الذين وصلوا إلى سوريا خلال شهر مايو وذلك على أثر انتهاء حركة الكيلانى وكان هذا هو رأى حكومة فيشى أيضا . وسواء أكان هناك تسلل ألمانى على نطاق واسع أم ضيق فإن الحملة الانجليزية الفرنسية المشتركة أصبحت ممكنة فى أوائل يونيو من الناحية العسكرية بسبب الانسحاب من كريت والقضاء على ثورة العراق . وقد أصبحت سوريا محاطة بقوات بريطانية من الجنوب والشرق ، ثم أن أنصار التدخل كانوا يعولون على الاعتبارات السياسية فى دائرتين ، الدائرة الأولى احتمال تحول عدد من الفرنسيين إلى الولاء للجنرال ديجول ومن هذه الجهة لم يحقق الحلفاء نجاحا يذكر ، الدائرة الثانية هى كسب تأييد السكان الوطنيين لهذا التدخل على أساس أن الحلفاء سيعلنون إنهاء الانتداب عند بدء الحملة .

هل جاءت هذه السياسة الجديدة إزاء قضية سوريا الوطنية بضغط من بريطانيا أم أن حكومة فرنسا الحرة وافقت عليها مبدئيا وإن اختلفت فى التفاصيل ؟ أما الجنرال كاترو فيدعى أن تلك هى سياسة فرنسا الحرة وقد أفضى بها إلى ايدن وزير الخارجية أثناء التقائهما بالقاهرة(٢) بينما

(١) عرفت هذه التفصيلات من محاكمة الجنرال دنتز الذى حاول بهذه الطريقة أن يدافع عن نفسه كما أن جريدة لفيجارو نشرت تحقيقات خلال شهر أكتوبر ١٩٤٩ من حوادث سوريا ولبنان أثناء الحرب وذلك بتوجيه عديد من الأسئلة إلى الأشخاص الذين ساهموا فى تلك الأحداث .

(٢) Catroux p. 102

يستنتج من مذكرات تشرشل أن الحكومة البريطانية مارست ضغطا ماعلى فرنسا لإصدار هذا التصريح ، فقبيل انفاذ الحملة أرسل تشرشل إلى ديجول خطابا فى ٦ يونيو جاء فيه : بعد التمنيات بنجاح الحملة ، أرجو أن تكون مقتنعاً بأنا عملنا كل ما فى وسعنا لتأييد فرنسا الحرة ولا شك أنك تتفق معى على أن هذا الإجراء وغيره مما قد يتخذ فى الشرق الأوسط ، يجب أن يكون مبنيا على الثقة والتعاون المتبادل فيما بيننا ويجب علينا أن نتخذ موقفا موحداً من العرب وأنت تعلم أننا لا نسعى للحصول على أى امتياز فى الامبراطورية الفرنسية ولن نستغل لمصلحتنا حالة فرنسا السيئة ، وإنى أسجل عليك قرارك بأن تصدر وعدا باستقلال سوريا ولبنان وأرى أنه من الضرورى إعطاء هذا الوعد جميع الضمانات التى يستحقها ، ويجب أن لا تكون المسألة السورية سببا لاضطراب الأمن فى الشرق الأوسط وباستثناء هذا التحفظ ، الخاص بالأمن ، يجب أن نبذل ما فى وسعنا لإرضاء أمانى العرب واحترام مشاعرهم » .

وفى النهاية رجا تشرشل ألا يلقب كاترو بالمندوب السامى(١) .

وسواء أصحت الرواية الفرنسية أم الانجليزية فإن كاترو وجه التصريح التالى إلى سكان سوريا ولبنان يوم بدء الحملة فى ٨ يونيو « لقد أتيت لوضع حد لنظام الانتداب ولأعلن لكم أنكم أحرار ومستقلون وعلى هذا ستصبحون منذ هذه اللحظة شعوبا مستقلة ذات سيادة وسيكون لكم الخيار بين أن تؤسسوا لأنفسكم دولا مستقلة أو أن تنتظموا فى دولة واحدة وفى كلتا الحالتين سيؤكد استقلالكم وسيادتكم بواسطة معاهدة تحدد فيها علاقاتنا المتبادلة وسوف تبدأ المفاوضات حول هذه المعاهدة بين ممثليكم وبينى فى أقرب فرصة(٢) » .

---

(١) Churchill Vol, 3. p. 294

(٢) انظر نصه فى Hourani p. 371

وقد رأت الحكومة البريطانية أنها باصدار تصريح مماثل ستزيد من ثقة السوريين بقيمته. لذلك نشر السير مايلز لامبسون الإعلان التالى فى نفس اليوم « إننى مخول من قبل حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة أن أعلن أنها تعضد وتشترك فى تأكيد الاستقلال الذى أعطاه الجنرال كاترو باسم الجنرال ديجول لسوريا ولبنان » .

لم تحدث هذه التصريحات صدى يذكر فى حينها ، ويمكن القول بأن معظم أهل سوريا ولبنان وقفوا موقف المترقب وإن كان من المؤكد أن كبار التجار والملاك الزراعيين كانوا يرحبون باحتلال الحلفاء الذى سيعيد فتح أسواق الأقطار المجاورة ثم أن التصريح يشير إلى معاهدة لا يعرف السوريون ما وراءها . وإذن فإن الصراع كان أساساً بين سلطات فيشى وبين القوات الإنجليزية ووحدات فرنسا الحرة التى اشتركت معها .

وفى بداية الأمر لم تصادف قوات الحلفاء مقاومة تذكر حتى اقتربت من العاصمة السورية من جهة الجنوب . ويبدو أن سلطات فيشى لم تكن على علم بضآلة عدد القوات المهاجمة بينما كانت تحتفظ هى بنحو ٣٥٠٠٠ جندى. فلما تبينت قلة عدد قوات الحلفاء شنت هجوماً مضاداً ، وفى ١٦ يونيو استردت قنيطرة ومرج عيون واضطرت بريطانيا إلى إرسال تعزيزات جديدة لم تكن متوقعة .

وحينذاك قرر الجنرال دنتز أنه لابد من تأييد ألمانى إذا أريد الاحتفاظ بدولتى المشرق إلا أن أحداً فى فرنسا لم يكن يحب الاستعانة بالألمان فى المستعمرات واستقر الرأى على أن الألمان إذا دخلوا سوريا فلن يخرجوا منها . لذا طلب دنتز فى ٢١ يونيو التعرف على شروط الحلفاء لعقد الهدنة فأجيب بأنه سيسمح بترحيل الجيش الفرنسى مع جميع مظاهر الشرف العسكرى .

وفى أثناء المحادثات سقطت دمشق فى ٢٤ يونيو وتوسطت الولايات المتحدة للاسراع بالهدنة ولم يشرك الجنرال ديجول فى توقيعها لأن سلطات فيشى كانت تعتبره عاصيا ولذا فإن إشراكه فى المحادثات من شأنه أن يزيد الأمور تعقيداً. وأخيرا تم توقيع الهدنة فى عكة ١٢ يوليو ١٩٤١ وتتناول شروط الهدنة تنظيم العلاقة بين فيشى والحلفاء ولا يخص وضع السوريين سوى بند واحد وهو ألا تتتبع بريطانيا أحدا من أهل سوريا ولبنان ممن قاتلوا بجانب قوات فيشى .

وخلاصة الشروط الأخرى هى أن تحتل قوات الحلفاء سوريا ولبنان وتتمتع القوات الفرنسية بجميع امتيازات الشرف العسكرى ويطلق سراح الأسرى ويخير الجنود بين الرحيل إلى وطنهم أو الانضمام إلى وحدات فرنسا الحرة ، أما المواد الحربية فتسلم لبريطانيا ولن تمس قوات الحلفاء الموانى والمطارات ومستودعات الوقود . وفى بند خاص تعهدت بريطانيا باحترام المؤسسات الثقافية الفرنسية [1] .

(٣) النزاع الإنجليزى الفرنسى ونتائجه ١٩٤١ — ١٩٤٣

لاحظنا كيف أن الأزمات تعددت بين ديجول وبين الإنجليز حول مسألة المشرق حتى من قبل إنفاذ الحملة ، أما بعد الاحتلال المشترك فقد ازداد الصراع احتداما بين الفريقين واستفادت من ذلك الحركة الوطنية فى سوريا ولبنان فى نهاية الأمر . وقد ظهرت بوادر الخلاف يوم إصدار التصريح الخاص بالاستقلال إذ احتج ديجول على إصدار ضمان من جهة بريطانيا لأنه كان مفهوما أن الأخيرة ستترك تصريف الشئون السياسية لسلطات فرنسا الحرة وبناء عليه عُيِّن كاترو ، مفوضا عاما ، يوم احتلال

(١) انظر نص الهدنة Hourani p. 373 - 75

قوات الحلفاء لدمشق ، وقد أصدر الإنجليز بعد الهدنة تأكيدا بعدم التطلع إلى الحلول محل فرنسا فى أى جزء من امبراطوريتها بل أقرت بريطانيا بالدور التاريخى لفرنسا فى المشرق وبتفوق مصالحها فى الشئون الثقافية والاقتصادية . وكان ديجول شديد الاستياء لإبعاده عن مفاوضات الهدنة واتهم ويلسون القائد البريطانى فى سوريا ولبنان بأنه خدعه ولم يوضح له شروط الهدنة بصدق . وكان يعنى بذلك البند الخاص بتخيير الجنود بين الإنضمام إلى فرنسا الحرة . أو الرحيل إلى وطنهم . وقد فسرت حكومة فيشى بنود الهدنة على أساس أن تحتفظ الفرق بوحدتها .

أما ديجول فطالب بحق الاتصال بأفراد القوات المسلحة بصفة فردية ليكون الإغراء أيسر منالا ثم نشب خلاف حول اتصال بريطانيا بالعشائر فى منطقة الجزيرة وبالدروز . ومنعا لاتساع الخلاف تقرر عقد اتفاق بين سلطات فرنسا الحرة وبين القيادة البريطانية لتنظم العلاقات بينهما من جهة وبين قوات الاحتلال والسلطات المحلية من جهة أخرى ، وهذا هو الاتفاق الذى عرف باسم ديجول — ليتلتون . والأخير هو وزير الدولة البريطانى لشئون الشرق الأوسط الذى ابتدع منصبه منذ قليل .

وينص الاتفاق على تكوين منطقة عمليات موحدة فى دولتى المشرق ، ولما كانت القوات البريطانية أكبر عددا فهى تحتفظ بالقيادة العليا فى شئون الدفاع الخارجى وإن كان لابد من التشاور قبل اتخاذ أى إجراء فى جميع الحالات . أما فيما يتعلق بالأمن الداخلى فإن القوات الفرنسية هى المسئولية أولا . وذلك بصرف النظر عن عدد القوات الموجودة فى الإقليم .

كذلك تختص القوات الفرنسية بالخدمات العامة ويلحق مندوب بريطانى لدى قوات الشرطة وإذا حدث خلاف حول موضوع العمليات

يرفع إلى الحكومتين ، وقد انبع الاتفاق بخطابين متبادلين بين ليتلتون وديجول . أقر الأول لفرنسا بمركز ممتاز على الدول الأوربية الأخرى شريطة تنفيذ التعهد الخاص باستقلال سوريا ولبنان (١) .

ولد هذا الاتفاق ميتاً فبعد بضعة أيام اتهم كاترو الإنجليز بأنهم يدبرون مؤامرة مع الدروز للانفصال عن سوريا والانضمام إلى شرق الأردن وكأن المفوض العام الفرنسي يتشكك من العلاقات التاريخية التي ربطت بين هذه الطائفة وبين الإنجليز منذ القرن التاسع عشر . وقد دلت التجربة على أن فصل الشئون السياسية عن العسكرية مستحيل في ظروف الحرب . وفى سوريا كانت بريطانيا تشترك فى حل مشكلات التموين وتضمن العملة الورقية بالإسترليني حتى تعيد الثقة إلى التجار وهذه أمور تستدعى مشاركتها فى المسائل الإدارية وبالتالى السياسية .

لقد كانت السياسة الفرنسية تهدف فى الأشهر الأولى من الاحتلال إلى الاحتفاظ بجميع امتيازات الدولة صاحبة الانتداب حتى نهاية الحرب ، وإذن فإن الاستقلال الذى تضمنه تصريح كاترو لا يعدو سوى تغيير فى الشكل .

أما بريطانيا فكانت ترى أن إبقاء الوضع على ما هو عليه قد يثير القلاقل فى سوريا ولبنان ، وبالتالى يعرقل مجهود الحرب فلابد من إجراء تغيير فعلى مع احتفاظ فرنسا ببعض الامتيازات التى تتمتع بها بريطانيا مثلا فى مصر أو العراق ، وهكذا أصدر نشرشل تصريحاً فى مجلس العموم فى ٩ سبتمبر جاء فيه « أن سياستنا التى رخص بها واشترك فيها حلفاؤنا رجال فرنسا الحرة هى أن ترجع سوريا إلى الذين يجب أن يتمتعوا فى أقرب فرصة بحقوقهم فى الاستقلال والسيادة . ولا نرى أن يؤجل

---

(١) انظر نص الاتفاق فى Catroux p. 168 - 71 وكذلك Hurewitz Vol. 2 p. 231

إلى نهاية الحرب ذلك الإجراء الذى يهدف إلى إنشاء حكومة مستقلة ... إننا نفكر على الدوام فى زيادة نصيب السوريين فى الإدارة . وأن أحداً لا يفكر فى احتفاظ فرنسا بنفس الوضع الذى كانت تتمتع به فى سوريا قبل الحرب ، وهو الوضع الذى تحققت الحكومة الفرنسية نفسها من وجوب انتهائه ويجب ألا يظن أحد بأن المسألة لا تعدو حتى فى وقت الحرب مجرد احلال مصالح فرنسا الحرة محل مصالح فيشى (١) .

لم تحل نهاية شهر سبتمبر حتى أعلن كاترو قيام دولة سوريا فى ٢٨ منه ، ففسر البعض ذلك بأنه كان رضوخاً لتصريح تشرشل فى مجلس العموم ، على أنه يلاحظ أن الإعلان تضمن تأكيد للصفة الجمهورية للدولة السورية الجديدة مما يشعر بأن فرنسا بادرت إلى هذا الإعلان لكى تحول دون فكرة الهلال الخصيب التى تجدد الحديث عنها .

لم يعتبر السوريون هذا الإعلان تقدماً حقيقياً نحو الاستقلال . فقد اقترن التصريح بتعيين المفوض العام لرئيس الدولة الجديدة ، ومن المستحيل أن يسلم السوريون للمفوض الفرنسى بهذا الحق . ثم إن اختيار كاترو وقع على شخصية معروفة بولائها للاستعمار ونعنى بذلك تاج الدين الحسنى الذى سبق له أن تعاون مع الانتداب وقبل رئاسة الحكومة مرتين سنة ١٩٢٨ ، سنة ١٩٣٤ . وكان ذلك بمناسبة وقوع خلاف بين الانتداب وبين الحكومة الوطنية وامتناع الوطنيين عن قبول المناصب الوزارية .

وحتى فى الخارج تحفظت عدة دول ازاء الاعتراف بالنظام الجديد فى سوريا ولبنان وسنشير بعد قليل إلى أن تصريحا مماثلا صدر بإعلان قيام

---

(١) جمعت التصريحات البريطانية المتعلقة بسوريا خلال تلك الفترة ونشرت على شكل كتاب أبيض سنة ١٩٤٥ بعنوان :

Statement of Policy by His Majestys government in respect to Syria & the Lebanon.

دولة لبنان فى ٢٦ نوفمبر. فقد رفضت الولايات المتحدة الاعتراف بالدولتين الجديدتين لأنها لا تعترف أصلا بحكومة فرنسا الحرة. ولو أن كورديل هل حاول أن يوجد مبرراً آخر ليظهر بمظهر المدافع عن الديموقراطية فذكر أن الحكومة القائمة ليست نتيجة التعبير عن إرادة الشعبين السورى واللبنانى[(١)] ووقفت الحكومة المصرية موقفاً مشابهاً إلى حد ما، فذكرت أنها تعترف بالاستقلال ولكنها لا تعترف بالحكومة التى أقامها المفوض العام، كذلك امتنعت تركيا عن الاعتراف بدولتى سوريا ولبنان لأنها ما تزال تتبادل التمثيل الدبلوماسى مع حكومة فيشى باعتبارها الحكومة الفرنسية الشرعية كما امتنع العراق ولكن لسبب مختلف هو ترقب فرصة الهلال الخصيب .

وعلى العكس بادرت بريطانيا إلى الاعتراف بدولتى المشرق وعينت وزيراً مفوضاً لها لدى الدولتين هو السير أدوارد سبيرز الذى سيلعب دورا هاما فى توجيه الأحـــداث طوال فترة الحرب . وسواء أكان الفرنسيون قد أعلنوا قيام الدولتين بمجرد اختيارهم أم نتيجة ضغط بريطانى فقد كان من الضرورى اجراء تعديل على خطة كاترو نحو الحركة الوطنية. فقبل إعلان قيام الدولتين كان يريد ابقاء جميع امتيازات الانتداب ، أما الآن فهو يسعى إلى إعادة العمل بمشروع معاهدة سنة ١٩٣٦ التى كان السوريون قد قبلوها ورفض البرلمان الفرنسى المصادقة عليها . وفى سبيل تحقيق ذلك اتصل كاترو بهاشم الأتاسى أحد الزعماء القدامى للكتلة الوطنية وعرض عليه رئاسة الجمهورية وفى مقابل ذلك يعلن أنه قد تم اتفاق سرى على وضع معاهدة ١٩٣٦ موضع التنفيذ، وقد قبل الاتاسى مبدئيا العمل بالمعاهدة إبان فترة الحرب . ولكنه رفض أن يشترك فى مؤامرة مع الفرنسين ضد الحركة الوطنية[(٢)] .

---

(١) Hull Ménoires Vol. 2 p. 1054

(٢) Catrouxp. 183 s' q.

أصبحت المشكلة إذا خلال عام ١٩٤٢ تدور حول كيفية تكوين حكومة سورية وكان الوطنيون السوريون مايزالون يقفون موقف المتشكك من نوايا بريطانيا التى اظهرت تأييدها لاجراء إنتخابات حرة . ويرجع ذلك إلى ذكرى الحرب العالمية الأولى وإلى موقف الإنجليز المعروف من الصهيونية ، وسنحاول فيما بعد أن نفسر موقف الانجليز من قضية سوريا ولبنان ويكفى أن نشير الآن إلى أن ادوارد سبيرز ظل يلح على المفوض العام الفرنسى لإجراء انتخابات لجمعية تأسيسية على أن تختار هذه الجمعية رئيس الدولة بالطريقة التى تراها ، ويقال إن ديجول اشتط غضبا لكثرة إلحاح سبيرز وطاب إلى بريطانيا إبعاده عن البلاد ولكن الجنرال سينفى ذلك سنة ١٩٤٩ عندما تجرى جريدة الفيجارو تحقيقاتها حول هذه القضية[(١)] .

ومن المؤكد أن العلاقات بين فرنسا الحرة وبين بريطانيا توترت بسبب قضية سوريا فى صيف ١٩٤٢ حتى أن ديجول هدد مرة ثانية بالكف عن التعاون مع الانجليز والانزواء فى أفريقيا الاستوائية، وكان يشجعه على هذا التهديد صمود الفرنسين فى معركة بير حكيم بليبيا وقارن ذلك باستسلام البريطانين فى طبرق . وعلى كل فقد اتخذ كاترو من الحرب فى الصحراء الغربية وتقدم الألمان إلى العلمين فى ذلك الحين حجة لتأجيل فكرة الانتخابات فترة من الوقت واعتبر أنه بذلك حقق نجاحا شخصيا كبيرا لخدمة مصالح فرنسا الامبراطورية .

تبدلت الأوضاع فى أوائل سنة ١٩٤٣ فقد تدعم مركز فرنسا الحرة بعد الاستيلاء على شمال أفريقيا وتأييد تشرشل لتولى ديجول زعامة الفرنسين هناك وابتعدت ميادين القتال عن الشرق الاوسط فزالت الحجة التى طالما تذرع بها الفرنسيون لتأجيل الانتخابات ، وهكذا أصدرت جبهة التحرير الوطنى الفرنسية ، وهى لجنة تكونت حديثا واتخذت الجزائر

---

(١) Kirk. P. 116

مقرا لها ، قرارا فى ٢٤ يناير سنة ١٩٤٣ باجراء الانتخابات لجمعية وطنية فى كل من سوريا ولبنان .

(٤) الصدام فى لبنان

دخل النزاع فى سوريا ولبنان مرحلة جديدة بعد قرار إجراء الانتخابات . فخلال العامين السابقين ١٩٤١ ، ١٩٤٣ كان النزاع منحصرا أساسا بين الإنجليز والفرنسيين ، بينما وقف السوريون موقف المترقب ، يدل على ذلك أن شخصية مثل شكرى القوتلى وهو من الجيل الجديد فى الكتلة الوطنية فضل التغيب عن البلاد معظم تلك الحقبة . أما بعد تقرير الانتخابات فقد دخل الوطنيون فى سوريا ولبنان كطرف إيجابى ثالث فى النزاع الذى دار أساسا بين الفرنسيين والوطنيين واتخذ الانجليز موقف الوسيط الذى يسعى للتوفيق بين الطرفين وإن كانت بريطانيا قد استطاعت فى أكثر من مناسبة أن تفرض وساطتها نظرا لتفوق قواتها من الناحية العسكرية . وقد يبدو غريبا أن يقع الاشتباك بين الوطنيين والفرنسيين فى لبنان قبل سوريا وذلك نظرا للصلات التقليدية التى كانت تربط بين فرنسا وبين بعض العناصر فى لبنان .

وقد تجلى منذ إصدار التصريح الخاص بقيام دولة لبنان فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤١ كيف أن فرنسا تعوّل على صداقة لبنان كما كان الحال فى سنة ١٩٢٠ فجاء فى هذا الصريح ، أن فرنسا تتعهد بالمحافظة على سلامة لبنان ووحدة أراضيه وأنها ستضمن استقلال البلاد فى إطار مشروع معاهدة ١٩٣٦ تلك المعاهدة التى رحب بها اللبنانيون فيما مضى[1] . وقد اعتبر هذا

(١) انظر نص التصريح Hourani p. 378

التصريح فى حينه مناقضا لبيان ٨ يونيو الذى خيّر السوريين واللبنانيين بين إقامة دولة واحدة أو تأسيس دول مختلفة فهذا التصريح الجديد إذن يؤكد إنفصال القطرين وعلاوة على ذلك يقطع السبيل على اقليم مثل طرابلس كان معظم سكانه يتطلعون إلى الانضمام اسوريا فى حالة انفصال القطرين .

وكما حدث فى سوريا اختار كاترو رئيس الدولة فى لبنان ووقع إختياره على الفريد نقاش وهو من المعروفين أيضا باستسلامهم للفرنسيين ، وعمدت السلطات الفرنسية إلى إثارة التفرقة الطائفية كما كانت تفعل منذ عهد الانتداب ويبدو أن هؤلاء المسيحيين الذين كانوا يتطلعون فى السابق إلى حماية فرنسا فقدوا ثقتهم بها وعلقوا آمالهم بدول أخرى أعظم شأنا مثل بريطانيا أو الولايات المتحدة .

هذا مع العلم بأن حدة الطائفية قد خفت بانتشار الثقافة العصرية ولم يكن هناك إجماع من المسيحيين على ضرورة الاحتماء بدولة كبرى .

على أن الزعيمين اللذين كانا يتنافسان على زعامة لبنان فى هذه الفترة وهما بشارة الخورى واميل إدة اتفقا على مبدأ الكيان اللبنانى وكلاهما يمثل وجهة نظر الموازنة مع هذا الفارق وهو أن بشارة الخورى كان يرى أن الاحتفاظ بكيان لبنان لا يتعارض مع تعاونه مع الدول العربية فى نطاق محدود ، بينما أن إميل إدة كان يفهم أن الكيان اللبنانى يعنى إنعزاله تماما عن العالم العربى المحيط به ، لذلك كان يحظى بتأييد الفرنسيين وكانت مفاجأة شديدة الوقع على هؤلاء حينما كشفت الانتخابات عن فقدان هذا الفريق الأخير المؤيدين فى لبنان .

ومن الأسباب التي أفقدت فرنسا لقسط كبير من نفوذها في لبنان هو تمسكها بالسياسة العتيقة ، وخاصة بعد سحب الجنرال كاترو من منصبه كمفوض عام في دولتي المشرق وتعيين جان هيلو محله في أوائل سنة ١٩٤٣. وكان هيلو يعمل سفيراً لحكومة فيشي لدى تركيا فهو إذن من اليمين المتطرف. وبعد أن أعلن خروجه عن الولاء للماريشال بيتان كوفيء بتعيينه مفوضا عاما في سوريا ولبنان ، ولم يكن على إدراك صحيح بالتغيرات التي طرأت على المشرق العربي مثل سلفه الجنرال كاترو . فقد فكر الأخير في أن تتبع فرنسا أسلوبا جديدا يناسب العصر . وبدل أن تقف على طرف نقيض مع بريطانيا إزاء الحركة الوطنية تحاول أن تسابقها على اكتساب ود العرب وذلك بتأييد حركة الوحدة العربية على أن تكون دمشق هي محور هذه الحركة وليست القاهرة أو بغداد .

أما هيلو فكان يتصرف في المشرق وكأنه في إحدى المستعمرات الأفريقية التي لم تتطور بعد . وقد إستخدم النعرة الطائفية أسوأ إستخدام لكي يعطل سير الحركة الوطنية . ومهد لتنفيذ خطته بتعيين أيوب ثابت رئيسا للدولة وأوحى إليه بقانون انتخاب في يونيو سنة ١٩٤٣ يؤدي إلى إعطاء المسيحيين أغلبية في مجلس النواب لا تتفق وأهميتهم العددية . وبهذه الوسيلة أوشك بالفعل أن يثير أزمة طائفية لولا أن توسطت الحكومات العربية وجعلت الرئيس اللبناني يتراجع عن هذه المؤامرة . وانتهت المشكلة بحل وسط وهو تخصيص ٢٥ مقعدا للمسلمين ، ٣٠ للمسيحيين . وكان التوزيع السابق يعطي المسيحيين ٣٢ مقعد مقابل ٢٢ للمسلمين .

وعندنا أن توزيع المقاعد النيابية على أساس طائفي أمر غير مقبول في حد ذاته . ولكن لبنان الجبل ألف هذا النظام في جميع المجالس النيابية

منذ زمن طويل ، وللأسف استمر قائما حتى الوقت الحاضر . ولذا فإن عدد مقاعد مجلس النواب في لبنان لابد وأن يكون قابلا للقسمة على ١١ حتى تحفظ نسبة ٥ للمسلمين إلى ٦ للمسيحيين(١) تأخرت الانتخابات قليلا من جراء هذه المشكلة وحينما أجريت في شهر سبتمبر فاز أنصار الخوري بأغلبية كبيرة وهكذا انتخبه المجلس رئيسا للجمهورية واختار بشارة الخوري أحد المعروفين بميولهم العربية وهو رياض الصلح لكي يرأس الحكومة مما زاد السلطات الفرنسية سخطا على الوضع الجديد في لبنان .

وأخذ هيلو يتحين الفرص للتخلص من الحكومة القائمة وانتظر حتى طرح على مجلس النواب مشروع بتعديل الدستور فكان ذلك هو الشرارة التي انطلقت منها الأزمة اللبنانية المشهورة خلال شهر نوفمبر ١٩٤٣ .

كان التعديل المقترح ينص على إلغاء المادة الخاصة بتحديد امتيازات الدولة صاحبة الانتداب كما تضمن إضافة مادة تجعل الوظائف العامة الكبرى مقصورة على الذين يحملون الجنسية اللبنانية وجعل اللغة العربية لغة رسمية للبلاد ، كما وافق المجلس على تغيير شكل العلم اللبناني وكان مرسوما على هيئة العلم الفرنسي المثلث مع تمييز بسيط وهو توسط شجرة الأرز للعلم . اعترض هيلو على حق البرلمان في تعديل الدستور إذ أن الاستقلال لن يتكامل إلا بعد عقد معاهدة مع فرنسا كما جاء في التصريح الخاص بقيام الدولة اللبنانية . وفي هذا التفسير كثير من التحايل . وعلى كل فقد مضى المجلس في بحث التعديل ورفض حتى مجرد التأجيل إلى حين عودة المفوض العام من الجزائر حيث ذهب للتشاور مع جبهة التحرير الوطنية الفرنسية .

---

(١) انظر عن هذه المشكلة
Rondot, les institutions politiques au liban.

وقد اختلفت الآراء هناك حول الموقف الذى يجب اتخاذه إزاء الحكومة اللبنانية ، فنصح كاترو بعدم إستخدام القوة بينما أيد ديجول المفوض العام فى استخدام العنف إذا أصرت الحكومة على موقفها[1] . ووافقته غالبية الجبهة .

هكذا بادر هيلو بعد عودته إلى بيروت إلى اعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء مع معظم أعضاء حكومته ماعدا اثنين استطاعا الفرار إلى الجبل حيث وجها الدعوة لتأليف جبهة وطنية للمقاومة بينما عرض هيلو على إميل إدة رئاسة الجمهورية .

أثار هذا الحادث ضجة دولية كبرى بالإضافة إلى بوادر مقاومة مسلحة أخذت تظهر فى لبنان . وقد أعلن تشرشل أن هذا الصدام يؤثر على منطقة العمليات فى الشرق الأوسط وأنه يسىء إلى العلاقات مستقبلا بين بريطانيا وفرنسا الحرة ، وكان روزفلت فى طريقه إلى مؤتمر طهران فعبّر عن وجهة نظر مشابهة . وكما كان يحدث دائما فى مثل هذه الأحوال أعلنت بريطانيا أنها لا تهتم إلا بالضرورات العسكرية وأن موقفها لا يعنى قط وجود أطماع فى أن ترث فرنسا بالمشرق .

وعندما شعرت جبهة التحرير الفرنسية باتساع الأزمة أوفدت الجنرال كاترو علّه يستطيع أن يصلح ما أفسده هيلو . على أن كاترو إذا كان يختلف مع المفوض العام إزاء استخدام القوة فهو يتفق مع جميع الفرنسيين على أنه ليس من حق بريطانيا أن تتدخل فى النزاع القائم بين فرنسا وبين الوطنيين فى لبنان أو سوريا .

(١) Catroux P. 402

وقد عرف كاترو من سبيرز أن بريطانيا وجهت انذاراً شفوياً إلى السلطات الفرنسية فى ١٧ نوفمبر دعت فيه إلى الافراج عن الزعماء اللبنانين وإلا اضطرت إلى استخدام القوة[1] وقد احتج كاترو بشدة على هذا الإنذار وسأل بأى حق تفعل بريطانيا ذلك ، فأجاب سبيرز بأن بلاده قد ضمنت استقلال دولتى المشرق وترى أن حل هذه المشكلة يمكن أن يتم بمحادثات دولية تشترك فيها الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بجانب ممثلى الشعبين السورى واللبنانى. وانتهز كاترو هذه الفرصة ليذكّر محدثه بأن بريطانيا سبق لها وأن اعتدت على سيادة دول مستقلة فى الشرق العربى دون أن يتدخل أحد كما فعلت فى مصر يوم ٤ فبراير وعندما طال الجدل وجه ويلسن انذاراً بأنه إذا لم يتم الافراج عن الزعماء اللبنانيين فإن بريطانيا ستضطر إلى إعلان الاحكام العرفية . فحاول المبعوث الفرنسى المساومة واقترح الإفراج عن بشارة الخورى على أن يكون مجلس وزراء جديد لا يشترك فيه رياض الصالح، فرفض البريطانيون الفكرة وإن كانوا قد أبدوا استعداداً لتأجيل انعقاد مجلس النواب فقط وسيرفض بشارة الخورى هذه الفكرة بدوره بعد الافراج عنه ولما عجز كاترو تماماً عن إيجاد حل وسط كتب إلى ديجول فى مقره بالجزائر يقول « إنه ليس لبريطانيا الحق فى إعلان الاحكام العرفية أو فى توجيه الإنذار ومع ذلك فمن الأفضل أن يتم الإفراج عن المعتقلين بواسطتنا على أن نتعرض لضغط القوات البريطانية[2] » ، وقد أجابت جبهة التحرير الفرنسية بالموافقة على هذه الإجراءات وإن كانت قد نبهت إلى أنه يجب على البرلمان اللبنانى ألا يتخذ قرارا مضادا للانتداب لأنه لن ينتهى إلا بعد عقد المعاهدة .

(١) انظر وصف هـذه الأزمة من وجهة النظر البريطانية فى الـكتاب الذى وضعه قائد القوات البريطانية فى سوريا ولبنان أرنولد ويلسن . WilsonP. 184 s.q

(٢) خطاب من كاترو إلى ديجول فى ٢٠ نوفمبر de Goulle memoires vol 2.P.600

ولم يكن ذلك التنبيه إلا محاولة لانقاذ ماء الوجه إذ ليس بوسع فرنسا فى هذا الوقت أن تفرض سياستها بالقوة . وبعد عودة الحكومة اللبنانية إلى وضعها السابق كتب بيير فيينو أحد المختصين بشئون المستعمرات يفسر موقف بريطانيا قائلا أنها أرادت بذلك استرضاء العرب وهذا نوع من اللعب بالنار وربما تكون قد فعلت ذلك اعتقادا بأن هيلو تصرف من نفسه كما يمكن أن يفسر موقفها بالاستياء من التشكيل الجديد لجبهة التحرير الوطنية الفرنسية إذ دخلتها عناصر تمثل اليسار(١) .

أدت هذه الأزمة إلى عزل هيلو عن منصبه وبذا يمكن للسلطات الفرنسية أن تلصق باسمه الهزيمة التى لحقت بها . غير أن هذه الخطة لم تعد إلى فرنسا هيبتها فقد أعيد تشكيل الحكومة اللبنانية بالوضع الذى كان قائما قبل الأزمة ، واستأنف مجلس النواب اجتماعاته دون أن يؤجل ، ولم تجد فرنسا بداً من تسليم السلطات إلى الحكومتين السورية واللبنانية بعد أن فشلت تماما خطة الاعتماد على لبنان .

(٥) الصدام فى سوريا

تفوقت الكتلة الوطنية فى الانتخابات النيابية التى جرت فى سوريا خلال صيف ١٩٤٣ م وليست الكتلة الوطنية حزبا دقيق التنظيم بل هو أشبه بجبهة مؤتلفة وقد برز دور الجيل الجديد فى الكتلة الذى يتزعمه شكرى القوتلى وحل بذلك محل هاشم الاتاسى فى زعامة الكتلة وصار المرشح الوحيد لرئاسة الجمهورية .

ويركز الكتاب اليساريون الفرنسيون على الصفة البورجوازية للكتلة

(١) انظر خطاب فيينو بتاريخ ٢٤ نوفمبر .

de Goulle memoires vol. 2P 602

الوطنية السورية ، ويفسرون بذلك التقارب بينها وبين بريطانيا . وحقيقة الأمر أنه لم يكن هناك تقارب مُدبر ، أما الصفة البورجوازية فأمر مُسلم به ، إلا أن المفاهيم الطبقية لم تكن تؤثر تأثيرا ظاهرا فى الحياة السياسية آنذاك ومن . ثم لعبت الكتلة دورها فى السير بسوريا نحو الاستقلال ، وقبل اليساريون الوطنيون هذا الدور كمرحلة .

ومنذ بدء المفاوضات بين الحكومة السورية وبين السلطات الفرنسية تبين اتساع الخلاف فى وجهات النظر ، فذكر المفوض الفرنسى أن الانتداب يعتبر قائما ولا يمكن إلغاؤه إلا بعقد معاهدة على نمط المعاهدات التى تربط بريطانيا ببعض الدول العربية . كما أن الانتداب صدر عن عصبة الأمم ولا يمكن إلغاؤه إلا بعد قيام منظمة دولية أخرى تحل محلها . وفنّد السوريون هذه الحجج بشدة فذكروا أن الانتداب غير صحيح منذ البداية لأن أهل البلاد لم يستشاروا سنة ١٩٢٠ طبقا لنظام العصبة ثم أن حكومة فرنسا الحرة ليست استمرارا للدولة التى عهدت إليها العصبة بالانتداب ، وليس هناك ضمان لتنفيذ المعاهدة إذا تم التوصل إلى اتفاق مع الحكومة المؤقتة الحاضرة .

لا شك أن الضربة التى تلقتها فرنسا فى نوفمبر ١٩٤٣ قد أضعفت من قدرتها على المساومة ، واضطرت إلى التخلى عن كثير من الاختصاصات للحكومتين الوطنيتين دون عقد المعاهدة مقدماً ، من ذلك مثلا إدارة شئون البدو ، والرقابة على الصحف ، وزالت الحجة القائلة أن الشئون المشتركة بين سوريا ولبنان مثل الجمارك يجب أن تتولاه السلطات الفرنسية منعا للخلاف ، كذلك سُلّمت إدارة المناطق التى كانت تتمتع بالحكم الذاتى مثل جبل الدروز وبلاد العلويين إلى حكومة دمشق .

وبقى موضوع تسليم الجند الخاص وهى قوات تتكون من عناصر

مختلطة كالشركس والأرمن بالإضافة إلى سكان البلاد الأصليين وكانت تتبع قيادة الجيش الفرنسى وتقوم بأعمال الشرطة وقدّر عددها آنذاك بـ ٢٥ ألفا . وقد طالبت الحكومة السورية بتسليم الجند الخاص إليها وكانت حقا بحاجة ماسة إلى هذه الفرق لتكون نواة جيشها الوطنى ولتواجه الأعباء المتزايدة بعد إلحاق منطقة العلويين وجبل الدروز ، وعلى أقل تقدير فإن الجند الخاص استخدم فى قمع الثورة السورية سنة ١٩٢٥ فلا يؤمن تركه بيد الفرنسيين حتى لا يستخدم مرة أخرى فى الصراع المرتقب أو أن يكون أداة للضغط أثناء المفاوضات . وقد سلمت فرنسا فى يونيو ١٩٤٤ فصيلة من الجند الخاص إلى الحكومة اللبنانية ولعلها كانت تقصد إلى إحداث تفرقة جديدة ولكن دون جدوى . أما فى سوريا فقد احتفظت به حتى وقع الصدام فى العام التالى .

ومن المعروف أن الأراضى الفرنسية قد حُررت من الاحتلال الألمانى خلال عام ١٩٤٤ واعترفت الدول بحكومة ديجول المؤقتة ، ولا شك أن هذا الوضع الجديد هو الذى جعل الجنرال يفكر فى التصلب من جديد إزاء قضية استقلال سوريا ولبنان ولكنه كان مخطئا فى هذا التصور فقد تحسن موقف القطرين العربيين خلال نفس الفترة من الناحية الدولية إذ اعترف باستقلالهما كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . وقد أعلنت الدولتان عند الاعتراف بالاستقلال أنهما ترفضان تفوق نفوذ أية دولة أوروبية فى سوريا ولبنان ، وإن كان دافع كل واحدة منهما مختلفا فالولايات المتحدة اتخذت هذا الموقف لأنها ليست بعد على علاقة طيبة بالحكومة الفرنسية المؤقتة ، والاتحاد السوفيتى لأنه كان يعارض نظريا سياسة مناطق النفوذ ، كذلك تأكد استقلال سوريا ولبنان اقتصاديا عن فرنسا فقد فضّل الوطنيون استمرار الارتباط بالاسترلينى حتى لا يتعرض النقد السورى للتقلبات الشديدة التى أصابت الفرنك فى هذه الحقبة .

وتتبين ملامح السياسة الفرنسية الجديدة من التصريح الذى أدلى به ديجول فى مؤتمر صحفى فى ٢٥ يناير سنة ١٩٤٥ إذ قال « كانت فرنسا أول دولة اعترفت باستقلال هاتين الدولتين اللتين لها فيهما مركز ممتاز يجب عليها أن تحافظ عليه . وأن فرنسا لمصممة على أن تمنح أصدقاءها السوريين واللبنانيين استقلالا حقيقيا ولكن التدخل الأجنبى هو الذى يزيد فى تعقيد هذه المسألة » .

أما جورج بيدو وزير الخارجية فهو يمينى متطرف ولذا كان تصريحه إزاء هذا الموضوع أشد صراحة فى معارضة الاستقلال التام فقال إن فرنسا مسئولة عن حفظ النظام فى سوريا ولبنان وأنها تدافع عن امتيازاتها بالقوة المسلحة التى تحت تصرفها وأرسلت تعليمات بهذا المعنى إلى المقيم الفرنسى العام فى المشرق[1] .

كانت فرنسا تطالب بعقد معاهدة تحتفظ لها بثلاث أنواع من الامتيازات : استقلال المؤسسات الثقافية ، واستمرار شركات الامتياز فى ممارسة نشاطها مع ضمان من الدولتين المستقلتين ثم الاحتفاظ ببعض القواعد الجوية والبحرية .

وكان مقررا أن تبدأ المفاوضات فى ١٩ مايو . غير أن الحكومة الفرنسية رأت أن تستخدم أسلوب التهديد قبل بدء المفاوضات وأخذت بعض التعزيزات تصل إلى بيروت منذ ١٥ مايو مما أثار احتجاج الحكومتين السورية واللبنانية وأدى إلى قطع المفاوضات .

والحق أن الأشهر السابقة لم تخل من وقوع مناوشات بين قوات الاحتلال وبين الوطنيين . فى لبنان احتكت القوات الفرنسية بالأهالى

---

(١) نقلا عن Kirk. P. 289

عندما نجح نائب مُوال للفرنسيين فصحبته قوات الاحتلال إلى البرلمان .
وفى فبراير ١٩٤٥ ثبت أن الفرنسيين كان لهم ضلع فى إثارة الاضطرابات بجبل العلويين مما أدى إلى حدوث توتر شديد بين الشرطة السورية وبين قوات الاحتلال .

وفى ١٩ مايو اتسع نطاق الصدام إلى حد لم يسبق له مثيل، وقد بدأ بإضراب عام احتجاجا على إرسال التعزيزات ثم حدث اشتباك حول محطة حماة ووقعت اصطدامات فى حلب وانتهى الأمر بقصف دمشق جوا فى ٢٩ مايو ١٩٤٥ ،وقدر السوريون ضحايا هذه الأحداث بنحو ٥٠٠ قتيل و١٤٠٠جريح ويقال أن الفرنسيين كانوا متأثرين بأحداث قسنطينة حيث وقعت انتفاضة كبرى بالجزائر وكانوا يربطون بين الثورات فى مختلف أجزاء الامبراطورية . وعلى كل لم تكن هذه هى المرة الأولى التى تضرب فيها دمشق بواسطة الطائرات الفرنسية فقد سبق أن استخدم نفس الأسلوب لقمع ثورة ١٩٢٥

إلا أن الظروف كانت مختلفة تمام الاختلاف؛ فرغم انتهاء الحرب فى أوربا فإن القوات البريطانية كانت ما تزال متفوقة فى المشرق ، ولذلك تعرضت فرنسا نتيجة هذا العمل لإنذار بريطانى يفوق بكثير فى أسلوبه وفى مضمونه إنذار نوفمبر ١٩٤٣ الذى وجه بمناسبة الصدام فى لبنان .
ففى ٣١ مايو أرسل تشرشل الرسالة التالية إلى ديجول : « إزاء الموقف الخطير الذى نشب بين قواتكم وبين دولتى المشرق ونشوب القتال العنيف بينهما آسف كل الأسف أن أبلغكم أننا قد أمرنا القائد العام فى الشرق الأوسط بأن يتدخل ليحول دون الاستمرار فى إراقة الدماء محافظة على الأمن فى منطقة الشرق الأوسط كلها وهى منطقة هامة للمواصلات التى تستخدم فى الحرب ضد اليابان . إننا تجنباً للاصطدام بين القوات البريطانية والفرنسية نطلب منكم أن تأمروا فى الحال القوات الفرنسية

بأن تكف عن إطلاق النار وأن تنسحب إلى ثكناتها وبمجرد وقف إطلاق النار ورجوع النظام إلى نصابه نكون مستعدين لأن نبدأ محادثات ثلاثية فى لندن » (١) .

لقد تفجرت هذه الأزمة لأن فرنسا اعتقدت بأن الظروف قد تغيرت بعد نهاية الحرب وأنها أصبحت قادرة على فرض سياستها بالقوة خلافاً لما كان عليه الوضع سنة ١٩٤٣ . ويقال إن ديجول ذهب إلى حد إرسال التعليمات إلى بينيه المفوض العام بمقاومة الإنذار ولكن بينيه وجد أن ذلك مستحيل .

وقد استخلص السوريون بدورهم من نهاية الحرب نتيجة أخرى مضادة وهى أن الظروف الجديدة تسمح لهم بالمطالبة بالاستقلال التام والجلاء وهو ما كانوا يسكتون عليه طالما بقى الصراع الدولى قائما .

إن النقطة الجديرة بالعناية فى هذه الدراسة هو تفسير موقف بريطانيا إزاء قضية استقلال سوريا ولبنان وقد تعددت التصريحات الخاصة بهذا الموضوع على ألسنة الساسة البريطانيين فى مجلس العموم . ومن أشهرها تصريح مطول لرئيس الوزراء فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٤٥ وهو يرى أن لفرنسا مركزا متفوقاً بحكم التاريخ والثقافة والعلاقة التقليدية ولا يسلم بالتعارض بين وجود مركز متفوق وبين الاستقلال ولمح إلى أن مثل هذه الموضوعات المعقدة يحسن طرحها على مؤتمر الصلح ، كما أكد بأن بريطانيا لا تستطيع وحدها أن تتحمل مسئولية المبدأين الأساسيين اللذين وضعهما للقضية وهما احتفاظ فرنسا بمركز متفوق واستقلال سوريا ولبنان ولفت النظر إلى أن دول الحلفاء الكبرى قد اعترفت باستقلال سوريا

---

(١) نقلا عن سيتون وليامز « بريطانيا والدول العربية » ص ١١٦

ولبنان ولذا توقع أن يتوطد استقلالها بفعل سلطان الهيئات العالمية (١) .

والذى حدث هو أن بريطانيا تحملت وحدها المسئولية لمجابهة التدخل الفرنسى فى مايو ١٩٤٥ وإن كان كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى قد أبدى تأييده لموقف الوطنيين السوريين فما هو الدافع لاتخاذ بريطانيا هذا الموقف الحاسم ؟

أما الإنجليز فكانوا يعللون دائما موقفهم بالرغبة فى المحافظة على الأمن لأن الحرب فى الشرق الأقصى لم تنته بعد . كما أنهم تظاهروا بمراعاة مبادىء ميثاق الأطلسى الخاصة بحق الشعوب فى تقرير المصير وربما كان ذلك تبريراً للنزاع الخفى الذى ظل قائماً بين بريطانيا وفرنسا فى الشرق الأوسط رغم توزيع مناطق النفوذ .

ورغم أن الإنجليز كانوا ينفون دائماً أنهم يريدون أن يحلوا محل فرنسا فى سوريا ولبنان ،فمن المحتمل أنهم رسموا خططهم على أساس التسلل بواسطة نفوذ غير مباشر وهو إلحاق سوريا ولبنان بجامعة عربية يتمتعون لدى أغلبية أعضائها بالنفوذ .

وثمة عامل هام أغفله الكثيرون وإن كان فى رأينا قد أثر تأثيرا كبيرا على توجيه السياسة البريطانية وهو عدم الاطمئنان إلى مستقبل فرنسا السياسى . فقد دلت الانتخابات البلدية التى أجريت فى نهاية ١٩٤٤ على أن الشيوعيين يكتسبون نفوذا متزايداً فى فرنسا وقد حصلوا على نحو ٤٠٪ من المقاعد ولذلك كان يخشى أن يصلوا إلى السلطة عند إجراء الانتخابات النيابية بعد الحرب . وكانت بريطانيا حريصة على عدم وصول الشيوعيين بأى شكل إلى منطقة الشرق العربى . ومهما يكن فإن وجود احتلال ثنائى

(١) Churchill vol. 6.

خلال الحرب قد أفاد الحركة الوطنية فى سوريا ولبنان فى نهاية الأمر حتى أن هاتين الدولتين وصلتا إلى الاستقلال التام غير المقيد بمعاهدات قبل غيرهما من الدول العربية بفضل هذه الظروف الخاصة . وإذا كانت هذه النتيجة قد تحققت بعد انقضاء عام من نهاية الحرب فمن المفيد هاهنا أن نستكمل الموضوع بذكر الخطوات الرئيسية التى تمت فى هذا السبيل .

كان الفرنسيون يعارضون فى السابق إخراج قضية سوريا ولبنان عن كونها مسألة خاصة بهم ثم تحولوا بعد الكارثة التى حلت بهيبتهم فى مايو ١٩٤٥ إلى فكرة تدويل القضية وعرض بيدو وزير الخارجية أن يطرح موضوع علاقات الدول العربية المختلفة بكل من بريطانيا وفرنسا على الدول الخمس الكبرى أو الأمم المتحدة ، ورفضت الولايات المتحدة الفكرة بحجة أن هذا الموضوع معقد لا تتحمله المنظمة الدولية الناشئة . ورأت فرنسا نفسها مضطرة أن تزيل العقبة التى وقفت فى سبيل المفاوضات علها تستطيع أن تظفر ببعض الامتيازات من الحكومتين السورية واللبنانية . وبناء عليه أعلنت الحكومة الفرنسية فى ٨ يوليو أنها ستسلم الجند الخاص فى خلال ٤٥ يوما .

وإذن فقد صارت الفرصة سانحة للمطالبة بالجلاء دون الاضطرار ، كما حدث فى البلدان العربية الأخرى ، إلى عقد معاهدة غير متكافئة ، وعند هذا الحد اتسع نطاق الخلاف فأصبح يشمل كلا من بريطانيا وفرنسا إذ أن الأولى كانت توافق على الجلاء شريطة أن تقام هيئة دفاع مشترك للشرق الأوسط وكأن بريطانيا أرادت هى الأخرى أن تساوم على استقلال سوريا ولبنان بإقامة هذه الهيئة التى كان من شأنها أن تؤكد النفوذ البريطانى فى الشرق العربى . وقد وضحت بريطانيا سياستها الجديدة فى تصريح ١٣ ديسمبر ١٩٤٥ ومما جاء فيه « سينفذ برنامج الجلاء على نحو يضمن أن تبقى فى المشرق قوات كافية للمحافظة على الأمن حتى تقرر هيئة الأمم

المتحدة تنظيم أمن جماعى خاص بهذه المنطقة ، وإلى أن تنفذ هذه الترتيبات تحتفظ الحكومة الفرنسية بقوات يعاد تجميعها فى لبنان . على أن هذا التصريح لم يكن يعنى وجود إتفاق تام بين الدولتين المحتلتين فقد فهمت فرنسا أن بريطانيا ستنسحب من كلا القطرين بينما تبقى القوات الفرنسية وحدها فى لبنان . وأعلن الإنجليز أنهم لا ينوون الانسحاب وحدهم فى أى حال من الأحوال . ومرة ثانية استفادت كل من سوريا ولبنان من هذا الخلاف .

وعندما عرضت القضية على مجلس الأمن فى فبراير ١٩٤٦ تبين أن بريطانيا غير متمسكة بالاحتلال ، وعلى ذلك تحرج مركز فرنسا واضطرت إلى الخضوع لقرار أغلبية المجلس الذى كان يحض الأطراف المتنازعة على التفاوض للوصول إلى اتفاق على مبدأ الجلاء . مع ملاحظة أن الاتحاد السوفييتى استخدم حق الفيتو لتعطيل القرار إذ اعتبره غير كاف وأراد النص على الجلاء صراحة فى صلب القرار .

وفى ٤ مارس أعلن عن اتفاق بريطانيا وفرنسا على تحديد موعد للجلاء بالنسبة لسوريا أولا ثم فى لبنان . وتم الجلاء عن سوريا فى ١٧ ابريل سنة ١٩٤٦ وعن لبنان فى نهاية العام .

ومن الواضح أن فرنسا لم توافق على هذه السياسة إلا مرغمة ، ولم ينس ديجول قط لحلفائه الإنجليز أنهم قد نالوا من هيبة بلاده مرتين بسبب النزاع فى الشرق الأوسط .

ولا شك أن هذه الإحداث قد تركت رواسب فى نفس الزعيم الفرنسى حتى أنه يمكن القول بأن كثيرا من تصرفاته فى عهد الجمهورية الخامسة تعد تعبيرا عن رواسب الماضى الكامنة .

الفصل الرابع

إستغلال الصهيونية للحرب

— ١ —

استفادت الصهيونية مرارا من الاضطرابات الدولية ، ففى الحرب الأولى تمكنت من إستصدار وعد بلفور وكان مقصورا على مبدأ الوطن القومى لليهود فى فلسطين . حقيقة أعلن زعماء الصهيونية آنذاك أن مبدأ الوطن القومى لا يستثنى فكرة تأسيس دولة ولكنهم كانوا يحتاطون من ترداد عبارة دولة اسرائيلية حتى نشبت الحرب العالمية الثانية فتحولوا صراحة إلى المناداة بها وعمدوا مرة ثانية إلى إستخدام الاضطرابات الدولية لمصلحتهم .

وكانت الظروف الدولية أكثر مواتاة لهم فى الحرب الثانية ، إذ أن ألمانيا النازية بمبادئها العنصرية وإضطهادها لليهود فى أوربا جعلت منهم أصدقاء طبيعيين للحلفاء ، وصار انتصار هؤلاء يعنى كسبا محققا للصهيونية . وفى نفس الوقت واجه عرب فلسطين ملابسات مضادة لمصلحتهم فى بداية الحرب . فالانتداب البريطانى لم يترك مجالا لنمو الحكم الذاتى فى فلسطين لأن السياسة البريطانية كانت ترفض تسليم السلطات الفعلية إلى أهل البلاد طالما أن العرب هم أصحاب الأغلبية الساحقة ، ولذا لم يكن بوسع العرب سوى اللجوء إلى الثورة المسلحة وقد شهدت فلسطين أعنف الاشتباكات بين العرب وبين الانتداب البريطانى فى المدة بين سنة ١٩٣٦ ، سنة ١٩٣٩ .

وحينما وقعت الحرب كان معظم الزعماء العرب إما مشردين خارج البلاد أو معتقلين فى جزر بعيدة فى المحيط الهندى بعد أن أصدرت ضدهم المحاكم البريطانية أحكاما بالسجن لمدد طويلة .

وفى خلال هذه المدة كان أمين الحسينى هو أبرز الزعماء ويدير حركة الثورة من لبنان ، وقد أقام هناك فى قرية صغيرة قرب الحدود وأغمضت السلطات الفرنسية عنه العين لوجود تنافس خفى بين بريطانيا وفرنسا فى الشرق الأوسط رغم اتفاقات التقسيم التى رسمت خلال الحرب الأولى . وقد تحرج مركز الحسينى بعد قيام الحرب لأن فرنسا صارت حليفة لبريطانيا فى حرب عامة فأصبحت غير مستعدة للتغاضى عن وجود الزعيم الفلسطينى فى لبنان ، ولذا بادر إلى مغادرة البلاد والتجأ إلى العراق حيث رأيناه يقوم بنشاط سياسى واسع ويسعى للتقريب بين العرب وبين المحور . وقد اختلف معه معظم الساسة العراقيين أما هو فقرر بعد وقوع حركة الكيلانى أن يلقى بجميع ثقله مع المحور مما زاد مركز العرب فى فلسطين حرجا بعد انتصار الحلفاء . ولا يمكن لوم الحسينى على هذا الموقف لأنه بنى خطته على أساس المقامرة بانتصار المحور .

وقد استغلت الصهيونية هذه الملابسات للتنديد بالحركة الوطنية فى فلسطين . ولقيت نجاحا فى كثير من المجالات الدولية . وكانت المغالطة الكبرى هى وصف العرب بميول محورية لا شىء إلا لأنهم وقفوا موقفا عدائيا للصهيونية مثل ألمانيا النازية . وها هنا يجب أن نميز تمييزا تاما بين موقف العرب وبين موقف الألمان النازيين ، فالعرب أعلنوا عداءهم للصهيونية كفكرة سياسية دون أن تكون لديهم أية نزعة عنصرية . فلم يعادوا اليهود كأبناء جنس أو أصحاب دين معين وعلى العكس من ذلك شنت النازية حربها على اليهود على أساس عنصرى محض ، يدل على ذلك

أن مفهوم يهودى يعنى الجنس لا الدين فى غرب أوربا بصفة عامة ، لذلك نال الاضطهاد النازى هؤلاء الذين ينحدرون من أسر يهودية قديمة حتى وإن كانوا فى الأجيال التالية قد اعتنقوا الكاثوليكية أو البروتستنتية .

(٢) مغزى الكتاب الأبيض

من الشائع أن الحكومة البريطانية أصدرت الكتاب الأبيض فى مايو ١٩٣٩ بعد أن شعرت بتلبد الغيوم فى الموقف الدولى . فرأت أن تلجأ إلى طريقة تضمن بها هدوء الأحوال فى منطقة الشرق الأوسط باعتبار أن العرب هم غالبية السكان فى المنطقة . وهذا التفسير يعنى ضمنا أن الكتاب الأبيض يستجيب للامانى العربية وهذا بعيد عن الصواب ، غاية الأمر أنه خفف من تحيز الانتداب نحو الصهيونية .

ولا بأس من التذكير هاهنا بأهم محتويات الكتاب الأبيض رغم أن كثيرا من المراجع تناولته بالعرض والتحليل . يشتمل الكتاب على ثلاث نقاط رئيسية .

(١) التطور الدستورى : فيحدد مدة عشر سنوات كمرحلة انتقالية تسلم بعدها جميع السلطات لسكان فلسطين ، ويشترط قبل ذلك أن تتأكد بريطانيا من حسن العلاقات بين عنصرى السكان ! ! وأن تعقد معاهدة بين الدولة الجديدة وبين بريطانيا ، ويجب أن تتمتع كل جماعة بكيان مستقل فى الشئون الثقافية والاجتماعية والإدارية فى ظل الدولة الجديدة ، ولا يمكن إقامة هيئة تشريعية كاملة السلطات إلا بعد تحقق هذه الشروط ولكن يجوز تسليم سلطات أخرى أقل شأنا للهيئات المحلية[١] .

---

(١) انظر مضمون الكتاب فى Hurewitz Vol . 2 p. 218

(٢) حدد رقم نهائى للهجرة اليهودية إلى فلسطين وكان الإنجليز يرفضون من قبل تعيين أى رقم ، وحدد الكتاب الأبيض عدد المهاجرين فى السنوات الخمس التالية بخمس وسبعين ألفا ولا يجوز بعد ذلك قبول المهاجرين إلا بموافقة العرب وبعد التأكد من قدرة البلاد الاقتصادية على استيعابهم . ويتوقع واضعوا الكتاب الأبيض أن اليهود سيشكلون نحو ثلث السكان بعد وفود هذه الهجرة .

(٣) قسمت الأراضى إلى ثلاث مناطق[١] ، الأولى لا يجوز فيها انتقال ملكية الأرض من عنصر إلى آخر وفى المنطقة الثانية يوضع انتقال الملكية تحت إشراف سلطات الانتداب ، أما المنطقة الثالثة فيظل الباب مفتوحا فيها لشراء الأراضى وبيعها . وقد صدر قانون برلمانى فى فبراير سنة ١٩٤٠ يحدد المناطق الثلاث . وكشفت مناقشات مجلس العموم عن وجود معارضة شديدة للكتاب الأبيض فقد احتج كثير من النواب بأن المنطقة الحرة لا تتجاوز ٥ ٪ وأن اليهود يملكون غالبيتها العظمى بالفعل بينما أن المنطقة التى حظر فيها البيع تغطى ٦٣ ٪ من أراضى فلسطين .

لم يزل الكتاب الأبيض غموض فكرة الوطن القومى كما إدعى واضعوه فمثلا تحدث عن احتفاظ كل جماعة بكيانها مما يشعر بأن الكتاب لم يتخل عن سياسة التقسيم .

كما احتوى على المغالطة التقليدية وهى اعتبار اليهود أحد عنصرى السكان الأصليين .

---

(١) يفهم من ذلك ضمنا أن العرب كانوا يقبلون على بيع الأراضى وأن السلطات البريطانية هى التى أرادت التدخل للحد من ذلك وهذه قضية طال حولها الجدل بين الكتاب وليس هنا مجال بحثها .

والمكسب الوحيد الذى كان من الجائز أن يحققه العرب من وراء الكتاب هو تحديد رقم نهائى للهجرة اليهودية وهو ما كانت السلطات البريطانية ترفضه باستمرار وكان الوطنيون العرب علاوة على رفضهم الكتاب الأبيض يشعرون بأن بريطانيا غير جادة فى تنفيذ تعهداتها .

ومن الجائز أن تكون بريطانيا قد استهدفت من وراء هذا الكتاب إيجاد مبرر لأصدقائها فى الوطن العربى لكى يدعو للتعاون معها أثناء الحرب وقد رأينا فعلا كيف نادى نورى السعيد بهذا التعاون على أمل أن تصدق بريطانيا فى تنفيذ الكتاب الأبيض وتسلم السلطات إلى العرب فى فلسطين وهم ما زالوا بعد أغلبية .

وهكذا أحدث الإنجليز فرقة بين الزعماء العرب بين من سموهم بالمعتدلين والمتطرفين ولم يخف على كثير من الكتاب الأجانب أن إحداث الفرقة كان من بين أهداف الكتاب الأبيض[١] .

لا شك أن تحديد الهجرة كان من شأنه أن يثير سخط الصهيونية ، ولكن زعماءها أدركوا منذ البداية أن بريطانيا غير جادة فى تنفيذ الكتاب الأبيض يدل ، على ذلك تعليق بن جوريون على الموضوع بمناسبة قيام الحرب وضرورة تعاون اليهود مع الحلفاء . فقال لننظر إلى الكتاب الأبيض كما لو لم تكن هناك حرب ولننصر فى هذا الحرب بجانب الحلفاء كما لو لم يكن هناك كتاب أبيض .

والحق أن ممثلى السلطة العسكرية فى فلسطين لم يضعوا الكتاب موضع التنفيذ منذ البداية ، ثم كشفت المناقشات التى دارت فى مجلس

---

(١) Kirk p 232.

العموم بمناسبة قانون الأراضى عن وجود عديد من الأنصار للصهيونية فى بريطانيا وخاصة بين أعضاء حزب العمال . والصلة بين الصهيونية وبين فئات اليسار ظاهرة عامة فى أوربا الغربية وهى تدعو إلى كثير من الدهشة إذ أن لليهود نفوذا فى الدوائر الرأسمالية ولدى أحزاب اليسار والمنظمات التابعة لها كالنقابات والهيئات الثقافية فى نفس الوقت .

ويمكن تفسير هذه الظاهرة بأحد أمرين فإما أن يكون تنسيق مدبر بين اليهود لكى يستفيدوا من جميع الفئات وإما أن تكون الصهيونية قد استغلت نزعة اليسار إلى مبدأ العالمية . ومن المعروف أن أحزاب اليسار فى غرب أوربا لا تتعصب للكنيسة أو تتطرف فى نزعتها القومية ، ومن هنا يمكن اعتبارها صديقة لليهود نظرا لكونهم أقلية . وعلى صحة هذا الافتراض تكون الصهيونية غالطت اليسار مغالطة كبرى إذ أنها هى نفسها تستند إلى فكرة عنصرية .

لم تقتصر المعارضة على حزب العمال فقد برز تشرشل فى هذه المناسبة كنصير للصهيونية واختلف مع الحكومة المحافظة التى كان هو عضوا فيها وقال إن الكتاب الأبيض يتعارض مع المادة السادسة من قانون الانتداب الذى أقرّ تأسيس وطن قومى لليهود فى فلسطين . ولذا حينما تنتقل إليه رئاسة الحكومة البريطانية فى مايو سنة ١٩٤٠ سيوقف العمل صراحة بتعهدات الكتاب الأبيض .

وتختلف دوافع التحيز لدى تشرشل عن تلك التى دفعت حزب العمال إلى مؤازرة الصهيونية فها هنا تتدخل عوامل شخصية بحتة ، وتشرشل من هؤلاء البروتستانت الذين ينظرون إلى العهد القديم نظرة تقديس وقد قرّبه من اليهود كذلك الخصومة الشديدة للنازية وعرف زعماء الصهيونية فى الوزير البريطانى هذا الاتجاه فاتصل به حاييم وايزمان فى ديسمبر

سنة ١٩٣٩ ومايزال تشرشل بعد وزيرا للبحرية وعرض عليه مشروعا بإنشاء دولة يهودية فى فلسطين تتسع لأربعة ملايين مهاجر(١) ولم يكتف تشرشل بالموافقة على هذا المشروع بل أرسل وايزمان إلى الولايات المتحدة ليضع خبرته كعالم كيمائى فى خدمة الصناعة الحربية ولم يكن ذلك سوى سبب ظاهرى أما السبب الخفى فهو أن يؤدى دورا سياسيا ليساعد على جر الولايات المتحدة نحو التحالف مع بريطانيا .

(٣) دور الولايات المتحدة

وثق وايزمان صلاته بالرئيس روزفلت ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى تستخدم فيها بريطانيا نفوذ اليهود لاجتذاب الولايات المتحدة إلى التحالف معها فقد سبق أن استفادت بريطانيا من نشاط اليهود فى سنة ١٩١٧ إبّان الحرب العالمية الأولى ، فخرجت الولايات المتحدة فى هذا العام عن سياسة الحياد وقيل يومئذ أن وعد بلفور كان مكافأة للصهيونية على هذا العمل .

ولا نذهب إلى حد القول بأن اليهود هم الذين جروا الولايات المتحدة إلى الحرب الثانية سنة ١٩٤١ ، فإن السبب المباشر لدخول الولايات المتحدة الحرب ثابت من الناحية التاريخية وهو العدوان اليابانى على قاعدة بيرل هاربر ومع ذلك فقد كان لليهود تأثير قوى على حكومة الولايات المتحدة واشتد هذا التأثير بعد دخولها الحرب يدل على ذلك تدخلهم فى رسم الخطط الحربية ، فمن المعروف أن الولايات المتحدة كانت تريد أن تركز الجهود فى ميدان الشرق الأقصى ومن الراجح أن اليهود قد لعبوا دورا لتوجيه جزء كبير من الجهد الحربى الأمريكى نحو شمال افريقيا . وهى

---

(١) Weizmann, Naissance d'Israël p. 471.

الخطة التى كانت تلائم المصالح البريطانية وتخدم القضية الصهيونية فى نفس الوقت وكان أن تقرر غزو الجزائر والمغرب فى نوفمبر ١٩٤٢.[١] أن الحركة الصهيونية شعرت بتهديد كيانها حينما وصل الألمان إلى العلمين فكان يهمها إلحاق الهزيمة بهم فى تلك المنطقة قبل غيرها. وفى الولايات المتحدة أخذ وإيزمان يفصح عن اتساع الأطماع الصهيونية فهى لا تقتصر الآن على فكرة وطن قومى بل تريد تحويل فلسطين كلها إلى « كومنولث يهودى » وبرر وايزمان هذا التحول بأنه أصبح من المحتمل قيام اتحاد عربى يمتد من العراق إلى ليبيا وفى تلك الحالة سيتعرض الوطن القومى للذوبان وسط هذا المحيط العربى الكبير فلابد من توسيع نطاق هذا الوطن جغرافيا بحيث يشمل فلسطين بالمفهوم الذى حدده الانتداب أما معنى عبارة كومنولث فربما تقصد أن الدولة اليهودية المقترحة يمكن أن تكون لها روابط واهية مع الاتحاد العربى كنوع تلك الوشائج التى تربط أعضاء الكومنولث البريطانى .

وبينما كانت لندن تعتبر المقر الرئيسى للحركة الصهيونية فى الحرب الأولى، نلاحظ أن نشاط الصهيونية تركز فى نيويورك إبان الحرب العالمية الثانية وفى هذه المدينة انعقد أهم مؤتمر فى تاريخ الصهيونية وقد عرف باسم الفندق الذى انعقد فيه وهو فندق بلتيمور وكان ذلك خلال شهر مايو سنة ١٩٤٢ أى فى أحلك الأوقات التى مر بها الحلفاء .

وقد دعت إلى عقد هذا المؤتمر المنظمات الصهيونية الأمريكية وحضره نحو ستمائة مندوب عن هذه المنظمات بجانب ٦٧ ممثلوا اللجان التنفيذية المقيمة فى فلسطين، وترأس بن جوريون هذا الفريق الأخير. كذلك اشترك فى المؤتمر أحد عشر عضوا من أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى ومن بينهم

Weizmann, p. 489 (١)

هارى ترومان الذى سيتولى الرئاسة فى سنة ١٩٤٥ وعاصرت رئاسته قيام دولة إسرائيل .

وقد وضع هذا المؤتمر برنامجا جريئاً يفصح للمرة الأولى عن حقيقة الأطماع الصهيونية دون خوف من أية معارضة دولية، وكان بن جوريون هو من أبرز الشخصيات التى أكدت هذه الجرأة ولذلك يمكن القول بأن المؤتمر هو الذى مهّد له طريق التفوق على وايزمان الذى فقد الزعامة الحقيقية وتحول إلى شبه سفير للصهيونية فى لندن[١] .

ويبدأ البرنامج بالإشاره بتعاون الصهيونية مع « الدول الديمقراطية » ثم يندد بسياسة الكتاب الأبيض ويذكر الحلفاء بأن اليهود قاتلوا بجانبهم فى ليبيا وسوريا واليونان ثم يوجز مطالب الصهيونية فى ثلاث نقاط (١) فتح باب الهجرة على مصراعيه دون قيد وتشرف على شئونها الوكالة اليهودية لا السلطات البريطانية (٢) أن تتكون فرق يهودية تقاتل بجانب الحلفاء تحت علمها الخاص كما هو الحال بالنسبة للفرق البولندية والتشيكوسلوفاكية وغيرها من الدول التى احتلها الألمان وفى ذلك ما يؤكد حق إسرائيل فى تأسيس دولة تصبح فيما بعد عضوا فى الأمم المتحدة . (٣) تحويل فلسطين بأسرها إلى كومنولث يهودى وكان برنامج بلتيمور قد تجاوز حتى فكرة التقسيم التى تدعو إلى انشاء دولتين فى فلسطين إحداهما يهودية والأخرى عربية . وسيظل برنامج بلتيمور هو محور الحركة الصهيونية حتى بعد قيام دولة إسرائيل .

كيف كان موقف الرئيس روزفلت من قضية فلسطين ؟

تضاربت الأقوال حول هذه النقطة، فيروى أن الرئيس الأمريكى شعر

(١) انظر التفاصيل الخاصة بهذا المؤتمر فى :
Hurewitz, Struggle For Palastine Chap. 12.

بالسخط الشديد الذى عم البلاد العربية فى أعقاب مؤتمر بلتيمور وأنه أراد أن يزيل بعض عوامل هذا السخط خاصة وأن الولايات المتحدة عادت سنة ١٩٤٤ إلى سياسة التوسع فى استغلال النفط بالشرق الأوسط . وفى هذا العام أرسل روزفلت ممثله الشخصى هارى هو بكنز الذى طاف بالبلاد العربية ليشرح وجهة نظر الولايات المتحدة ، غير أنه من الواضح أن الرئيس الأمريكى ركز اهتمامه على الملك عبد العزيز آل سعود لكى يتفق معه مباشرة على حل قضية فلسطين ، وقد اعترف ابن سعود نفسه بأنه لا يستطيع وحده التصرف فى هذه القضية كما أنه لم يقف موقفاً حازما مع الولات المتحدة . يدل على ذلك الرساله التى حملّها إلى الرئيس روزفلت فى نهاية ١٩٤٣ وقال فيها أنه كان يريد منذ مدة أن يتحدث مع الرئيس بشأن فلسطين « ولكنى أخشى أن أزعج حكومة الولايات المتحدة وقت انشغالها بالحرب(١) » .

أما ويلز وكيل وزارة الخارجية الذى كان معروفا بتحمسه للصهيونية فيدّعى أن روزفلت كان من أنصار تحويل فلسطين إلى كومنولث يهودى وخاصة بعد أن لاح فى الأفق قيام اتحاد عربى فى الشرق ، ويروى أن وايزمان كان يتردد على البيت الأبيض حتى من قبل أن يبعثه تشرشل إلى الولايات المتحدة ، وكان الرئيس الأمريكى يود لو استطاع ابن سعود أن يعقد محادثات مباشرة مع زعيم الصهيونية وأن يتوصل الطرفان إلى اتفاق . وقد رفض ابن سعود فكرة الاتصال بوايزمان وقال أنه حتى لو قبلها فليس من حقه وحده أن يبت فى هذه القضية . وتروى بهذه المناسبة أيضا قصة العشرين مليون دولار التى عرضها الرئيس روزفلت على ابن سعود لكى يقبل فى نظيرها توطين اللاجئين العرب فى بلاده الشاسعة إذ من المتوقع أن عدد كبيراً من السكان العرب سيضطر إلى مغادرة البلاد لتمكين الصهيونية من احتلال

Hull memoires, Vol 2 p. 1512. (١)

فلسطين ، وتنسب الفكرة إلى سان جون فيلبى أحد مستشارى ابن سعود المعروفين(١) الذى اعتنق الإسلام واشتهر باسم عبد الله فيلبى .

وكثيراً ما يذكر المؤرخون وجود تنازع بين الدوائر المختلفة فى الولايات المتحدة حول قضايا السياسة الخارجية ، فيذكر مثلا أن شركات النفط كانت تمثل دائرة من دوائر الضغط على البيت الأبيض كما أن قسم الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية الأمريكية كان يجتذب الرئيس نحو تأييد العرب، بينما كانت دوائر أخرى فى وزارة الخارجية وعلى رأسها سمنر ويلز تحاول كسبه نحو تأييد الصهيونية . وعندنا أن هذه قصص مفتعلة لتبرير سياسة معينة(٢) ومن المؤكد أن الصهيونية كانت تحظى بتأييد أقوى الدوائر فى الولايات المتحدة ممثلة فى الصحافة ورجال الأعمال بنيويورك وقد استطاعت أن تستصدر قرارا من الكونجرس يحتج على بريطانيا لأنها تقيد الهجرة ، ومعروف ما للولايات المتحدة آنذاك من تأثير على حليفتها التى اعتمدت عليها تمام الاعتماد فى الحرب الثانية .

وباقتراب معركة الرئاسة تسابق الحزبان المتنافسان على تأييد الصهيونية وساعد على ذلك تقارب كل من الديمقراطيين والجمهوريين من حيث عدد أصوات المؤيدين لهم مما يجعل لأصوات اليهود — وهم نحو خمسة ملايين فى الولايات المتحدة — وزنا كبيرا فى ترجيح كفة هذا الحزب أو ذاك . وقد اتخذ مؤتمر الحزب الديمقراطى وهو الحزب الحاكم آنذاك قرارا فى يوليو ١٩٤٤ يعلن فيه تأييد الحزب لفكرة تحويل فلسطين إلى كومنولث يهودى . وأخيرا اقترح كوردل هل وزير الخارجية استبعاد

Weizmann p. 492. (١)

Sumner welles : The Time For Decision (٢)

هذه القضية التى تتعلق بأمر من أمور السياسة الخارجية الدقيقة من معركة الرئاسة ، ولكن دون جدوى(١) .

أن هذا التشجيع الذى لقيته الصهيونية فى الولايات المتحدة ومن دول الحلفاء الأخرى جعلها تتطلع إلى عرض مطالبها أمام مؤتمر الكبار الثلاثة فى يالتا . إلا أن هذا المؤتمر خصص للمشكلات الكبرى التى تتعلق بإنهاء الحرب فتأجل بحثها إلى مؤتمر بوستدام . وفى طريق العودة من مؤتمر يالتا قابل روزفلت ابن سعود وحسب رواية ادوارد استيتنيوس وزير الخارجية الأمريكية آنذاك صرح روزفلت بعد هذه المقابلة بأنه فهم خلال خمس دقائق أشياء جديدة عن قضية فلسطين أكثر مما كان يستطيع فهمه بواسطة آلاف المذكرات . وعلى ذلك فإن الرئيس كان ينوى أن يتبع سياسة أقل تحيزا نحو الصهيونية لولا أن الموت عاجله وشاء الحظ أن يخلفه هارى ترومان نصير الصهيونية المعروف . ومع ذلك فإن هذا التصريح هو محل جدل وقد نفاه سمنر ويلز . ومهما يكن فإن اشتراك الولايات المتحدة اشتراكا فعالا فى توجيه السياسه العالمية منذ نهاية الحرب قد خدم مصالح الصهيونية .

(٤) فى داخل فلسطين

كانت العلاقات بين السلطات البريطانية وبين المنظمات اليهودية فى فلسطين على شىء من التوتر منذ صدور الكتاب الأبيض . وقد أشرنا كيف أن بن جوريون أزال عوامل التوتر هذه حينما شرح لأعوانه كيف أن بريطانيا غير جادة فى تنفيذ الكتاب ، ودعاهم إلى التعاون التام مع الحلفاء . وقد أراد اليهود وضع السياسة البريطانية موضع الاختبار فأرسلوا فى بداية الحرب

(١) Hull memoires, Vol. 2 p. 1537.

ثلاث سفن تحمل لاجئين يهود من الاقطار التى احتلها الألمان ، ولما كان وصول هذه السفن قد اتخذ شكل التحدى فإن السلطات البريطانية رأت أن تبعد ركابها إلى جزيرة موريشس المستعمرة البريطانية فى المحيط الهندى غير أنها أغمضت العين عن حالات الهجرة بطريق التسلل حتى قدر عدد المهاجرين غير الشرعيين فى السنة الأولى من الحرب بثلاثة أضعاف النسبة التى حددها الكتاب الأبيض .

وقد وفدت تلك الهجرات فى وقت قلت فيه أبواب العمل إذ توقف تصدير الموالح وهى تشكل حينذاك ٧٥ ٪ من صادرات فلسطين وقدر عدد العاطلين من اليهود بنحو ٢١ ألفا . غير أن المهاجرين وجدوا بابا جديداً للعمل وهو الالتحاق بخدمة الجيش البريطانى . وكانت خطة بن جوريون تهدف إلى تشكيل فرق يهودية خاصه تقاتل مع الحلفاء . فتكون هذه فرصة للتدريب والتسلح . إلا أن حكومة لندن ظلت فترة من الوقت تلتزم بالسياسة التقليدية وهى أن تظهر بمظهر الحكم الذى يعدل بين عنصرى السكان !! وبناء عليه اشترطت أن تتكون فرق فلسطينية خاصة على أساس التساوى فى العدد بين العرب واليهود ، ومن الواضح أن هذه السياسة انطلقت من مبدأ خاطىء وهو اعتبار أن لليهود حقا مساويا للعرب فى فلسطين .

وعلى كل فإن العسكريين كانوا غير راضين عن تحفظ السياسيين ويرون أن حالة الحرب تقتضى إهمال الاعتبارات السياسية . وبما أن اليهود عنصر موال فلا بأس من تجنيدهم ، بل ذهب العسكريون بعد ذلك إلى حد اقتراح أن تتولى جماعة الهاجاناه الدفاع عن أمن المستعمرات اليهودية دون أن يفكروا فيمن يدافع عن أمن المواطنين العرب .

وكان تشرشل يوافق العسكريين على وجهة نظرهم . وقد أعلن فى البرلمان يوم ٢٣ مايو بعيد توليه رئاسة الحكومة أنه من العبث إبقاء عشرين ألف جندى للمحافظة على الأمن فى فلسطين بينما تحتاج بريطانيا

إلى كل فرد للدفاع عن نفسها(١) كما تعجب رئيس الوزراء البريطانى من احتجاز عدة سفن لمراقبة سواحل فلسطين لمنع تسلل المهاجرين ! !

هكذا اتفقت حكومة لندن مع السلطات المحلية على إيقاف العمل بالكتاب الأبيض . وأقبل اليهود على الانخراط فى سلك الجيش البريطانى حتى بلغ عددهم ٨٢ ألف رجل وخمسين ألف امرأة ، وقد ترك تشرشل للجنرال ويفل القائد العام فى الشرق الأوسط حرية التصرف فى مسألة فلسطين فتغاضى عن أوامر وزارة الخارجية وأشرك الكتائب اليهودية فى حملة سورية ولبنان وتركها تنهب مخازن الأسلحة الفرنسية وتستفيد بها لتسليح العصابات(٢) . وحينما اقترب الألمان من فلسطين فى صيف ١٩٤٢ أثناء معركة العلمين شجع العسكريون البريطانيون اليهود على إقامة مستعمرات جديدة ، واختيرت مواقعها على أسس استراتيجية إذ اعتبرت نوعا من تدعيم الدفاع عن البلاد ، وبهذه المناسبة أقيمت المستعمرات المجاورة للحدود المصرية ، وسيكون لذلك أثر بعيد على توجيه قضية فلسطين ، فقد أقيمت هذه المستعمرات فى المناطق التى كانت قد خصصتها لجنة التقسيم الأولى سنة ١٩٣٧ للمنطقة العربية ، أما فى سنة ١٩٤٧ فإن لجنة التقسيم التابعة للأمم المتحدة ستراعى هذا الامتداد الجديد وتوسع تبعاً له المنطقة المخصصة لدولة إسرائيل .

رغم هذا التحيز الظاهر من السلطات البريطانية فإن العصابات اليهودية لم تكن متفقة على مبدأ التعاون التام معها طوال فترة الحرب ومن الراجح أن هذه الخلافات كانت مفتعلة ومنسقة بواسطة القيادة الصهيونية العليا لقد بادرت الهاجاناه ، وهى المنظمة الرسمية التابعة للوكالة التى يرأسها بن جوريون إلى إعلان التعاون مع سلطات الانتداب بمناسبة

Churchill, Vol 2 p. 655. (١)

Wilson p 172. (٢)

الحرب وأسمت هذا الموقف بالهدنة السياسية . وتلتها فى اتخاذ نفس الموقف عصابة ارجونز فيلومى سنة ١٩٤٠ . أما عصابة شتيرن فرفضت « الهدنة السياسية » ، وكان من السهل بعد ذلك على الصهاينة تحميل هذه العصابة مسئولية السرقات ونهب المعسكرات البريطانية ذاتها فى فلسطين .

وحينما ابتعد خطر القتال من الشرق الأوسط عادت الهاجاناه فى سنة ١٩٤٣ تهدد باستخدام العنف إذا لم تُعد بريطانيا فتح باب الهجرة على مصراعيه(١) وقد حدث خلاف بشأن هذا الموضوع بين بن جوريون ووايزمان الذى أصر على اتباع الطرق الدبلوماسية . وبالفعل عادت الهاجاناه إلى سياسة المهادنة فى أكتوبر سنة ١٩٤٣ خاصة بعد أن قبلت بريطانيا إشراك كتيبة يهودية فى عمليات غزو أوربا . وكان الاشتراك فى هذا الميدان محل جدل بين أعضاء اللجنة التنفيذية الصهيونية فى فلسطين فرأى البعض أن من الأفضل الاحتفاظ بجميع القوات اليهودية فوق أرض فلسطين استعداداً للمعركة الكبرى . بينما رأى آخرون أن الاشتراك فى غزو أوربا تحت علم خاص سيؤكد الصفة الدولية للصهيونية ويمهد لاعتبار إسرائيل من بين أعضاء الأمم المتحدة .

وقد استمرت العصابات الأخرى فى ممارسة أعمال العنف سواء بمهاجمة القرى العربية أم المؤسسات البريطانية ، ومن المعروف أن أعضاء هذه العصابات هم الذين اغتالوا اللورد موين وزير الدولة البريطانى لشئون الشرق الأوسط فى سنة ١٩٤٤ وارتكب الحادث فى القاهرة بقصد إحراج الحكومة المصرية .

نبين مما سبق أن الصهيونية استفادت فائدة كبرى من الحرب العالمية الثانية سواء بواسطة الإجراءات العملية التى اتخذتها داخل فلسطين أم بواسطة التغيرات التى طرأت على الموقف الدولى ، فى داخل فلسطين

Lenczowski, p. 326 s. q. (١)

تكونت نواة جيش إسرائيل ودرب اليهود على أحدث طرق القتال وانتشرت المستعمرات فى أماكن جديدة .

ومن الناحية الدولية تضافرت عدة ظروف لخدمة الصهيونية ،منها ارتباط الولايات المتحدة نهائيا برسم السياسة العالمية ومنها نجاح حزب العمال فى الانتخابات التى جرت فى يوليو ١٩٤٥ . وقد سبق للحزب أن اتخذ قرارا فى سنة ١٩٤٤ يدعو إلى فتح باب الهجرة وفسر معنى الوطن القومى بأنه تحويل غالبية سكان فلسطين من العرب إلى اليهود وتوقع حزب العمال أن هذه العملية ستتطلب إخراج كثير من العرب ولكنه رأى أن البلاد العربية المحيطة كافية لاستيعابهم . ومن باب العدالة ! ! اقترح الحزب أن يتم نقل العرب على نفقة الوكالة اليهودية ، غير أنها اعترضت على ذلك ، ومن المعروف أن حكم العمال فى بريطانيا عاصر قيام دولة إسرائيل ولم يغفل زعماء الصهيونية اجتذاب ود الاتحاد السوفييتى فحينما كان مايسكى السفير السوفييتى فى لندن يمر بالشرق الأوسط دعوة لزيارة المستعمرات اليهودية وأروه كيف أن الكيبوتسيم تطبق الاشتراكية العملية وتشبه الكلخوز أى المزارع الجماعية السوفيتية دون أن تعتنق بالضرورة المبادىء الماركسية وادعى هؤلاء الزعماء أن اليهود يمثلون عنصرا تقدميا فى الشرق الأوسط وكان ذلك من باب المخادعة . فقد كشف ألفريد ليلنتال وهو يهودى غير صهيونى عن حقائق مذهلة تتعلق بصلات الصهيونية بالنازيين فى ألمانيا وكيف أن زعماء الصهاينة من أمثال وايزمان وبن جوريون وشاريت رحبوا بقيام الحكم النازى لأنهم توقعوا أن الاضطهاد العنصرى سيؤدى إلى اضطرار اليهود للهجرة إلى فلسطين وبذا أثبت كيف أن هدف الصهيونية لم يكن هو حماية اليهود بل تحقيق أطماع سياسية ترتبط بالمصالح الاستعمارية ويقول ليلنتال فى هذا الصدد ، فى الشهور الأولى من حكم هتلر كان الصهيونيون هم اليهود الوحيدون الذين يتصلون بالسلطات الألمانية وكانوا يستغلون

مركزهم لطعن المعادين للصهيونية وكان أمل اليهودية المنظمة فى ألمانيا أن يؤدى اختلاف النازيين مع اليهود إلى هجرتهم إلى فلسطين وكانت نتيجة ذلك أن تم الاتفاق بين الوكالة اليهودية لفلسطين والسلطات النازية على المساعدة فى المشروعات الصهيونية للهجرة غير الشرعية إلى الأراضى المقدسة حتى لقد ساعد على الجستابو وفرق القمصان السوداء لأن هذا فى رأيهم كان مجرد وسيلة أخرى لتخليص أوربا من اليهود المكروهين(١) » .

ويمكن مقارنة هذا التغلغل الصهيونى لدى الدول الكبرى على اختلاف نزعاتها بتحرج مركز عرب فلسطين فقد تفرقت كلمة العرب ولم يستطيعوا إعادة تكوين اللجنة العربية العليا التى حلها الانجليز عام ١٩٣٧ ، يدل على ذلك أنه حينما طلب إلى عرب فلسطين أن يعينوا ممثلا لهم للمشاركة فى تأسيس الجامعة العربية أضاعوا وقتا طويلا للاتفاق على اختيار هذا العضو ، وبشق الأنفس تم الاتفاق على موسى العلمى .

وقد زادت الدعاية النازية من موقف العرب حرجا إذ أنها كانت تركز باستمرار حينما تتناول الشئون العربية على قضية فلسطين مما ساعد على انتشار الاسطورة القائلة بوجود اتصال بين النازية وبين الحركة العربية المعادية للصهيونية . وقد ضرب اليهود على نفس هذه النغمة واستفادوا من وجود عدد كبير من المشردين فى أوربا بعد الحرب وقد رأينا كيف أنهم استخدموا هذه القضية الإنسانية لخدمة أغراض سياسية واستطاعوا أن يخادعوا الرأى العام الدولى .

وتغافل رؤساء دول الحلفاء الكبرى التى خرجت منتصرة فى الحرب عن نقطة هامة وهى أن إيواء اللاجئين اليهود يعنى تشريد عدد آخر من بنى البشر . وكان من السهل حل مشكلة اليهود بطرق أخرى عديدة غير تهجيرهم إلى فلسطين .

---

(١) Lilienthal : The other Side of The coin.

الفصل الخامس

تجاهل المغرب

أن من الأمور التى تسترعى الانتباه هو أن الحلفاء الذين أيدوا الحركة الوطنية فى سوريا ولبنان تجاهلوا تماما عرب المغرب ، لذلك لم تستفد الحركات الاستقلالية هناك بصورة مباشرة من الحرب باستثناء ليبيا التى كانت مستعمرة لإحدى دول المحور المهزوم وقد برر الحلفاء الأنجلوسكسون هذا التجاهل بأن الحركة الوطنية لم تكن قد نضجت بعد فى أقطار المغرب العربى والأرجح أنهم فعلوا ذلك استرضاء للشعب الفرنسى الذى كان حساسا نحو هذا الجزء بالذات من الأمبراطورية ، كما روعى وجود عدد كبير من المستوطنين الفرنسيين هم أصحاب السلطة والمهيمنون على النشاط الاقتصادى فى البلاد .

وبينما ظل البريطانيون محتفظين بالقيادة العسكرية العليا فى سوريا ولبنان بادر الأمريكيون بعد ستة أشهر من احتلال شمال أفريقيا إلى تسليم جميع السلطات العسكرية والمدنية إلى الفرنسيين ونقلوا قيادتهم إلى صقلية .

لذلك لم تستفد الحركات الوطنية فى المغرب من الحرب إلا على المدى الطويل . ولم يقع خلاف بين الفرنسيين والانجلوسكسون حول هذه المنطقة كما حدث فى سوريا ولبنان .

(١) تقلب السلطات الحاكمة

شهد المغرب خلال فترة الحرب تبدلات كثيرة فى السلطات الحاكمة ، ففى بداية الأمر كانت حكومة الجمهوريه الثالثة تشن حربا لاهوادة فيها على

الزعماء الوطنين ، فنلاحظ أن أبرز الزعماء المغاربة وهم علال الفاسى عن مراكش ومصالى الحاج عن الجزائر والحبيب بورقيبة عن تونس ، كانوا جميعا يقضون أحكاما طويلة بالسجن خارج بلادهم عند نشوب الحرب وقد حُلت الأحزاب السياسية التى أسسوها .

ومع ذلك فإن المسئولين المغاربة أعلنوا جميعا عن رغبتهم فى التعاون مع الجمهورية تعاونا صادقا ونعنى بهؤلاء المسؤلين باى تونس وسلطان مراكش وموظوا الإدارة الفرنسية فى الجزائر من الوطنيين . وكانوا جميعا مسلوبى السلطة فى ذلك الوقت فمر إعلانهم دون أن يؤخذ بعين الاعتبار .

فلما وقعت فرنسا الهدنة فى يونيو ١٩٤٠ وانتقلت السلطة إلى الماريشال بيتان جعل من أهم أهدافه المحافظ على الامبراطورية ، ومن أجل ذلك إزداد قسوة فى معاملة الوطنيين المغاربة ولقى حظوة هائلة فى بيئات المستوطنين الفرنسيين بالمغرب حتى أن هؤلاء اعتبروا حكمه فيشى عهدهم الذهبى كذلك تمتع الماريشال بيتان بتأييد الجيش المرابط هناك وقد سمح الألمان لفرنسا بالاحتفاظ بعدد كبير من القوات فى المغرب قدرت بـ ١٢٠ ألفا واستثنيت من نظام نزع السلاح ، وكانت هذه القوات موزعة على النحو التالى : ٢٠٫٠٠٠ فى تونس ، ٤٥٫٠٠٠ فى الجزائر ، ٥٥٫٠٠٠ فى مراكش .

وربما يرجع تركيز القوات فى هذا القطر إلى وجود المنطقة الأسبانية فى الشمال .

ومن المعروف أن اسبانيا كانت ميالة إلى المحور وتطلعت أثناء الحرب إلى امتلاك مراكش بأسرها لأنها كانت غاضبة على نصيبها فى تقسيم البلاد إلى منطقتى نفوذ وقد استولت بالفعل على منطقه طنجة الدولية وآوت السلطات الأسبانية كثيرا من الوطنيين المغاربة الذين فروا من السلطات الفرنسية بالجنوب . وقد صار معروفا الآن أن فرانكو

ساوم هتلر عند مقابلته فى خريف ١٩٤٠ فطالب بمنحه جميع القطر المراكشى مقابل انضمامه للمحور فى الحرب . وقد وازن هتلر بين انضمام أسبانيا وإغضاب فرنسا فوجد أن من مصلحته إبقاء العلاقات الطيبة مع حكومة فيشى على أمل أن تتحول يوما ما هى الأخرى إلى جانب ألمانيا .

ويبدو أن هذه الحكومة كانت متأثرة بأفكار النازية العنصرية وهى إنكار تلائم المستوطنين لأنها لم تطبق على اليهود فحسب بل طبقت على العرب وإنما أبرز الكتاب الإجراءات التى اتخذت ضد اليهود فى شمال أفريقيا لأنها كانت تمثل سياسة جديدة ، أما اضطهاد العرب فأمر مألوف منذ بدء استعمار فرنسا للمغرب .

وكما حاول البريطانيون إغراء السلطات الفرنسية فى سوريا ولبنان بالخروج عن طاعة حكومة فيشى فكذلك جرب تشرشل حظه أكثر من مرة مع الجنرال ويجان قائد عام القوات الفرنسية فى المغرب وأرسل إليه بضع خطابات يبين له كيف أن من مصلحة الإمبراطورية الفرنسية أن يعلن الجيش المرابط فى شمال أفريقيا سخطه على نظام الهدنة ولكن ذهبت محاولات تشرشل سدى وكان أن تقرر أرسال حملة أمريكية انجليزية مشتركة فى نوفمبر ١٩٤٢ ولم يشرك الحلفاء قوات فرنسا الحرة فى هذه العملية لعلمهم بعداء الجيش والمستوطنين الفرنسيين للجنرال ديجول .

وقد استخدم الأمريكيون جنرالا فرنسيا آخر يدعى جيرو كان قد فر من أسر الألمان والتجأ إلى الحلفاء قبيل حملة شمال أفريقيا . وكان من المفروض أن يتعاون مع الحلفاء ويلقى بيانا يدعو فيه الجيش الفرنسى

(١) Julien p ·272 s. q.

إلى عدم مقاومة الحملة ذلك أن خطة فيشى المعلنة كانت مقاومة أى غزو خارجى على الامبراطورية سواء جاء من جهة الحلفاء أم من أى طرف آخر والمقصود بهذا الطرف الآخر لا يمكن أن يكون سوى ألمانيا .

وبالفعل شرعت القوات الفرنسية المرابطة فى مراكش والجزائر فى المقاومة إلا أن الأميرال دارلان الذى وجد صدفة بالجزائر عند نزول حملة الحلفاء أصدر الأوامر بعد ثلاثة أيام بإيقاف المقاومة . وقد رأينا هذا الأميرال يتزعم الفريق المنادى بالتعاون مع ألمانيا فما هو الدافع إلى هذا الانقلاب التام فى موقفه ؟ يمكن تفسير ذلك بأن الأميرال أدرك فى هذا الوقت أن هزيمة ألمانيا محققة ، أما هو فقد برر التحول بأن الألمان خرقوا اتفاقية الهدنة وذلك باحتلال بقية الأراضى الفرنسية إثر وقوع حملة شمال أفريقيا ، كما أنهم قرروا بعد استسلام الفرنسيين فى مراكش والجزائر أن ينزلوا إلى تونس ليحولوا دون اتصال الجيش الثامن الزاحف من ليبيا مع قوات الحلفاء فى الجزائر ومما يلفت النظر أن الفرنسيين فى تونس لم يقاوموا الغزو الألمانى بل استسلموا له أيضا دون تردد .

أثر تحول دارلان تأثيرا كبيرا على الموقف السياسى فى شمال أفريقيا ، فقد رحب الأمريكيون بتحول الأميرال الشهير واعترفوا له بتولى القيادة العامة ومهدوا له طريق زعامة السلطات الفرنسية القائمة فى المغرب . وكان دارلان من ألد خصوم الجنرال ديجول ، ولذا حاول الإنجليز أن يقفوا موقفا وسطا بين الرجلين .

ولم تلبث المشكلة أن حلت بمقتل الأميرال فى نهاية شهر ديسمبر وقد أعدم الشخص المتهم بمقتله بسرعة على خلاف العادة المتبعة فى القضاء الفرنسى وبذا لم يبق مجال للتحقيق فيما إذا كان المتهم من أنصار ديجول

المتحمسين ، وانحصر الصراع على الزعامة بعد ذلك بين ديجول وجيرو(١) وقد انتهز تشرشل وروزفلت فرصة وجودهما فى الدار البيضاء يناير سنة ١٩٤٣ للتوفيق بين الرجلين ولم يحققا سوى نجاح جزئى. على أن جيرو انصرف من تلقاء نفسه إلى الشئون العسكرية وذلك بتكتيل الجهود لإعادة تكوين الجيش الفرنسى ، وجنّد عددا هائلا من المغاربة حتى أصبحوا يشكلون نحو ٧٠٪ من القوات الفرنسية التى حاربت مع الحلفاء فى إيطاليا وفى معركة تحرير فرنسا .

أما ديجول فقد خصص جزءاً كبيرا من وقته للشئون السياسية واستطاع فى النهاية أن يجمع حوله الأنصار من مختلف الاتجاهات وكون فى يونيو سنة ١٩٤٣ تحت قيادته ما عرف بلجنة التحرير الوطنى الفرنسية وهذه اللجنة هى التى تسلمت الإدارة المدنية والقيادة العسكرية فى شمال أفريقيا بعد أن جلا عنها الحلفاء .

لم يشأ الأمريكيون أو الانجليز كما ذكرنا أن يتدخلوا فى العلاقة بين الفرنسيين والمغاربة أثناء وجودهم القصير فى شمال أفريقيا ، ومع ذلك يُروى أن الأمريكيين وزعوا منشورات بالعربية تحتوى على مبادىء ميثاق الأطلسى ونظرية روزفلت فى الحريات الأربع ولكنهم ما لبثوا أن تراجعوا عن ذلك حينما ذكر لهم الفرنسيون بأن المجتمع الوطنى لم يتهيأ بعد لمثل هذه الأفكار . وسنشير فيما بعد إلى مقابلة روزفلت أثناء وجوده فى الدار البيضاء مع السلطان محمد الخامس وتحديه للسلطات الفرنسية فى كيفية تدبير المقابلة .

غير أن هذا الحادث كان مجرد سياسة طارئة ولم يكن روزفلت

(١) انظر تفاصيل الصراع بين الهيئات الفرنسية المختلفة فى :
Catraux, de Geulle memoiris Vol. 2.

يلحّ على إحداث أى تغيير فى الموقف السياسى لأقطار المغرب غاية الأمر إنه كان يؤمن بضرورة تحسين أحوال « السكان الوطنين البؤساء » اقتصاديا واجتماعيا .

ومن المدهش أن هذا التجاهل التام لأمانى العرب اقترن باهتمام زائد بتغيير حالة اليهود فى شمال أفريقيا(١) فقد ألح الأمريكيون أكثر من مرة على السلطات الفرنسية لكى تلغى الإجراءات التى اتخذتها ضدهم حكومة فيشى وخاصة ذلك الإجراء الذى حرمهم من الجنسية الفرنسية وحدد نسبتهم فى الوظائف وفى المدارس ، وقد تلكأ الجنرال جيرو فى تنفيذ المطالب الأمريكية بحجة أن ذلك سيغضب « المسلمين » ! !

وحقيقة الأمر أن المستوطنين الفرنسيين كانوا مرتاحين إلى إسقاط الجنسية عن اليهود . وقدمت الجمعيات الصهيونية فى الولايات المتحدة إحتجاجات متوالية بشأن هذا الموضوع ولكن لم توقف إجراءات فيشى كلية إلا حينما تكونت اللجنة الفرنسية للتحرير الوطنى المشار إليها وكانت تمثل عناصر المقاومة للاحتلال الألمانى فأبدت عطفا شديدا على اليهود بصفة عامة وفتحت أمامهم باب اللجنة ذاتها .

وخلاصة القول أن فرنسا لم تبد استعدادا ، رغم هذه التقلبات الكثيرة فى شمال أفريقيا ، لإجراء أى تعديل فى أوضاع المغرب السياسية إلا أن توقيع الهدنة وما تلا ذلك من صراع بين الفئات المختلفة قد أسقط من هيبة فرنسا فى أعين الوطنيين وشجعهم على تغيير مطالبهم وتوسيع مداها كما سنتبين ذلك تفصيلا عند تتبع الحالة الداخلية فى كل من أقطار المغرب الثلاث .

Kirk p. 412 (١)

(٢) مراكش

بادر السلطان محمد الخامس عند قيام الحرب إلى التعبير عن ولائه التام لفرنسا وصرح فى ٣ سبتمبر ١٩٣٩ «من الآن وإلى اليوم الذى تكلل فيه جهود فرنسا وحلفائها بالنصر يجب علينا أن نقدم لها كل مساعدة دون تحفظ ولن نشح عليها بمواردنا ولن نتردد فى تقديم أى تضحية» .

ويروى أن السلطان تأثر لهزيمة فرنسا فى صيف ١٩٤٠ ويبدو أن إحساسه قد تغير بعد أن لمس الطريقة التى عاملت بها فيشى الوطنيين المغاربة . وعلى كل فإن صلة السلطان بالحركة الوطنية لم تكن قد توثقت بعد .

ويحلو للكتاب الفرنسيين أن يؤكدوا وجود اتصال بين الزعماء الوطنيين فى المغرب الأقصى وبين المحور . وقد أصبح هذا الاتصال تهمة توجه إليهم فى أعقاب الحرب لتبرير الاجراءات التعسفية التى اتخذت ضدهم . وقد سبق للفرنسيين أن وجهوا نفس التهمة عندما اختلفوا مع رياض الصلح فى لبنان، وربما يكون قد حدث اتصال ما بين الوطنيين وبين المحور عن طريق المنطقة الأسبانية ولكن المغاربة كانوا يذكرون كيف تخلت ألمانيا عن بلادهم فى سنة ١٩١١ بعد أن تحمست لاستقلال البلاد فترة من الوقت ، ثم تبين أنها كانت تتخذ المسألة المراكشية أداة للمساومة مع فرنسا لذلك لم يثق الوطنيون المغاربة كثيرا بالاغراءات الألمانية .

ومن الراجح أن هؤلاء علقوا كثيرا من الآمال على تدخل الحلفاء لصالحهم نظرا لما سمعوا عنه من تصرفاتهم فى سوريا ولبنان ، غير أن الأمريكيين خيبوا آمالهم للأسباب المذكورة ، ومع ذلك يروى

أن الأمريكيين فكروا وقتا ما فى الاتصال بعبد الكريم الخطابى أو علال الفاسى لكى يستخدموا نفوذهما فى حالة إصرار الفرنسيين على مقاومة الحماية .

كذلك يقال إن أنصار ديجول نصحوا الفاسى بالتفاهم مع زعيم فرنسا الحرة على مستقبل المغرب ولكن ديجول بعد أن بلغته مساعى الولايات المتحدة وبريطانيا لإطلاق سراحه تراجع عن تلك الخطة حتى لا تتعرض سياسته المغربية لأى نوع من أنواع الضغط(١) .

وعندما انعقد مؤتمر الدار البيضاء بين تشرشل وروزفلت فى يناير ١٩٤٣ انتهز الرئيس الأمريكى الفرصة فقابل السلطان بدون وساطة المقيم العام كما تقضى بذلك معاهدة الحماية . واعتبر الفرنسيون ذلك دليلا على أن السياسة الأمريكية ستؤيد فيما بعد مطالب مراكش الوطنية ، ولا يستبعد أن يكون روزفلت قد تحول فعلا إلى تلك الفكرة كما يبدو من تصريحه لابن سعود فيما بعد(٢) ولكن حتى لو عاش روزفلت ما كانت الولايات المتحدة تستطيع أن تناصب فرنسا العداء من أجل مراكش .

ويعزو الكتاب الفرنسيون تحول السلطان إلى مشاركة الزعماء الوطنيين فى كفاحهم فى المرحلة التالية إلى تلك المقابلة التى أشعرته بأن له شخصية دولية ذات شأن وإلى تجاهل الرئيس الأمريكى لهيبة المقيم العام . ويدل هذا التفسير على مدى اهتمامهم لشخص السلطان . والواقع أن هذا التحول قد أتى نتيجة نضوج تدريجى فى آراء محمد الخامس وميوله .

وفى يناير ١٩٤٤ وبينما كان زعماء البلاد فى المنفى أعاد الوطنيون تشكيل

---

(١) Landau Part 5 Chap. 2.

(٢) Eliot p 109 . 112

حزب جديد باسم حزب الاستقلال يعتمد أساساً على بقايا الحزب الوطنى مع توسيع قاعدته فمثلت فى مؤتمر الحزب جمعيات المدرسين فى مدن مراكش المختلفة . وكانت ممثلة رسميا فى مجلس شورى الحكومة . وكذلك كبار الموظفين فى المخزن[١] وأساتذة جامعة القرويين . وقد استعان المؤتمر بالطلبة الذين كان الحزب الوطنى أوفدهم للدراسة فى القاهرة ، وظهر أحمد بلافريج كمحور لهذا النشاط أثناء غياب الفاسى .

ويعتبر مؤتمر ١١ يناير ١٩٤٤ نقطة تحول فى تاريخ الحركة القومية ، لا لأنه تمخض عن تأسيس حزب الاستقلال ، أكبر الأحزاب السياسية فى مراكش خلال السنوات التالية فحسب، بل لأنه قرر أيضاً العدول عن سياسة الاستقلال على مراحل . فطالب بإسقاط الحماية مباشرة كشرط مقدم للتفاوض مع فرنسا . وشهدت مراكش فى الأيام التالية لتأسيس حزب الاستقلال مظاهرات على نطاق واسع ، تلك المظاهرات التى أعقبتها أحداث دامية واعتقال لمن بقى حراً من الزعماء الوطنيين ، ومع ذلك لم يتوقف نمو الحزب المطرد فامتدت فروعه حتى إلى المناطق البربرية ويمكن إيجاز برنامج الحزب الناشىء فى نقاط ثلاث: استقلال المغرب ووحدة أراضيه والسعى لانضمامه إلى هيئة الأمم المتحدة ، توثيق الروابط مع دول العالم عامة ومع الدول العربية والإسلامية خاصة ، وفيما يتعلق بنظام الحكم يرى الحزب أن الأسرة الحاكمة أسرة وطنية ويعلن ولاءه لها وينادى فى نفس الوقت بتطبيق الملكية الدستورية ومنح الحريات الديموقراطية لجميع أفراد الشعب، ومنذ ذلك الوقت استبدل الحزب لقب السلطان بالملك وأطلق عليه الملك محمد الخامس .

أعقب نشر البرنامج وقوع صدام بين السلطات الفرنسية وبين الوطنيين فى فبراير ١٩٤٤، وقد استخدمت أشد وسائل العنف قسوة لقمع الحركة الوطنية الناشئة ولم يُحل هذا دون نمو حزب الاستقلال ، وهكذا نستطيع

(١) اسم الحكومة القديم فى مراكش .

أن نقرر نتيجتين هامتين تمخضت عنهما الحرب بالنسبة لمراكش وهما أولا : عدول الوطنيين عن فكرة الاستقلال على مراحل والبدء بالإصلاحات الداخلية كمرحلة أولى وثانيا إقتراب القصر من الحركة الوطنية وظهور بوادر الصراع بينه وبين الإقامة العامة . يضاف إلى ذلك تطلع مراكش إلى المشرق العربى فى وقت تأسيس الجامعة العربية وكسر الستار الحديدى الذى كانت فرنسا تريد أن تفرق به بين المغرب والمشرق العربيين .

(٢) فى تونس

مرت تونس بتجربة فريدة من نوعها فهى القطر العربى الوحيد الذى كان خاضعاً لدولة من دول الحلفاء ثم أتيح للألمان أن يحتلوه عسكرياً مدة من الزمن (نوفمبر ١٩٤٢ — مايو ١٩٤٣) وخلال تلك المدة كانت القوات الألمانيه هى صاحبه السلطة الفعلية .

وفى السابق كانت ألمانيا تراعى مصالح الفرنسيين فى المغرب والإيطاليين فى ليبيا إلى أقصى حد . فلوحظ أثناء هذه الفترة أن الألمان تقاربوا بعض الشىء من الأمانى الوطنية التونسية ، ويرجع ذلك إلى أحد أمرين : إما لأنهم أصبحوا لا يكترثون لحكومة فيشى بعد أن استسلمت القوات الفرنسية للحلفاء فى الجزائر ومراكش أو لأن الألمان تغيروا حينما ضعف الأمل فى إحرازهم نصراً دولياً حاسما .

ويقال إن الألمان عرضوا على الباى محمد المنصف إسقاط الحماية وضم إقليم قسنطينة إلى تونس ولكنه رفض لعدم ثقته بمستقبل ألمانيا .

والحق أن الباى تولى السلطة فى ظروف حرجة فقد آل إليه العرش فى يونيو ١٩٤٢ أى قبيل نزول الحلفاء ببضعة أشهر وسيؤخذ عليه فيما بعد أنه لم يُجب عن رسالة الرئيس روزفلت التى دعاه فيها للتعاون مع الحلفاء ،

ولا بد أنه كان صادقا حينما ذكر بأنه كان مقيد السلطة، وإنه أجاب فعلا طالبا إلى روزفلت احترام حياد تونس ولكن المقيم العام منع وصول الخطاب إلى الرئيس الأمريكى. وحقيقة الأمر أن شعور العداء الكامن نحو السلطات الفرنسية لابد وأن يكون قد سيطر على نفس الباى إذ سبق للفرنسيين أن خلعوا والده عن العرش فى ١٩٢٢ لأنه أبدى ميولا نحو الحركة الوطنية. ومن الشائع أن المنصف طالب بعيد توليه العرش بالسيادة التونسية الكاملة ولم يترك فرصة الاحتلال الألمانى تمر دون محاولة الاستفادة منها . من ذلك مثلا إلغاء نظام الثلث الاستعمارى وهو التعبير الذى كان يعنى العلاوات الهائلة التى يتقاضاها الموظف الفرنسى ويتميز بها عن زميله التونسى الذى يقوم بنفس العمل . كما أنه اتخذ خطوة جريئة حينما قرر فى يناير ١٩٤٣ تكوين وزارة من اختياره دون استشارة المقيم العام، وقد اختار وزراءه من بين أعضاء الحزب الدستورى بفرعيه القديم والجديد على السواء وكان يرأسها محمد شنيق من الدستوريين القدامى . أما الحبيب بورقيبه زعيم الحزب الدستورى الجديد فكان معتقلا فى الأراضى الفرنسية .

وكلما كان الألمان يشعرون بقرب نهايتهم فى تونس كانوا يزدادون تقاربا من الوطنيين، فقد قدموا التعويضات للعرب الذين فقدوا ممتلكاتهم نتيجة الغارات الجوية التى شنها الحلفاء على تونس . كما ضغطوا على الإقامة العامة لكى تسلم للوطنيين بعض الوظائف الهامة . وفى إبريل ١٩٤٣ أى قبل الانسحاب من تونس بشهر واحد قرروا الافراج عن بورقيبة وزملائه المعتقلين فى فرنسا وحاولت الحكومة الإيطالية أن تستدرجه إلى إصدار تصريح يحث فيه الشعب التونسى على التعاون مع المحور ولكنه رفض ولم ينقذه ذلك من إتهام الفرنسيين له بالميول المحورية وذلك بعد تسلمهم السلطة فى البلاد.

وحقيقة الأمر أن الباى المنصف لم يكن يهدف إلى أكثر من ترقب نتيجة المعركة والاستفادة منها لخدمة القضية الوطنية ويشبهه فى ذلك الحزب الدستورى القديم .

وقد سادت علاقاته خاصة مع المقيم العام الاميرال ستيفا عندما فرض عليه فقرة فى خطاب العرش سنة ٤٢ جاء فيها « واليوم أريد التحدث عن عزمى على متابعة التعاون لتوطيد الأواصر التى تربط دائما وأبدا بلدينا وتضمن فى المستقبل، مثل ما عمل أسلافى فى الماضى، سيادة فرنسا والعائلة الحسينية اللتين ما انفكتا سائدتين على القطر التونسى باتفاق كامل » .

أما الحزب الدستورى الجديد فمن الراجح أنه كان يختلف إلى حد كبير عن الباى والحزب القديم من الناحية الايديولوجية ويبدو أن ذلك أثر على موقف الحزب من قضية الصراع بين الحلفاء والمحور، فإن الحبيب بورقيبة مثل كثير من زعماء الحزب كانوا مشبعين بالمبادىء الديموقراطية الغربية ويظنون أن فرنسا الحرة تؤمن بهذه الآراء وسيتبين لهم كيف أنها لم تؤمن بها إلا بالنسبة لفرنسا وحدها .

ويروى الحبيب ثامر، وهو من أعضاء الحزب القلائل الذين تمتعوا بحرية العمل أثناء الحرب، أنه تلقى تعليمات سرية من الحبيب بورقيبة فى أوائل سنة ١٩٤٢ يحثه فيها على الاتصال بحركة المقاومة الفرنسية وسلطات الحلفاء [١] .

وحينما أفرج عن الحبيب بورقيبة . حاولت الحكومة الايطالية إغراءه بشتى الوسائل فأحسنت استقباله فى روما وطلبت إليه أن يستخدم نفوذه

---

(١) انظر كتابه « هذه هى تونس » .

لدعوة الشعب التونسى إلى التعاون مع المحور فى نظير إطلاقه . ولكن بورقيبة اشترط مقدما إعلان استقلال تونس ودعوة مؤتمر دولى للاعتراف به وهومالم تقبله إيطاليا . فاكتفت منه بتوجيه بيان فى ٦ ابريل ١٩٤٣ شن فيه حملة على الاستعمار الفرنسى ولكنه أضاف « وعلى الشعب التونسى أن يتنبه للاطماع الأجنبية الأخرى[١] » وعلى أثر ذلك سمح له بالعودة إلى تونس بعد خمس سنوات على وجه التحديد من يوم اعتقاله سنة ١٩٣٨ وقد رفض بعد ذلك العودة إلى أوروبا برفقة قوات المحور المنسحبة .

كانت السلطات الفرنسية مصممة على استغلال أى منفذ للقضاء على النزعات الاستقلالية ، فدبرت المؤامرات لكى تظهر لقيادة الحلفاء . أن كلا من الباى والزعماء الوطنيين أعوان للمحور ، وألبستهم تهمة التجسس لحسابه . وأغمضت القيادة البريطانية التى دخلت تونس العاصمة العين واعتبرت الباى أسير حرب وسلمته للقيادة الفرنسية .

وبناء عليه تركت للجنرال جيرو ، بعد إعادة احتلال تونس ، الحرية المطلقة لإتخاذ جميع الإجراءات التى أدعى أنها لازمة لحفظ الأمن . وكان من المتوقع أن يتجه . أولا للانتقام من منصف باى لخروجه عن طاعة الإقامة العامة أثناء الاحتلال الألمانى فبالغ فى قصة منح الباى الأوسمة للضباط الألمان فى إحدى المناسبات واستصدر أمراً عسكرياً فى ١٣ مايو بخلعه وتولية محمد الأمين باى على العرش خلفا له وهو آخر من تولى حكم البلاد من العائلة الحسينية .

واستند جيرو فى هذا الإجراء إلى معاهدة الحماية التى تنص على مسئولية

(١) Julien p. 98.

فرنسا فى المحافظة على الأمن ولكن الباى رفض توقيع التنازل عن العرش فنفى إلى واحة الأغواط الجزائرية ليذوق فيها عذاب الحبس الانفرادى فى ظروف مناخية سيئة . وقد أوجد هذا الحادث بطلا شهيداً تتجمع حوله العناصر الوطنية وكان الثعالبى وأنصاره من الحزب الدستورى القديم[١] هم الذين أبرزوا مشكلة العرش ، وظلوا يطالبون بعودة الحاكم الشرعى ، حتى قضى المنصف نحبه بمنفاه فى فرنسا سنة ١٩٤٨ .

ومما يجدر بالملاحظة أن الثعالبى حاول فى هذه الأثناء بعث سياسة التضامن العربى فأرسل إلى الحكومة المصرية مرحبا بقيام الجامعة العربية ، طالبا إليها التدخل فى هذه الأزمة . وقدلمح فى بعض خطاباته إلى أن فرنسا بعد أن عجزت عن الدفاع عن تونس أصبحت حمايتها غير ذات موضوع .

لم ينقذ الحبيب بورقيبة تحفظه مع المحور فاتبعت السلطات الفرنسية نحوه نفس السياسة العدائية ، وحالت دون نشر النداء الذى وجهه بورقيبه عند دخول الحلفاء تونس ودعا فيه الشعب التونسى إلى التعاون معهم ضد العدو المشترك . وبذا برر جوان القائد الفرنسى للمنطقة أمام حلفائه ، الإجراءات التى اتخذها ضد الدستوريين كتحديد إقامة بورقيبه وحظر النشاط السياسى على أعضاء الحزب .

وللقارىء أن يقارن بين هذه التهم الملفقة التى وجهت ضد الوطنيين بأنهم أعوان المحور بذلك التسامح التام الذى عومل به مستوطنو شمال أفريقيا والموظفون الذين تعاونوا مع نظام فيشى وكانوا يصرحون بعدائهم الشديد نحو الحلفاء .

(١) نشر الحزب الدستورى القديم قضية الباى المنصف فى كتيب بعنوانه « مأساة عرش » .

٤ — الجزائر

اشتدت قبضة الاستعمار الفرنسى على الجزائر بعد الحرب الثانية خلافا لروح العصر السائدة . إلا أن هذا الإشتداد كان مؤقتا ولم تمر الحرب دون أن تؤثر على تطور الحركة الوطنية . ولا نبالغ أن قلنا إن ثورة الجزائر الكبرى لسنة ١٩٥٤ غُرست نواتها فى انتفاضة قسنطينة التى وقعت فى ٨ مايو سنة ١٩٤٥ بمناسبة الاحتفالات بانتصار الحلفاء . فقد كشفت أعمال القمع العنيفة التى اقترنت بهذه الانتفاضة عن قوة الروح العنصرية عند المستوطنين ، وحفرت إلى الأبد هوة سحيقة بينهم وبين المواطنين الجزائريين وأوقفت التيار الفكرى الذى انحرف إليه بعض الجزائريين إذ ظنوا أنه من الممكن تحرير الجزائر عن طريق اندماجها فى فرنسا .

وعند قيام الحرب كان الجزائريون يعتبرون رعايا فرنسيين، لذلك طبق عليهم نظام الخدمة العسكرية الإجبارية . ولكن من الناحية . السياسية كان هناك تمييز بين مواطنين من الدرجة الأولى وآخرين من الدرجة الثانية ، فالأولون هم المستوطنون يضاف إليهم بضعة آلاف من النخبة المثقفة الجزائرية وهؤلاء يتمتعون بحقوق سياسية كاملة ، أما مواطنو الدرجة الثانية فهم غالبية الشعب الجزائرى وهؤلاء لا يتمتعون بالحقوق السياسية رغم أنهم من الناحية الدولية رعايا فرنسيون .

ولم يستثن من هذه التفرقة المجندون الذين شاركوا فى الحرب بما فيهم هؤلاء الذين حصلوا على المواطنة الكاملة بحكم ثقافتهم . . وقد أثرت هذه التفرقة على آراء النخبة المثقفة التى نادت بادماج الجزائر فى فرنسا من قبل، ومن هؤلاء فرحات عباس الذى تطوع فى الجيش الفرنسى كصيدلى ورغم تفانيه فى الخدمة فقد حرم من الأوسمة التى حصل عليها زملاؤه .

وحينما نزل الحلفاء فى الجزائر فى نوفمبر سنة ١٩٤٢ كان فرحات عباس من بين الزعماء القلائل الذين يتمتعون بالحرية . أما مصالى الحاج زعيم حزب الشعب والذى كان يمثل الوطنية المناضلة فقد اعتقل منذ قيام الحرب ، وازدادت حكومة فيشى إضطهادا له فأصدرت ضده حكماً بالسجن مدة ستة عشر عاما وأرسل إلى إحدى واحات الجنوب الجزائرى ليمضى العقوبة ولم يتمتع حزب الشعب بالشرعية إلا لفترة قصيرة منذ تأسيسه سنة ١٩٣٦ رغم أنه كان يحظى بنفوذ كبير لدى الطبقات العاملة . لذلك ضيق الخناق على الشخصيات البارزة فى الحزب ولم يبق مجال العمل السياسى إلا بالنسبة (للمعتدلين) فى رأى السلطات الفرنسية وهذا هو ما أتاح لفرحات عباس وبعض أعضاء مجلس الوفود المالية(١) لكى يتصدروا حركة المطالب الوطنية فيما بين عامى ١٩٤٢ ، ١٩٤٥ .

ويبدو أن هؤلاء الوطنيين علقوا بعض الآمال على وجود الحلفاء فى شمال إفريقيا وحاولوا الإتصال بهم . ومما يلفت النظر أن الأمريكيين الذين كانوا مسيطرين على حملة شمال إفريقيا تصرفوا كما لو كان العنصر الوطنى غير موجود فى الجزائر . هذا مع أن الولايات المتحدة كانت معروفة حينذاك بمعاداتها للاستعمار التقليدى أو على الأقل كانت فى نظر الكثيرين أقرب إلى مبدأ حق الشعوب فى تقرير المصير من بريطانيا . وقد رأينا كيف أن بريطانيا لم تسمح للسلطات الفرنسية بحرية التصرف فى سوريا ولبنان . أما القيادة الأمريكية فقد أبقت الإدارة الفرنسية على ما هى عليه بما فى ذلك كبار الموظفين الذين عينتهم حكومة فيشى ونفضت يدها من المشكلات السياسية .

---

(١) هيئة استشارية كان موكلا إليها النظر فى الشئون المالية وتتكون غالبيتها من المستوطنين — انظر المؤلف « المغرب العربى » ص ٣٢٨ وما بعدها .

تقدم فرحات عباس مع اثنين وعشرين من أعضاء الوفود المالية بمطالبهم إلى القيادة الأمريكية والسلطات الإدارية الفرنسية ولكن السلطات الفرنسية رفضتها .

أولا : لأنها قدمت لقيادة الحلفاء ، وهى هيئة غير مختصة بمسألة داخلية .

ثانيا : لأن الوطنيين الجزائريين اعتبروا قبول هذه المطالب شرطا لتجنيد الجزائريين فى جيش فرنسا الحرة ، فعدتها السلطات الفرنسية نوعا من المساومة غير المقبولة مقدما .

ومع أن أصحاب العريضة ، حاولوا استرضاء السلطات بعد ذلك بتقديم مذكرة أخرى معدلة ، لمحوا فيها إلى أنهم يريدون المشاركة فى مجهود الحرب للحصول على الاستقلال فى (إطار فرنسى) فقد أصرت هذه السلطات على رفضها ، وقال جيرو الحاكم العام الجديد إنه أتى لتجنيد الرجال لا ليناقش مسائل سياسية .

لم يجد فرحات عباس بدا من إعلان مطالبه فى بيان عام أصدره فى ١٠ فبراير سنة ١٩٤٣ ، ومنذ ذلك الحين صار أنصاره يعرفون بجماعة أصدقاء البيان . وتمثل هذه المطالب مرحلة من مراحل تطور الزعيم الجزائرى من فكرة إدماج الجزائر فى فرنسا إلى مبدأ الاستقلال التام. فدعا خلال هذه المرحلة إلى إقامة حكومة وطنية جزائرية تتحد اتحادا فيدراليا مع فرنسا . وكان فى بقية التفاصيل غاية فى الاعتدال حتى أننا لو نظرنا إلى البيان بمنظار عصرنا لوصفناه بالتهاون الشديد وهو أقرب إلى برنامج إصلاحى منه إلى مطالب وطنية ، فهو يدعو مثلا إلى(١) :

١ — تطبيق مبدأ المساواة والحرية على جميع الجزائريين دون تمييز فى الجنس أو الدين أو اللغة .

(١) Julien p. 286 - 287.

٢ — القضاء على النظام الإقطاعى بواسطة إصلاح زراعى .

٣ — الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية على قدم المساواة مع اللغة الفرنسية .

٤ — تطبيق التعليم الابتدائى الإجبارى على جميع الجزائريين .

٥ — فصل شئون الدين الإسلامى عن الإدارة الفرنسية ، كما هو الحال بالنسبة للكنيسة .

٦ — اشتراك المسلمين مباشرة فى إدارة البلاد .

أبدت السلطات الفرنسية استعدادا لبحث هذه الإصلاحات ، باعتبار أنها لم تمس مبدأ السيادة الفرنسية ولكن أصحاب البيان اتبعوه بعد عدة أشهر بملحق يعبر عن رأيهم فى مستقبل البلاد السياسى . وتحدثوا فيه عن قيام دولة جزائرية تستقل استقلالا ذاتيا ، وتحكم بواسطة دستور خاص على أن تقوم بوضع الدستور جمعية تأسيسية منتخبة انتخابا حرا . وقد أقر أصحاب البيان بإمكان التمييز بين مطالب عاجلة وأخرى يمكن تأجيلها إلى ما بعد الحرب . فمن المطالب العاجلة مثلا إقامة سلطة تنفيذية فى مدينة الجزائر يشترك فيها الوطنيون على سبيل المناصفة مع المستوطنين . أما صياغة دستور الدولة الجزائرية فيمكن تأجيله إلى ما بعد الحرب .

عند ما أذيع هذا الملحق السياسى كان الجنرال ديجول قد تسلم السلطة فى شمال افريقيا وعين الجنرال كاترو حاكما عاما للجزائر . وإذا كنا قد لاحظنا من الحديث عن سوريا ولبنان أن كاترو كان أكثر تفهما للمطالب الوطنية بالقياس إلى غيره من رجال فرنسا الحرة ، فإن موقفه بالنسبة للوطنيين الجزائريين كان يختلف تمام الاختلاف . فهو ها هنا لم يتحمل إثارة قضية تمس مبدأ السيادة الفرنسية ، وأعلن رفضه البات للبيان بأكمله .

وحاول أعضاء الوفود المالية أن يعبروا عن سخطهم على هذا الموقف

بالامتناع عن حضور دورة المجلس التى افتتحت فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ ، فكان أن قرر كاترو المضى فى الدورة بدون حضورهم فاضطروا إلى الاعتذار . وأعلنوا عن أن خططهم هى تطوير البلاد فى ظل أنظمة الدولة الفرنسية .

وكان هذا هو الأسلوب الذى قرر ديجول اتباعه فى تطوير الجزائر . ويعنى هذا توسيع دائرة الحقوق السياسية لأكبر عدد من الجزائريين ففى الماضى ، كان حق الانتخاب قاصراً على من تتوفر فيهم شروط معينة . فصدر مرسوم فى مارس سنة ١٩٤٤ يطلق حق الانتخاب لجميع الجزائريين ولكنه يميز بين نوعين من الدوائر .

دوائر مخصصة للمستوطنين وعدد محدود جداً من الجزائريين . وأخرى تمثل بقية الشعب الجزائرى. ومع أن هذا القسم الأخير هو الذى يمثل الغالبية العظمى من السكان ، فلم يخصص له سوى ٤٠٪ من عدد المقاعد فى المجالس المحلية .

ويتجافى هذا الأسلوب تماما مع المطالب الوطنية لأن التطوير فى إطار أنظمة الدولة الفرنسية يعنى تأكيد مبدأ السيادة والمساواة بين الجزائريين والفرنسيين فى نفس الوقت ، وكأن مجرد الذهاب للتصويت فى صناديق الاقتراع هو غاية الأمانى التى يتطلع إليها الجزائريون .

اتفقت جميع الفئات الوطنية ، على رفض ماسمى بالإصلاحات ، وحدث تقارب بين هذه الفئات رغم أنها كانت فى الماضى تعتنق مبادىء متباينة تمام التباين ، فكان فرحات عباس يعبر عن نظرية النخبة المثقفة بينما يمثل حزب الشعب الطبقة العاملة وينادى بنوع من الاستقلال دون أن يوضح مضمونه ويتخذ شعارات أحزاب اليسار الفرنسية فى حين كانت جماعة العلماء الجزائريين تناضل من أجل تأكيد شخصية الجزائر العربية الإسلامية .

وقد نجح فرحات عباس فى عقد مؤتمر يضم هذه الفئات المتنافرة ، وظل الخلاف العقائدى قائما بينها ، ولكنها اتفقت جميعا على معارضة السياسة الفرنسية الجديدة . ويعد هذا الاتفاق فى حد ذاته كسبا هاما للحركة الوطنية فى الجزائر .

وقد كشف هذا المؤتمر عن قوة نفوذ حزب الشعب ورغم غياب زعيمه المعتقل فقد سيطر أعضاؤه على المؤتمر وعاد يتصدر حركة النضال ويحل محل المعتدلين الذين برز دورهم خلال العامين السابقين .

وهكذا انتقد ممثلو حزب الشعب بشدة رأى أصحاب البيان فى إقامة حكومة جزائرية تتحد اتحادا فيدراليا مع فرنسا . ويقال أن انعقاد هذا المؤتمر قد أثار مخاوف المستوطنين فدبروا حوادث قسطنطينة لكى يوقفوا عجلة التطور أيا كان شكلها فى القطر الجزائرى .

عندما كان العالم يحتفل بالانتصار على المحور أراد الجزائريون أن يشاركوا فى هذه الاحتفالات وفى سطيف آثر الوطنيون أن ينظموا مظاهرات خاصة بهم . وكان من بين الهتافات التى رددوها الترحيب بقيام الجامعة العربية فوجد المستوطنون الفرصة سانحة لكى ينقضوا على الوطنيين وهم عزل من السلاح ويبيدو منهم عددا كبيرا تحت ستر بل بمساعدة الشرطة الفرنسية .

ومع الترجيح بأن أحداث قسطنطينه قد دبرت بواسطة المستوطنين فإن وقوع المذبحة الكبرى قد قفل إلى الأبد فكرة التفاهم بين العناصر المعتدلة وبين فرنسا كما أن الهتافات بحياة الجامعة العربية تبين لنا إلى أى مدى تطلع أبناء المغرب إلى المشرق منذ نهاية الحرب ولا يستثنى من ذلك الجزائر التى كانت تعانى بصفة خاصة من عزلتها عن بيئتها العربية المحيطة بها .

٥ – سقوط الحكم الايطالى فى ليبيا

استفادت ليبيا من الحرب قبل غيرها من أقطار المغرب العربى . ويرجع ذلك إلى أنها كانت تابعة لإيطاليا إحدى دول المحور المهزومة . وقد تم حصولها على الاستقلال فى أواخر سنة ١٩٥١ رغم أن سكانها أقل تطورا فى مختلف النواحى الاجتماعية والاقتصادية إذا ما قورنوا بجيرانهم فى تونس مثلا .

ولم تظفر ليبيا بهذا الاستقلال إلا بعد أن تغلبت على عقبات كثيرة تتعلق بتحديد السلطة الوطنية التى تتسلم مقاليد البلاد من يد الإدارة البريطانية . ويتعلق بعضها الآخر بالأطماع الاستعمارية فإن كلا من بريطانيا وفرنسا كانت تتطلع إلى أن ترث إيطاليا فى هذه المنطقة وظهرت مشروعات لتقسيم ليبيا إلى مناطق نفوذ تهدد وحدة البلاد الوطنية لذا انقضت سبع سنوات بعد نهاية الحرب قبل أن تظفر ليبيا بالاستقلال .

عمدت إيطاليا أثناء استعمارها لليبيا إلى محو شخصية البلاد واعتبرتها إقليما مكملا للأراضى الايطالية ويخضع سكانها للرعوية الايطالية وقبيل الحرب أخذت توفد آلاف المهاجرين لتحويل ليبيا إلى مستعمرة استيطان .

ومن الواضح أن النظام الفاشستى استهدف أغراضا عسكرية من وراء إرسال المستوطنين الايطاليين ، لذلك يلاحظ أنه ركز الاستعمار على برقة المتاخمة لمصر .

ومنذ أعمال المقاومة العنيفة التى اشتهر بها الليبيون لمواجهة الاحتلال الايطالى هاجر الكثيرون منهم إلى الأقطار المجاورة ولم ينقطعوا عن المطالبة بتحرير بلادهم . ومن أبرز الجمعيات الوطنية فى المهجر تلك التى أسسها

بشير السعداوى فى دمشق سنة ١٩٢٨ باسم جمعية الدفاع الطرابلسى البرقاوى وكانت تطالب بقيام دولة ليبية على أساس النظام الدستورى والحكم النيابى وهو يمثل بذلك نزعة أهل طرابلس إلى إيجاد نظام حكم عصرى .

أما المهاجرون فى مصر فكان أبرزهم محمد إدريس السنوسى زعيم برقة الدينى المشهور . ولم ينقطع السنوسى عن نشر المقالات المعادية لايطاليا فى جريدة المقطم المعروفة بميولها البريطانية ، لذلك اضطر إلى التوقف عن دعايته بعد أن تمت تسوية الخلافات بين إيطاليا وبريطانيا بشأن الشرق الأوسط فى سنة ١٩٣٨ .

على أن قيام الحرب قلب هذه الأوضاع رأسا على عقب فمنذ البداية كان يتوقع دخول إيطاليا فيها بجانب المانيا فى أية لحظة ، ولذلك تجدد نشاط السنوسى وحاول أن يجمع حوله العناصر الوطنية على اختلاف نزعاتها ، وبتشجيع من السفارة البريطانية بالقاهرة انعقد مؤتمر فى مقر السنوسى بالأسكندرية حضره ممثلون عن جمعية الدفاع الطرابلسية ولكن كان زعماء القبائل البرقاوية من أنصار السنوسى يشكلون غالبية المجتمعين لذلك صدروا قراراتهم باعلان الولاء لإدريس السنوسى كزعيم للبلاد مع الإشارة إلى إقامة هيئة شورية إذا ما سمحت الظروف له بالعودة إلى حكم البلاد(١) .

وقد تجدد هذا النشاط إثر دخول إيطاليا الحرب فعقد السنوسى مؤتمرا ثانيا فى أغسطس سنة ١٩٤٠ وانحصر تقريبا هذه المرة فى مؤيديه من أهل برقة بينما رأى زعماء طرابلس الوقوف بعيدا انتظارا لأحداث الحرب أو على الأقل لأنهم كانوا لا يريدون التسليم بزعامة السنوسى

(١) Prichard; Evans p. 126 - 156

دون إجراء استفتاء مقدما . على أن هذه الخلافات لا تعنى أن أياً من الفريقين كان يعارض فى وحدة ليبيا باقليميها الرئيسيين طرابلس وبرقة . وقد يكون من المفيد هاهنا أن نثبت قرارات مؤتمر أغسطس سنة ١٩٤٠ لأنها هى التى أرست دعائم ذلك التحالف الذى استمر قائما بين بريطانيا وبين أنصار السنوسى .

١ — وضع الثقة فى دولة بريطانيا العظمى التى مدت يد المساعدة لتخليص الوطن الطرابلسى من براثن الاستعمار الايطالى الغاشم .

٢ — إعلان الامارة السنوسية والثقة التامة بالأمير محمد ادريس المهدى المبايع له بالامارة على القطرين .

٣ — تعيين هيئة تمثل القطرين طرابلس وبرقة وتكوين مجلس شورى للأمير المشار إليه .

٤ — خوض غمار الحرب ضد إيطاليا بجانب الجيوش البريطانية وتحت علم الامارة السنوسية .

٥ — تعيين حكومة سنوسية تدير الشئون اللازمة فى الوقت الحاضر مقدما .

٦ — التوسل لدى الحكومة البريطانية بواسطة الأمير المشار إليه بطلب المخصصات اللازمة للتجنيد ولإدارة الحكومة وتعيين ميزانية خاصة ونظام مؤقت مستمد من الميثاق الوطنى حسب عوائد وتقاليد العرب .

٧ — تفويض سمو الأمير بمراجعة الدولة البريطانية لعقد الاتفاقات والمعاهدات السياسية والمالية والحربية التى توفى هذه الغاية وتضمن للوطن حريته واستقلاله (١) .

---

(١) نقولا زيادة ص ١٢٠ ، ١٢١ .

أخذ الليبيون المقيمون فى مصر بعد فتح جبهة الصحراء الغربية يستعدون لتحرير بلادهم ولم يكن أمامهم مجال للتردد بين المعسكرين المتحاربين إذ كان من الواضح أن مصالحهم متحدة مع الحلفاء وقد أقيم معسكر لتدريب الليبيين ضم نحو ٤ آلاف جندى .

وقد اشترك هؤلاء فى معركة الصحراء الغربية منذ سنة ١٩٤٠ حتى تم تحرير ليبيا فى يناير سنة ١٩٤٣ وقاموا بأعمال نافعة خاصة فيما يتعلق بالارشاد إلى الطرق ونقل الرسائل وتزويد الجنود بالمؤن وسيشيد الماريشال مونتجمرى بدور الليبيين فى هذه المعركة بعد الانتصار .

ومن المعروف أن البريطانيين احتلوا برقة جزئيا مرتين وأخرجوا منها ، وفى كل مرة يعود الطليان إلى احتلال المنطقة التى دخلها البريطانيون كان أهلها العرب يتعرضون لشتى أنواع الانتقام فلما استقر احتلال الحلفاء للبلاد وكانت ما تزال بها جالية إيطالية كبيرة العدد لم يفكر العرب العائدون إلى بلادهم فى الانتقام من الطليان .

٦ — الإدارة البريطانية ١٩٤٣ — ١٩٤٥

حينما كان روميل يستعد لزحفه الكبير نحو الأراضى المصرية أصدرت وزارة الخارجية البريطانية أول تصريح هام يتعلق بمستقبل ليبيا السياسى فوعدت بأنها لن تترك البلاد تقع ثانية فى يد الطليان إلا أن هذا التصريح لم يكن من شأنه ان يحل مشكلات البلاد العديدة التى برزت بعد احتلال الحلفاء لها . فرغم تحالف السنوسى وأنصاره مع بريطانيا إلا أنه كان من المستحيل اتخاذ قرار بشأن تسلمه السلطة فى البلاد دون أن يعرض الأمر على مؤتمر الصلح إذ اعتبرت ليبيا من الأراضى التابعة لإحدى الدول المهزومة ، لذلك أخضعت البلاد للحكم العسكرى البريطانى وقسمت

إداريا إلى ثلاث مناطق برقة وطرابلس وفزان وأخضع الاقليم الأخير للادارة العسكرية الفرنسية .

ذلك أن قوة فرنسية عبرت الصحراء الكبرى قادمة من تشاد واحتلت اقليم فزان فى أوائل يناير سنة ١٩٤٣ وتم اتفاق بين ليكلير القائد الفرنسى ومونتجمرى القائد البريطانى فى ٢٦ يناير ١٩٤٣ على أن يكون خط ٢٨ شمالا حدا فاصلا بين المنطقتين إلا أن الفرنسيين سارعوا باحتلال قدامس وهى من أهم واحات فزان وتقع شمال هذا الخط وأخضعوا الاقليم للادارة العسكرية المباشرة على نسق ماهو معمول به فى الصحراء الجزائرية وطبقوا هناك القانون العسكرى الفرنسى .

أما بريطانيا فقد ترددت فى أى القوانين تتبع عند بداية عهدها بإدارة طرابلس وبرقة ، فحسب القانون الدولى لا يجوز تغيير قوانين بلاد مفتوحة إلا بعد عقد الصلح ، لكن الأمر هاهنا يختلف لأن البلاد المفتوحة لم تكن طرفا محاربا وكان القانون الايطالى قد فرض عليها فرضا ولا يطلب السكان أكثر من تغييره ، إلا أن السلطات البريطانية ترددت فى ذلك وخاصة بالنسبة لطرابلس .

ذلك أن الإدارة البريطانية نمّت عن نيتها فى تجزئة البلاد فميزت فى المعاملة بين برقة وطرابلس فتحيزت لأهل الاقليم الأول وفتحت لهم باب الوظائف فى مختلف الادارات فى وقت أسرع بينما ظلت تستخدم كثيرا من الطليان فى طرابلس وتصادف أن أصحاب المزارع الايطالية المنشأة حديثا فى برقة كانوا قد غادروها عند زحف الحلفاء البطىء . أما طرابلس فقد سقطت بسرعة وكان معظم أفراد الجالية الايطالية يتجمعون فى المدينة واحتجت الادارة البريطانية بعدم وجود الكفاءات الكافية من أهل البلاد للاستمرار فى أعمال الادارة وهكذا نجد السلطات البريطانية

تستخدم فى سنة ١٩٤٤ : ٨٧٣ إيطاليا مقابل ٦٨٨ من العرب و ٢٦٣ من البريطانيين .

كذلك تركت بريطانيا لأهل برقة الحرية فى إنشاء الصحف وشجعت على تعريب التعليم مستخدمة فى ذلك كثيرا من المصريين ونقلت برامج التعليم المتبعة فى مصر آنذاك .

وقد مهدت السبل لعودة السنوسى وإن كان الزعيم البرقاوى قد تردد فى الاسراع بالعودة لأنه كان يريد أن يحصل على اجماع الكلمة حوله أولا فزار برقة سنة ١٩٤٤ ليجس نبض السكان وشجع هناك الهيئات الاجتماعية الناشئة ولا سيما نادى عمر المختار الذى نشأ فى الظاهر كهيئة رياضية وثقافية ثم تحول إلى هيئة سياسية تؤيد أمارة السنوسى وعلى العكس يلاحظ أن الادارة البريطانية ظلت تعرقل النشاط السياسى فى طرابلس فلم يسمح بقيام أحزاب فيها قبل سنة ١٩٤٦ حينما تأسس الحزب الوطنى وتلته أحزاب أخرى مختلفة النزعات بعضها ينادى بالاتحاد مع مصر وبعضها يطالب بإقامة الجمهورية وآخر يقبل بزعامة السنوسى لجميع أراضى ليبيا .

يتبين مما سبق أن الادارة العسكرية البريطانية أخذت على عاتقها إدارة الشئون المدنية فى برقة وطرابلس منذ سقوط الحكم الايطالى نهائيا سنة ١٩٤٣ حتى حصول ليبيا على الاستقلال بل أن هذه الادارة المدنية ظلت تابعة لوزارة الحرب البريطانية حتى سنة ١٩٤٩ حينما حوّلت إلى إختصاص وزارة الخارجية وقد قسمت كل من برقة وطرابلس إلى ثلاث وحدات إدارية على رأس كل منها ضابط بريطانى . ويدخل فى اختصاص الادارة العسكرية المحافظة على الأمن وإعادة العمل فى المزارع التى غادرها الطليان وذلك لسد النقص الهائل فى الحاجات الغذائية كما شمل اختصاصها التعليم ووضع الميزانية وقد توقف تداول الليرة الايطالية منذ سنة ١٩٤٤ .

على أن الإدارة البريطانية أبدت عطفا على الجالية الايطالية فى طرابلس إلى حد أنها فكرت فى استخدام الطليان فى أعمال الشرطة . وحينما طلب بعض الطليان العودة إلى طرابلس للالتحاق بأسرهم فى سنة ١٩٤٥ قبلت السلطات البريطانية مبدئيا وأن اشترطت أن يخرج شخص إيطالى فى مقابل كل مهاجر جديد . ولم يزل هذا الشرط مخاوف العرب وشكوكهم من نوايا السلطات البريطانية واحتمال موافقتها على تقسيم البلاد إلى ثلاث مناطق نفوذ : برقة لبريطانيا وطرابلس لايطاليا وفزان لفرنسا .

ومما زاد من هذه الشكوك تلك الصلات القوية التى نشأت بين بريطانيا وحكومة إيطاليا الملكية التى تحولت إلى صف الحلفاء منذ غزو الأراضى الايطالية فى سنة ١٩٤٣ . فقد فر الملك عمانويل الثالث يساعده الماريشال بادوليو من روما والتجأ إلى الحلفاء وقرر أن يعلن الحرب بجانبهم ضد ألمانيا وحكومة موسولينى التى صارت تابعة لها ، وكانت بريطانيا تريد بالفعل أن تدعم مركز الحكومة الايطالية الملكية فى نهاية الحرب وذلك برد بعض المستعمرات القديمة لها .

أما فرنسا فقد ترددت بين فكرة تقسيم ليبيا إلى مناطق نفوذ ثلاث بالاشتراك مع إيطاليا أو استبعاد الأخيرة وجعل طرابلس منطقة محايدة بين البريطانيين والفرنسيين وهذا الحل الثانى هو الذى مال إليه جان بيشون(١) أحد المختصين فى شئون ليبيا وقدم على أساسه اقتراحا إلى مؤتمر الصلح مع إيطاليا فى سنة ١٩٤٧ .

وحسب المشروع المفصل الذى قدمه تخضع فزان للحكم الفرنسى المباشر على الطريقة المتبعة فى الصحراء الجزائرية وتقام إمارة عربية فى طرابلس ترتبط بفرنسا بمعاهدة بينما تقيم بريطانيا إمارة تدور فى فلكها فى برقة

(١) انظر كتابه عن المسألة الليبية Pichon p. 304 s. q.

ويمكن أن يختار السنوسى أو أحد أعضاء الأسرة الحاكمة المصرية لتولى هذه الإمارة وتحتفظ بريطانيا بطبرق كقاعدة بحرية تخضع لسيادتها مثل جبل طارق . ولم يلتفت مؤتمر الصلح إلى هذا الاقتراح ولذلك اقتصرت جهود فرنسا على الاحتفاظ بفزان وظهرت الدراسات التى تدلل على أهميتها بالنسبة للامبراطورية(١) فهى تقع بين الجنوب الجزائرى وبين مشارف المشرق العربى . ثم أنها حلقة اتصال بين شمال أفريقيا وبين بقية الامبراطورية فى أفريقيا الاستوائية . وكان يهم فرنسا أن تقيم حاجزا بين المغرب والمشرق وكان الفرنسيين تنبأوا بما يحدث فى المستقبل إذ أن فزان صارت بعد قيام الثورة الجزائرية من أهم سبل الاتصال وعبرها كانت القوافل تأتى محملة بالأسلحة من مصر إلى الجزائر ، لذلك كان يهم فرنسا أن تجعل من ليبيا حاجزا بين المشرق والمغرب باخضاعها لمناطق نفوذ استعمارية ولم يدخر الفرنسيون وسعا لاغراء أهل فزان لكى يعلنوا رغبتهم فى البقاء تحت إدارتهم فبعث الجنرال ديجول فى سنة ١٩٤٤ برسالة يعلن فيها أن فرنسا كانت دائما صديقة المسلمين كما خصصت مساعدات مالية كبيرة لإقامة بعض المشروعات العمرانية فى فزان .

واجهت ليبيا إذن بعد الحرب خطرا داهما بالتقسيم فإذا أضفنا إلى ذلك اختلاف القوى الوطنية حول الزعامة التى يمكن لها أن تتسلم السلطة أدركنا مدى الوضع الحرج الذى تعرضت له ليبيا فى أعقاب الحرب . وبفضل تدخل الجامعة العربية تم التوفيق بين الفئات الوطنية المختلفة وتبين أن السنوسى هو أفضل العناصر لتوحيد الكلمة وكان توحيد الكلمة شرطا مقدما لانقاذ البلاد من خطر التقسيم .

(١) انظر مثلا رسالة الجغراف Jean de pois عن مهمته فى فزان سنة ١٩٤٤ ، Geographie humaine en 1946 فى ١٩٤٥ .

صاحبة النفوذ فيه . ومن ثم قلت حركة التبادل التجارى بين أجزاء الوطن العربى بينما كانت حركة الاستيراد والتصدير تتزايد مع أوربا فالاقطار العربية تصدر المواد الخام التى تنتجها وهى تستورد من أوربا المصنوعات وجزءا يسيرا من المواد الغذائية باعتبار أن الامكانيات الزراعية لم تستغل بعد استغلالا كافيا وأن الجفاف يسود قسما كبيرا من الأراضى العربية .

ونتج عن ذلك أن الدول العربية أصبحت تواجه ارتباكا اقتصاديا خطيرا بعد قيام الحرب ، وخاصة حينما دخلت إيطاليا المعركة وقفل طريق البحر المتوسط الذى يصل بين أوربا وبين الوطن العربى . ومما زاد المشكلة تعقيدا نمو الاستهلاك للمواد الغذائية بسبب وجود عدد كبير من الجند فى المنطقة . وقد وجدت بريطانيا نفسها مضطرة إلى تزويد البلاد بحاجياتها الضرورية حتى لا تثير وراء خطوطها اضطرابات الجماهير وتعرض أمن جيوشها للخطر .

وللتغلب على هذه المشكلات اتبعت وسائل مختلفة منها نقل المؤن عن طريق البحر الأحمر والخليج العربى مع ملاحظة أن ذلك كان يستغرق جهدا أكبر من الأسطول التجارى البريطانى فى وقت اشتدت فيه حاجة البحرية إلى استخدام جميع إمكانيات الاسطولين الحربى والتجارى ، ومنها تزويد الأقطار العربية بالخبراء فى مكافحة الجراد وزيادة مساحة الأراضى المنزرعة واستخدام أحدث الوسائل فى الانتاج الزراعى بل أن بريطانيا اضطرت تحت ضغط الظروف إلى تشجيع قيام الصناعات الخفيفة خلافا لخططها الاستعمارية السابقة التى كانت تناهض تصنيع البلاد العربية . وبعد احتلال سوريا ولبنان سنة ١٩٤١ أصبحت جميع بلاد الشرق العربى تخضع لتنظيم اقتصادى واحد يمثل فى مركز تموين الشرق الأوسط وازداد التبادل فيما بينها إلى حد كبير .

الفصل السادس

نتائج عامة

(١) أثر الحرب فى حركة الوحدة العربية

اعتاد المؤرخون أن يبرزوا دور بريطانيا فى تأسيس الجامعة العربية قائلين إن ازدياد نفوذها فى الشرق الأوسط هو الذى جعلها تحث الحكومات العربية آنذاك على إقامة هيئة اتحادية تنتظمها وكانت بريطانيا تريد من وراء ذلك مد نفوذها إلى سوريا ولبنان مثلا إذ لم تشأ أن تحل فى هذين القطرين محل فرنسا صراحة . كذلك قيل أن بريطانيا اتخذت مصر ستارا لتحقيق أهدافها إذ أن الحكومة القائمة فيها كانت تعتبر من حلفاء بريطانيا المقربين إليها ولذا شجعت على تزعمها حركة التقارب تلك الحركة التى انتهت بتأسيس الجامعة العربية. وقد تكون هذه النوايا موجودة بالفعل لدى بريطانيا ولكن ليس معنى ذلك ألبته توجيه النقد لفكرة الوحدة العربية ذاتها. وإذا صح أن معظم الحكومات التى شاركت فى تأسيس الجامعة العربية كانت متأثرة بقدر متفاوت بالنفوذ البريطانى فإن الأحوال تبدلت بمضى الوقت وثبت فى مناسبات عديدة أنه من الممكن بل من المحتوم أن تتحول الجامعة العربية إلى أداة صالحة لمناهضة السيطرة الأجنبية .

وفى ضوء تلك المقدمة نستطيع أن نتتبع المعالم الرئيسية التى تكشف لنا عن أثر الحرب العالمية الثانية فى التقريب بين أجزاء الوطن العربى المفكك . ولم يكن هذا التفكيك قاصرا على الناحية السياسية بل امتد أثره إلى الحياة الاقتصادية فارتبط كل قطر عربى بعجلة اقتصاد الدولة الأوروبية

أسس المركز فى القاهرة فى ابريل سنة ١٩٤١، وأسهمت الولايات المتحدة فى أعماله مباشرة وكان من بين أهدافه الرئيسية الحد من مطالب المدنيين فيما يجب شحنه على سفن الحلفاء ، وأن يشير على القيادة العامة بالتخطيط الذى يمكن بواسطته زيادة المواد والتجهيزات العسكرية وتدفقها دون حرمان المنطقة من البضائع والمواد الضرورية لحياة السكان المدنيين (١) .

وكان على جميع حكومات المنطقة التى يشرف عليها المركز أن تقدم قائمة بحاجياتها من الواردات خلال الأشهر الستة التالية وتبين فيها الأولويات لتلك الحاجات حتى يتسنى لبريطانيا أن تختار ما تستطيع نقله إلى الشرق الأوسط . ومن هنا ندرك مدى التبعية الاقتصادية وكيف أنه كان بوسع بريطانيا أن تستخدمها كأداة للضغط على الحكومات المستقلة وهى أداة أشد فعالية من النفوذ السياسى .

أثبتت التجربة أفضلية التعامل مع هيئة موحدة بدل تضييع الوقت فى التباحث مع كل حكومة على حدة لذلك رؤى التوسع فى هذا التنسيق بحيث يشمل الشئون السياسية أيضاً ، ذلك أنه تبين أن القيادة العسكرية فى الشرق الأوسط تواجه مشكلات سياسية فريدة من نوعها كمسألة العلاقة مع حكومة فيشى أو فرنسا الحرة ثم حكومات المنفى التى التجأت إلى الشرق الأوسط مثل حكومة اليونان ويوغوسلافيا . يضاف إلى ذلك هذه الهيئات الوطنية متباينة الاتجاهات فى الشرق العربى . ولهذا الغرض استحدثت فى يونيو سنة ١٩٤١ وزارة بريطانية جديدة أطلق عليها وزارة الدولة لشئون الشرق الأوسط وكان صاحبها يعتبر عضواً فى مجلس الحرب ويدخل فى اختصاصه شئون المستعمرات الإيطالية السابقة ومسألة فلسطين ، والاتصال بفرنسا الحرة ، بعبارة أخرى كانت مسئولياته

---

(١) أحمد طربين ص ٢٣٠ وما بعدها .

تتركز فى الأقطار التى لم تحدد فيها السلطة الشرعية ، أما فى البلاد التى استقرت فيها الحكومات الوطنية وتمتعت بقسط من الاستقلال مثل مصر أو العراق فإن السفراء البريطانيين كانوا يتولون أمر العلاقات معها (١) .

لقد بالغ الكتاب فى تأثير تلك المؤسسات البريطانية على دفع حركة التقارب العربى فقالوا إن وجود قيادة عسكرية وهيئة اقتصادية ومستشار سياسى واحد للمنطقة وثق الروابط بين دولها . وحقيقة الأمر أن هذه المؤسسات البريطانيه لم تراع التوزيع القومى فكانت تنظر إلى الشرق الأوسط باعتباره منطقة استراتيجية وكانت القيادة العسكرية أو مركز التموين لا يقتصران على الجزء العربى بل يشمل اختصاصهما الصومال والحبشة ، يضاف إلى ذلك أن شمال العراق ضم مع إيران تحت قيادة عسكرية منفصلة عن قيادة الشرق الأوسط التى كان مقرها القاهرة . لذا فإن أقصى ما يمكن قوله فى هذا المقام هو أن تلك المؤسسات اضطرت بريطانيا إلى رفع الحواجز التى كانت تتعمد وضعها فى السابق لتفكيك الوطن العربى .

كذلك بولغ فى تأثير خطاب إيدن الذى ألقاه فى مانشن هاوس فى ٢٩ مايو سنة ١٩٤١ ويخطىء الكثيرون إذ يعتبرونه الخطوة الأولى نحو إنشاء الجامعة العربية وقبل أن نناقش دوافع هذا الخطاب ومدى تأثيره ننقل فيما يلى أهم فقراته .

« لهذه البلاد — بريطانيا — تقاليد طويلة من الصداقة مع العرب وهى صداقة قد أثبتتها الأعمال وليست الأقوال وحدها . ولنا بين العرب عدد لا يحصى ممن يرجون لنا الخير كما أن لهم هنا أصدقاء كثيرون . وقد

---

(١) Kirk. p. 195 s q.

قلت منذ أيام فى مجلس العموم أن حكومة جلالته تعطف كثيراً على أمانى سوريا فى الاستقلال وأود أن أكرر ذلك الآن . ولكنى سأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول أن العالم العربى قد خطا خطوات عظيمة منذ التسوية التى تمت عقب الحرب الماضية ويرجو كثير من مفكرى العرب للشعوب العربية درجة من الوحدة أكبر مما تتمتع به الآن . وأن العرب ليتطلعون إلى نيل تأييدنا فى مساعيهم نحو هذا الهدف ولا ينبغى أن نغفل الرد على هذا الطلب من جانب أصدقائنا .

ويبدو لى أنه من الطبيعى ومن الحق وجوب تقوية الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلدان العربية ، وكذلك الروابط السياسية أيضاً ، وحكومة جلالته من ناحيتها سوف تبذل تأييدها التام لأية خطة تلقى موافقة عامة » .

إن مغزى هذا التصريح هو فى التوقيت الذى اختير لإصداره ففى ذلك الحين كانت بريطانيا توشك على الانتهاء من قمع حركة الكيلانى وتدرك أن هذا القمع أثار سخط كثير من الوطنيين العرب وهى فى نفس الوقت تتأهب لحملة سوريا ولبنان بالاشتراك مع فرنسا الحرة وتريد أن تلقى تأييد سكان البلاد من العرب على الأقل ، ومن ثم لمّح إيدن بعبارة الصداقة التى تربط بريطانيا بالعرب ، وشدد على فكرة الاتحاد لما تعلمه بريطانيا جيداً من أن هذه الفكرة هى أمنية الوطنيين منذ زمن طويل . وإذن فمن الخطأ القول بأن فكرة الاتحـــاد العربى هى إيحاء بريطانى أطلقه إيدن فى ذلك التصريح .

يضاف إلى العوامل السابقة أن بريطانيا كانت ما تزال وحدها فى الميدان فلم يقع العدوان الألمانى بعد على الاتحاد السوفيتى كما أن الولايات المتحدة كانت ما تزال بعيدة عن فكرة الاشتراك فى الحرب عملياً . وميدان

الصحراء الغربية هو الميدان الوحيد الذى تشتبك فيه بريطانيا مع المحور بقواتها البرية وقد سبق لدولتى المحور أن أصدرتا تصريحاً يؤيد استقلال العرب فى أكتوبر ١٩٤٠ فلعل الحكومة البريطانية رأت فى هذه الظروف العصيبة أن تسابق المحور إلى إعلان تأييدها للاتحاد ، يدل على ذلك أن إذاعات المحور بادرت إلى وصف التصريح بأنه دعاية مضللة وذكرت بالوعود البريطانية الكاذبة فى الحرب العالمية الأولى .

وعلى كل لم تكن الظروف تسمح لأى من الدول العربية بأن تلقى شيئاً من الاهتمام لهذا التصريح ، يستثنى من ذلك الأمير عبد الله حاكم شرق الأردن . فحكومة العراق مثلا كانت منشغلة بإعادة تنظيم شئونها بعد أن تسلم الوصى السلطة وكتل الجهود للانتقام من خصومه ، والحكومة المصرية كانت تواجه أول زحف ألمانى نحو حدودها .

وتعانى من أزمة التموين ومع ذلك فإن صدور هذا التصريح أثار عدة مناقشات فى الصحف والمجلات عن هوية مصر وهل تعتبر وجهتها أفريقية أم عربية أم أنها تنتمى إلى نوع من الحضارات المتشابهة تمثل حوض المتوسط وهى مناقشات قـــديمة تجددت بمناسبة الحديث عن حركة الاتحاد العربى وكان هناك ميل شديد إلى البدء بتحقيق وحدة وادى النيل .

كذلك لم يطمئن الوطنيون فى سوريا ولبنان إلى السياسة البريطانية عامة بعد أن رأوا السلطات تُسلم لحكومة فرنسا الحرة ، أما ابن سعود فكان يعتقد بأن أى اتحاد عربى تؤيده بريطانيا لابد وأن يكون لخدمة مصالح الأسرة الهاشمية .

قلنا أن الأمير عبد الله هو الذى استجاب وحده للتصريح البريطانى ، بل رأى فيه فرصة ذهبية لتحقيق طموحه والخروج بسلطانه عن نطاق

إمارته الصغيرة وكانت سياسته منذ مدة قد اتجهت إلى استغلال ظروف الحرب لتحقيق ذلك الطموح فقد تطوع بإرسال جزء من فرقته العربية التى يقودها ضباط بريطانيون للمساهمة فى قمع حركة الكيلانى .

ويقال إن الجنود العرب حينما وصلوا إلى الحدود العراقية وعرفوا الهدف الذى أرسلوا من أجله امتنعوا عن المسير وصوبوا مدافعهم إلى ضباطهم (١) ولا شك أن هذا التدخل أضر بسمعة الأمير ولم يحقق له فائدة إذ أن معظم الوطنيين العرب اعتبروا محاولة الكيلانى حركة وطنية تحررية . ولما تقررت حملة سوريا ولبنان عرض الأمير عبد الله خدماته المشاركة فى الحملة إلا أن بريطانيا فضلت الاستغناء عن ذلك حتى لا يستنتج منها السوريون إن بريطانيا تمهد لعودة الهاشميين إلى البلاد .

وحتى من قبل أن يتم تسليم قوات فيشى فى سوريا ولبنان سارع الأمير عبد الله بإرسال مذكرتين بتاريخ ٢ يوليو ١٩٤١ يعرض فيهما فكرة سوريا الكبرى وكيف أنه يجب أن تندمج إمارة شرق الأردن فى سوريا ويسترد الأمير عرش الهاشميين فى دمشق ، الذى سقط فى سنة ١٩٢٠ وذلك قبل التفكير فى أى اتحاد عربى على نطاق أوسع . وقد طلبت بريطانيا إرجاء النظر فى الموضوع لأنها كانت تريد ألا تورط نفسها بفرض أى مشروع اتحادى على الأقطار العربية (٢) .

كان الأمير عبد الله يعلم جيداً أن وضع إمارته تحت الانتداب البريطانى لا يتناسب مع تطلعه إلى حكم سوريا . وهذا هو الدافع الذى

---

(١) Wilson p. 106.

(٢) أنظر الوثائق المتعلقة بموضوع سوريا الكبرى فى الكتاب الأبيض الأردنى الذى نشرته حكومة الأردن سنة ١٩٤٧ ومن الراجح أنه حذف الوثائق التى تدين الأمير عبد الله .

جعله يطالب فى يناير سنة ١٩٤٢ برفع الانتداب وهو يريد بذلك أن يسبق تدعيم الحكم الوطنى الجمهورى فى سوريا ، ولذلك ستنهار آماله حينما تجرى الانتخابات ويتسلم الوطنيون الحكم هناك سنة ١٩٤٣ .

وفى نفس هذه الحقبة ظهر مشروع اتحادى آخر وإن كان قد تأخر قليلا بسبب ظروف العراق الداخلية ونعنى بذلك مشروع الهلال الخصيب الذى قدمه نورى السعيد فى ديسمبر ١٩٤٢ إلى رتشارد كيزى وزير الدولة البريطانى لشئون الشرق الأوسط ونشر فيما عرف بالكتاب الأزرق .

ويلاحظ أن كلا المشروعين العراقى والأردنى قدما لجهات بريطانية وكان ذلك اتجاها خاطئاً من البداية لأنه ليس من المفروض أن بريطانيا هى المسئولة عن صنع الاتحاد العربى ولو استجابت بريطانيا لذلك لصح رأى القائلين بأن الاتحاد العربى أقيم لخدمة مصالح بريطانية (١) .

ويختلف مشروع الهلال الخصيب عن سوريا الكبرى فى أنه لا يدعو إلى اندماج تام بين سوريا والعراق ولا يطالب بعرش دمشق كما فعل الأمير عبد الله وإنما يهدف إلى إقامة اتحاد فيدرالى بين العراق وسوريا ولبنان وإمارة شرق الأردن وفلسطين . وفى رأى واضع المشروع أنه يمكن منح استقلال إدارى لليهود المقيمين حينذاك فى فلسطين لأنهم لن يكونوا خطراً يذكر وسط الدولة الكبيرة المقترحة .

وتشبه دوافع نورى السعيد فى هذا الاقتراح تلك التى حركت أمير شرق الأردن فهى تحقيق طموح رجل الاقطاع العراقى الذى كان يحس بأنه هو الموجّه فرع الأسرة الهاشمية فى بغداد .

يدل على ذلك أن نورى السعيد اتبع تقديم المشروع بإعلان الحرب على المحور فى يناير سنة ١٩٤٣ وبرر إعلان الحرب أمام مجلس النواب

---

(١) انظر أحمد طربين ص ٢٦٠

العراقى بأنه سيحقق آمال البلاد فى إقامة إتحاد عربى تحت زعامة الأسرة الهاشمية .

وقد كان تقديم الكتاب الأزرق مناسبة لكى يوجه أحد النواب فى مجلس العموم البريطانى استفسارا عما تم فى مشروع الاتحاد العربى فأتاح ذلك لوزير الخارجية أن يوضح رأى الحكومة البريطانية فى الموضوع ومما جاء فى بيان إيدن الذى ألقى فى ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٣ قوله « إن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف إلى كل حركة تنشأ بين العرب لتعزيز الوحدة الاقتصادية والثقافية والسياسية ، ولكن من الجلىّ أن الخطوة الأولى لتحقيق أى مشروع يجب أن تأتى من العرب أنفسهم والذى أعرفه أنه لم يوضع حتى الآن مثل هذا المشروع الذى ينال استحسانا عاماً » .

ربط بعض الكتاب بين هذا البيان البريطانى الثانى عن الوحدة العربية وبين أجراء المرحلة الأولى من المحادثات الجدية سنة ١٩٤٣ لتأسيس الجامعة العربية وقالوا إن التصريح الأول لم يلق صدى لأن مركز بريطانيا فى الحرب كان حرجا أما فى فبراير سنة ١٩٤٣ فقد تحسن وضعها ولاحت فى الأفق بوادر انتصارها فى الحرب فاكتسبَت التصريحات الصادرة عن حكومتها وزناً كبيراً .

وعندنا أن هذا التفسير يُشوّه تاريخ العرب الحديث إذ أنه يصور بداية حركة الاتحاد وكأنها من صنع بريطانيا وليست استجابة لدوافع وطنية نابعة من داخلُ الشعب العربى . وفى رأينا أن محادثات سنة ١٩٤٣ أثمرت بخلاف المشروعات السابقة التى أشرنا إليها لأن الحكومة المصرية دخلت طرفا فيها وكان من المستحيل تصور قيام اتحاد عربى بدون مصر ، ويلاحظ أن كلا من أمير شرق الأردن ونورى السعيد كان يستبعد مصر من فكرة الاتحاد العربى ويرى أن الخطوة الأولى هى تحقيق مشروع سوريا الكبرى أو الهلال الخصيب حتى ينفسح المجال أمامهما لتزعم حركة الاتحاد .

أما السؤال الذى يجب طرحه هاهنا فهو لماذا تحولت مصر سنة ١٩٤٣ إلى الارتباط بفكرة الوحدة العربية بعد أن كانت مترددة فى سنة ١٩٤١ ؛ ويفسر البعض ذلك بأن حكومة النحاس التى تسلمت السلطة بمساعدة الإنجليز كانت تتعاون مع دولة الاحتلال إلى أقصى حد وأن اتجاهها إلى فكرة الاتحاد العربى إنما هو مظهر من ذلك التعاون . ولكن ألا يمكن تفسير تحمس النحاس لفكرة الوحدة العربية بأنه أراد أن يمحو آثار حادث ٤ فبراير وذلك لأنه أدرك أن هذه الفكرة تلقى تأييداً ولو فى مجالات محدودة من الرأى العام المصرى . ونحن نسلم بأن الاندفاع نحو حركة الاتحاد العربى قد بدأ على مستوى الجهات الرسمية فى مصر ولكنه لم يلبث أن اكتسب قواعد شعبية .

وقد شرع النحاس يعبر عن اتجاهه الجديد عندما شجع على عقد المؤتمر الطبى العربى والمؤتمر الثقافى العربى فى القاهرة سنة ٤٢ ثم قام بزيارة لسوريا ولبنان وفلسطين للتعرف على أحوالها ولم تكن الزيارة مشجعة لأنه أطلع على شدة الانقسامات هناك وليس من موضوع هذا الكتاب أن نتتبع المراحل المعقدة التى مرت بها المحادثات بين الدول العربية المستقلة والتى انتهت بتأسيس الجامعة سنة ١٩٤٥ ويكفى أن نشير إلى أن كثيراً من العوائق قد زالت فى هذه الحقبة فقد تأكد استقلال سوريا ولبنان واطمأن الوطنيون هناك إلى أن الحكم الهاشمى لن يفرض عليهم وتسلم الوطنيون السلطة وزالت مخاوف ابن سعود من أن يكون الاتحاد أداة لخدمة مصالح الاسرة الهاشمية كما أن الحكومة المصرية أخذت على عاتقها التوفيق بين وجهات النظر المختلفة .

وقد أكدت فى بيان لهافى ٣٠ مارس سنة ١٩٤٣ أمام مجلس الشيوخ كيف أن اندفاعها نحو حركة الاتحاد العربى ليست مرتبطة أو مترتبة على تصريح إيدن فى مجلس العموم فقد ألقى وزير العدل تصريحاً نيابة عن رئيس الحكومة قال فيه « إنى معنى من قديم بأحوال الأمة العربية والمعاونة على

تحقيق آمالها فى الحرية والاستقلال ، وقد خطوت فى ذلك خطوات واسعة صادفها التوفيق فاتجه الحكم فى بعض الاقطار العربية الاتجاه الشعبى الصحيح ، فمنذ أعلن مستر إيدن تصريحه ، فكرت فيه طويلا ، ولقد رأيت أن الطريقة المثلى التى يمكن أن توصل إلى غاية مرضية هى أن تتناول هذا الموضوع الحكومات العربية الرسمية . وانتهيت من دراستى إلى أنه يحسن بالحكومة المصرية أن تبادر باتخاذ خطوات رسمية فى هذا السبيل فتبدأ باستطلاع آراء الحكومات العربية المختلفة فيما ترمى إليه من آمال كل على حدتها ، ثم تبذل جهودها للتوفيق والتقريب بين آرائها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ثم تدعوهم بعد ذلك إلى مصر معاً فى اجتماع ودى لهذا الغرض ، حتى يبدأ المسعى للوحدة العربية . فإذا ما تم التفاهم أو كاد وجب أن يعقد فى مصر مؤتمر برياسة رئيس الحكومة المصرية لإكمال بحث الموضوع واتخاذ مايراه من القرارات محققاً للاغراض التى تنشدها الأمم العربية . هذه هى خير السبل للسير فى الموضوع سيراً يكفل له النجاح ويضمن له التوفيق »(١) .

وحينما تم تأسيس الجامعة العربية فى سنة ١٩٤٥ كانت الحاجة إلى مركز التموين البريطانى قد زالت وبالتالى لا يمكن القول بأن الجامعة أنشئت لتكون أداة تمكن لبريطانيا بسط نفوذها على الشرق العربى أو حتى لتسهل لها التعامل مع الدول العربية ككل، فإن الحرب العالمية كانت موشكة على نهايتها ولم تلبث الجامعة العربية إن واجهت مشكلات من نوع جديد لا تتعلق بالعلاقة مع بريطانيا فحسب ، بل تشمل مجالات دولية أوسع . وإذا لم تكن قد وفقت فى أهم قضية عربية وهى قضية فلسطين فإن ذلك لا يطعن على فكرة الوحدة العربية فى حد ذاتها بل على العكس يدعو إلى التأمل فى ضرورة تعديل نظام الجامعة .

(١) مضابط مجلس الشيوخ المصرى (٣٠ مارس ١٩٤٣) ص ٣٤٦ .

(٢) تغير العلاقات مع الدول الكبرى

اختفت كل من المانيا وايطاليا من حلبة الصراع على النفوذ فى الوطن العربى ، ونحن نقرر هذه الحقيقة بعد أن تبين لنا من خلال تلك الدراسة أن هاتين الدولتين تعتبران من بين الدول التوسعية . كذلك فقدت فرنسا نفوذها فى الشرق العربى فى نهاية الحرب بينما لم يطرأ تغيير على طبيعة العلاقات بين بريطانيا من جهة وبين مصر والعراق من جهة أخرى ، كذلك احتفظت بريطانيا بمحمياتها على سواحل شبه الجزيرة . ولا يمنع ذلك من حدوث تغير فى أسلوب السياسة البريطانية للاحتفاظ بالنفوذ فى منطقة الشرق العربى . فقد صارت مستعدة لربط الدول العربية المستقلة بمعاهدات ضمان جماعية تحل محل المعاهدات الثنائية غير المتكافئة . وقد أشرنا إلى أنها عرضت على سوريا ولبنان سنة ١٩٤٥ معاهدة من هذا النوع بالاشتراك مع فرنسا ، إلا أن الوطنيين العرب رفضوا هذه الفكرة . وقد أحدثت الحرب تغيرا أساسياً فى نظرة الولايات المتحدة إلى الشرق العربى ، ففى الماضى كان اهتمامها قاصرا على النواحى الثقافية والاقتصادية . وقد أكرهت بريطانيا فى فترة ما بين الحربين على تطبيق سياسة الباب المفتوح وخاصة فيما يتعلق بامتيازات النفط وفى نفس الوقت كانت تسلم لبريطانيا تسليما تاما بالتفوق فى الشئون السياسية ، لذلك لم تفكر حكومة واشنجتن فى إقامة علاقات دبلوماسية مع السعودية مثلا قبل سنة ١٩٤١ بالرغم من أن شركات النفط الامريكية كانت قد حصلت على امتياز التنقيب هناك منذ سنة ١٩٣٣ . وحينما أرادت شركات النفط الامريكية أن تستفسر عن موضوع الحدود السعودية اتجهت إلى المفوضية البريطانية فى جدة ، دون حكومة الرياض .

وتمشيا مع هذه السياسة أيضا أحالت الولايات المتحدة طلب الاقتراض الذى تقدم به عبد العزيز آل سعود سنة ١٩٤٠ إلى بريطانيا ، وقد نشأ هذا

الطلب عن انقطاع موارد الحج وانصراف الولايات المتحدة عن استغلال نفط السعودية نظرا لصعوبة نقله عبر البحار التى انتشرت فيها الغواصات الألمانية .

ومن هنا ظلت علاقات السعودية ببريطانيا وثيقة طوال فترة الحرب حتى أن ابن سعود أرسل أحد أبنائه إلى العلمين لكى يثير الحماس فى نفس المجندين المسلمين من الهند فيحاربوا بإخلاص تحت العلم البريطانى . وبدخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية طرأ على سياستها تحول تام بالنسبة للشرق الأوسط عامة ولكى تمنع غزوا ألمانيا محتملا لتركيا أصدر روزفلت تصريحاً فى ديسمبر ١٩٤١ قال فيه إن سلامة تركيا تعد جزءا من أمن الولايات المتحدة ، ثم أبدت اهتماماً خاصاً بإيران باعتبارها حلقة اتصال مع الحليف السوفيتى ، كما ازداد نشاطها الحربى والسياسى فى مصر حيث كانت تقدم المساعدات المختلفة إلى الجيش الثامن البريطانى فى الصحراء الغربية وإن اقتصر دورها هنا على إنشاء الطرق والمطارات ولكنها لم تشترك بقواتها البرية فى جبهات الشرق الأوسط .

ومن مظاهر هذا التحول التفاوض مباشرة مع الحكومة السعودية لإنشاء مطار فى الظهران سنة ١٩٤٣ ولكن يلاحظ أنها لم تفعل ذلك إلا بعد استشارة الحكومة البريطانية وأخذ موافقتها . وإذن فإن التنافس الاقتصادى بين الدولتين لم يمنع من تنسيق سياستهما فى الشرق الأوسط إلى عدة سنوات بعد الحرب الثانية . ومن النتائج السيئة التى ترتبت على تدخل الولايات المتحدة فى شئون الشرق الأوسط السياسية ، تأييدها للحركة الصهيونية وترحيب بريطانيا بعد الحرب بمشاركتها فى حل قضية فلسطين ، وقد كان ميل الولايات المتحدة إلى الصهيونية معروفاً من قبل إلى حد أن لجنة التحقيق التى أرسلها ويلسن إلى الشام فى سنة ١٩١٩ أوصت بعدم قبول الولايات المتحدة للانتداب فى سوريا خوفاً من أن تتأثر بالضغط

الصهيونى . ومن ثم فإن سياسة العزلة التى اتبعتها الولايات المتحده فيما بين الحربين . قللت من فعالية المساعدة الامريكية للحركة الصهيونية .

لقد أتاحت الحرب العالمية الثانية ظروفا لم تكن لتتهيأ من قبل لإنشاء علاقات دبلوماسية بين الاتحاد السوفيتى وبين أربع من الدول العربية فى الشرق هى مصر والعراق وسوريا ولبنان . وفى السابق لم يكن الاتحاد السوفيتى يهتم إلا بدول الشرق الأوسط المتاخمة له وهى تركيا وإيران ، ولم يكن من السهل ممارسة نشاط سياسى فى الأقطار الخاضعة للنفوذ الاستعمارى لذلك اقتصر التمثيل الدبلوماسى مع الدول العربية على السعودية واليمن .

وإذا كانت ثمة أهداف للدعاية الشيوعية من وراء العلاقات الدبلوماسية فلا شك أن المجتمع فى اليمن والسعودية لم يكن مهيأ لتقبل أى نوع من تلك الدعاية ، وعلى هذا الافتراض فإن إنشاء علاقات دبلوماسية مع مصر أو غيرها من الدول العربية المتطورة كان يهم حكومة موسكو بالدرجة الأولى ومع ذلك فإننا لا نسلم بوجود ارتباط دائم بين النشاط الشيوعى الدولى وبين إيجاد علاقات رسمية مع الاتحاد السوفيتى .

أما البورجوازية المصرية المسيطرة على الحكم آنذاك فكانت تخلط دائما بين الأمرين وترى أن مجرد العلاقات التجارية مع السوفيت يمكن أن يكون ستارا لنشر الدعاية الشيوعية ، ولذلك رفض محمد محمود عرضا سوفيتيا فى سنة ١٩٣٨ لتبادل التمثيل السياسى مع موسكو . وعند قيام الحرب جدد الاتحاد السوفيتى العرض على على ماهر وتعهد بعدم التدخل فى شئون البلاد الداخلية بعبارة أخرى بعدم ممارسة أى نشاط للدعاية الشيوعية أو الاتصال بالشيوعيين فى مصر وهم آنذاك قلة نادرة وينتمى معظمهم إلى جاليات أجنبية . كما أبرز الاتحاد السوفيتى المصالح الاقتصادية

التى ستحققها مصر وذلك بتصريف جزء كبير من مخزون القطن الذى عرض الاتحاد السوفيتى شراءه مقابل توريد المخصبات . ورغم ذلك كله فقد رفض على ماهر العرض لأنه جاء فى أعقاب عقد الميثاق الالمانى السوفيتى فاعتبر أن انشاء علاقات دبلوماسية فى هذه الفترة مناف لروح معاهدة سنة ١٩٣٦ وينطبق على هذا الاعتبار القول بأن مصر كانت ملكية أكثر من الملك بمعنى أن بريطانيا نفسها كانت تتبادل التمثيل السياسى مع الاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت .

تغيرت الأوضاع نتيجة العدوان الالمانى على الاتحاد السوفيتى وتحول هذا الأخير إلى حليف هام لبريطانيا ، ومن المؤسف أن يكون هذا التحالف هو من العوامل التى أزالت بعض العقبات فى سبيل قيام علاقات مصرية سوفيتية .

على أن الاقطاعيين المصريين ظلوا مترددين فترة من الوقت إزاء التعامل مع السوفيت ، فى نوفمبر ١٩٤١ رفض حسين سرى مثلا مرور السفير السوفيتى بالقاهرة ثم كان صمود السوفيت أمام الغزو الألمانى الذى أثار إعجاب الكثيرين وبدأ مجلس النواب يناقش مسألة إنشاء علاقات دبلوماسية مع موسكو فى يناير سنة ١٩٤٢ ولم يلبث الوفد أن تسلم السلطة وكان أقل توجساً من الاحزاب الاقطاعية الأخرى نحو السوفيت .

وفى أثناء معركة استالنجراد التى حاز السوفيت فيها إعجاب العالم بأسره تم الاتفاق مبدئياً على إقامة العلاقات السياسية بين البلدين وذلك فى سبتمبر ١٩٤٢ وتعهد الاتحاد السوفيتى بعدم التدخل فى شئون مصر الداخلية غير أن هذا الاتفاق لم يوضع موضع التنفيذ إلا فى صيف ١٩٤٣ مما جعل بعض الكتاب(١) يربط بين حل الكومنترن والهيئة الشيوعية

(١) Kirk p. 491.

الدولية ، وبين فتح أبواب القاهرة للسفارة السوفيتية وفى رأينا أن هذا الأمر تم على سبيل المصادفة ولا يوجد ارتباط ضرورى بين الواقعتين .

لقد وردت فى ثنايا هذا الكتاب بعض إشارات إلى تردد الاتحاد السوفيتى فى تأييد النضال الوطنى ضد الاستعمار فى الأقطار العربية واتضح ذلك التردد من موقف السوفيت أثناء مساعى العراق لمواجهة التدخل البريطانى .

نعم اعترف الاتحاد السوفيتى بحكومة الكيلانى ولكن فسر هذا الاعتراف على أنه محاولة لإرضاء ألمانيا وثمة أمثلة أخرى على شذوذ موقف السوفيت من القضايا الوطنية العربية خلافاً لما تقتضيه المبادىء الماركسية ، ففى أثناء أزمة لبنان نوفمبر ١٩٤٣ أظهر الشيوعيون هناك عطفاً على فرنسا وظهرت صور ديجول بجانب ستالين وحجتهم هى أن بريطانيا والولايات المتحدة تريد الحلول محل فرنسا فى الشرق وأن هاتين الدولتين هما اللتان تثيران الاضطرابات لتخدم مصالحهما فى المستقبل وكان هذا تشويهاً لحقيقة نضال لبنان والدافع إليه غالباً هو قوة الحزب الشيوعى الفرنسى لدى حكومة فرنسا الحرة ومساهمته الفعالة فى المقاومة السرية للاحتلال الألمانى .

وفى العام التالى غيّر الزعيم الشيوعى خالد بكداش هذه النغمة فأعلن أن الشيوعيين فى سوريا مستعدون للتعاون مع الوطنيين بما فى ذلك كبار الملاك ولن يطالبوا بمصادرة أملاكهم أثناء معركة التحرير .

ولا نستطيع الجزم بأن الاتحاد السوفيتى مسئول دائماً عن تصرفات الشيوعيين فى الخارج ، وإذا صح هذا الافتراض وهو أمر راجح يمكن القول بأن الاتحاد السوفيتى صار مقتنعاً بأن الظروف الاجتماعية للعالم العربى لا تهيأ للثورة ولذلك فإن الأفضل التعاون مع البورجوازية الوطنية .

وحينما وقع الصدام بين السوريين والفرنسيين فى مايو سنة ١٩٤٥

أصبح موقف الاتحاد السوفيتى دقيقا فلم يمض زمن طويل على عقد معاهدة تحالف وصداقة مع حكومة ديجول المؤقتة وفى نفس الوقت لا يستطيع التخلى عن حركة تحرير وطنية ، خاصة بعد أن تغيرت نظرة الاتحاد السوفيتى نحو البورجوازيه الوطنيـة . وكان الموقف الأسلم هو أن تعلن حكومة موسكو عن رغبتها فى إنهاء الاستعمار فى الشرق العربى ، ولكن بشرط ألا تحل دولة استعمارية أخرى محل فرنسا . وقد رحب الاتحاد السوفيتى بأن تبحث الدول الكبرى الخمس مشكلات الشرق العربى إلا أن الدول الغربية رفضت ذلك وكانت بوادر الصراع بين المعسكرين قد لاحت فى الأفق .

لقد كان تجاهل الشيوعيين للمغرب العربى أكثر وضوحاً فقد كان الحزب الشيوعى الفرنسى مشتركا فى الحكم حينما وقعت مذبحة قسنطينة وسكت الاتحاد السوفيتى عن هذه المأساة . وكان الاتجاه السائد فى أعقاب الحرب هو أن يشارك الاتحاد السوفيتى فى تقسيم العالم إلى مناطق نفوذ وأن يتخذ من ذلك سبيلا الوصول إلى حوض المتوسط . لذلك اقترح توزيع المستعمرات الإيطالية السابقة على الدول الكبرى بحيث يكون لكل منها الوصاية على مستعمرة معينة وطالب هو بالوصاية على ليبيا وفضل ذلك الأسلوب على فكرة الوصاية الجماعية .

وعلى كل فإن هذا الاتجاه لم يستمر طويلا . ومع اشتداد الحرب الباردة عاد الاتحاد السوفيتى إلى سياسته الأصلية وهى تأييد الحركات الوطنية حتى ولو كانت تحت قيادة برجوازية كمرحلة من مراحل الثورة العالمية .

المصادر العربية

وثائق ومذكرات

مضابط مجلس النواب المصرى — الأجزاء المذكورة .

مضابط مجلس الشيوخ المصرى — الأجزاء المذكورة .

الكتاب الأبيض الأردنى (وثائق عن سوريا الكبرى) عمان ١٩٤٧ .

حداد — عثمان كمال : حركة رشيد عالى الكيلانى صيدا سنة ١٩٤٦ .

الحسينى — محمد أمين : مذكرات منشورة فى أخبار اليوم بالأعداد الصادرة بين أكتوبر ١٩٥٧ ويناير ١٩٥٨ .

السادات — أنور : أسرار الثورة المصرية منشورات دار الهلال .

الصباغ — صلاح الدين : فرسان العروبة فى العراق دمشق ١٩٥٦ .

الكيلانى — رشيد عالى : أسرار الثورة العراقية ومذكرات الكيلانى دمشق ١٩٥٨ .

هيكل — محمد حسين : مذكرات فى السياسة المصرية الجزء الثانى القاهرة ١٩٥٣ .

دراسات

ثامر — الحبيب : هذه هى تونس القاهرة ١٩٤٨ .

الحسنى — السيد عبد الرازق : الأسرار الخفية فى حركة السنة ١٩٤١ التحررية صيدا سنة ١٩٦٤ .

الرافعى — عبد الرحمن : فى أعقاب الثورة المصرية جزء ٣ .

زيادة — نيقولا : ليبيا من الاستعمار الايطالى إلى الاستقلال القاهرة ١٩٥٨ .

حيتون ويليامز : بريطانيا والدول العربية ترجمه الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى القاهرة ١٩٥٢ .

طربين — أحمد : الوحدة العربية بين (١٩١٦ — ١٩٤٥) القاهرة ١٩٥٧ .

العقاد — صلاح : الحرب العالمية الثانية دراسة فى تاريخ العلاقات الدولية القاهرة ١٩٦٣ .
المغرب العربى (الجزائر — تونس — المغرب الأقصى) الطبعة الثانية ١٩٦٦ .

المصادر الأجنبية

أولا : وثائق منشورة

— Diplomatic papers of Count Ciano, London 1948.

— Documents on German Foreign Policy, Washington 1948. Vol 10.

— Hurewitz. Diplomacy in the near and Middle east Vol 2 New York 1957.

— Statements of Policy by his Majesty's government in respect to Syria & Lebanon, London 1945.

ثانيا : مذكرات

— Churchill, Winston the Second world war 6 Vol. London. 1948 - 1953.

— Ciano's Dairy (1939 - 1943) english edition by Malcolm, Muggeridge New York 1946.

— Gaulle, Charles de Mémoires de Cuerre 2 Vol Paris 1954.

— Hull, Cordel, the Memoirs of Cordell Hull 2 Vol New Yo.k 1948.

— Sumner, Welles, the time for Decision, New York 1944.

— Wilson, Lord, Eight Years overseas (1939 - 1947) London 1948.

— Weizmann, chaïm, naissance d'israël, Paris 1957.

— Wigand, General Maxime, Rapplé au Service Paris 1950.

ثالثا : المؤلفات

— Catroux, General, Dans la Bataille de la méditerranée, Paris 1949.

— Colombe, Marcel : L'évolution De L'égypte (1924 - 1950) Paris 1951.

— Eliot : Roosvelt as he Saw it.

— Glubb, : Britan and the Arabs London 1959.

— Hourani, A. H. : Syria and Lebanon London 1946.

— Hurewitz, : the strauggle for Palestine New York 1951.

— Julien, Charle : L'Afrique du nord en marche Paris 1952.

— Khadduri Majid, : independent Iraq London 1960.

— Kirk, : The Middle east in the war Oxford 1952.

— Landau, Rom : The Moroccan drama London 1956.

— Lenczowski George, The Middle east in world affairs New York 1957..

— Longrigg, Stephen : Iraq (1900 - 50) Oxford 1953.

— Lugol ; L'Egypte et La deuxiéme guerre Mondiale Le Caire 1945.

— Pichon, Jean : La question de Libie Paris 1946.

— Prichard, Evans : Tho Sanussi of Cyrinaica London 1949.

— Rondot Pierre : les institutions Politiques au Liban Paris 1947.

فهرست الموضوعات

	الصفحة
تصدير	٥
تمهيــــد	٨
الفصل الأول — دور مصر	١٥
اختبار معاهدة ١٩٣٦	
الاتجاهات غير الرسمية	
الحرب فى الصحراء الغربية	
حادث ٤ فبراير	
حكومة الوفد ٤٢ — ١٩٢٤	
اعلان الحرب على المحور	
الفصل الثانى — العراق وتجربة القوة	٥٠
الجيش والسياسة	
وزارة الكيلانى مارس ١٩٤٠ يناير ١٩٤١	
الاتصالات السرية بالمحور	
انقلاب ابريل (نيسان)	
الاشتباك مع بريطانيا	
فى أعقاب الحركة	
الفصل الثالث — استقلال سوريا ولبنان	٩٢
تدخل الحلفاء	
النزاع الانجليزى الفرنسى ونتائجه	
الصدام فى لبنان	

الصدام فى سوريا

الفصل الرابع — استغلال الصهيونية للحرب ١٢٣

مغزى الكتاب الأبيض

دور الولايات المتحدة

فى داخل فلسطين

الفصل الخامس — تجاهل المغرب ١٤٢

تقلب السلطات الحاكمة

الاتجاهات الداخلية فى مراكش

فى تونس

فى الجزائر

سقوط الحكم الايطالى فى ليبيا

الادارة البريطانية ١٩٤٣ — ١٩٤٥

الفصل السادس نتائج عامة ١٧٠

أثر الحرب فى حركة الوحدة العربية

تغير العلاقات مع الدول الكبرى

المصادر العربية ١٨٧

المصادر الأجنبية ١٨٩